رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

نظرات في

الأسرة المسلمة

الدكتور
محمد بن لطفي الصباغ

جمعية الكتاب والسنة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

نظرات
في الأسرة المسلمة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

محفوظة
جميع الحقوق

الطبعة الثالثة

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

نظرات
في الأسرة المسلمة

الدكتور
محمد بن لطفي الصباغ

جمعية الكتاب والسنة
الأردن

الإهداء

❖ إلى أبنائي لطفي وأنس ومحمود

❖ وإلى بناتي خولة وجمانة وغنية وفاطمة

وسلمى وأسماء

أقدم هذا الكتاب

محمد

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذه الطبعة الثانية لهذا الكتاب، صححت فيها أغلاط الطبعة الأولى، وخرّجت أحاديثها، ونقحتها.

وقد ساعدني في تخريج الأحاديث ولدي العزيز المهندس أنس الصباغ أدام الله عليه توفيقه وحفظه من كل سوء ورعاه.

وموضوع هذا الكتاب ما يزال يحتل في نظري درجة متقدمة من الاهتمام، وفق الله العلماء العاملين والدعاة الصادقين إلى أن يعطوا موضوع حماية الأسرة وصيانتها ما يستحقه من الرعاية والتخطيط، وردّ الله المسلمين إلى دينهم رداً جميلاً.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

الرياض في ١١ محرم سنة ١٤٠٨ هـ.

وكتبه محمد بن لطفي الصباغ

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهدِ الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد،،

فهذه مقالات وكلمات كتبت في أزمنة متعددة، امتدت نحواً من عشرين سنة، نشر بعضها في مجلات إسلامية، وأذيع بعضها من الإذاعة السعودية، وبعضها لم يُنشر ولم يُذع.

وقد كنت محتفظاً بها على نية أن يتاح لي وقت للنظر فيها وإعدادها للطبع، ولكنّ الأعمال العلمية المتتابعة والمشاغل اليومية والمتاعب الصحية كانت تحول بيني وبين تنفيذ تلك النية، وكنت أطالَب من قبل عدد من الفضلاء بإصدارها في كتاب.

فاستخرت الله وقدمتها كما كتبتها، وكل ما أدخلته عليها هو دمج الحلقات المتتابعة في موضوع واحد. وإني لأرجو أن يكون طبعها وسيلة للنظر فيها وتعديلها حتى إذا ما أعيدت طباعتها حققت فيها ما كنت أرجوه وأتطلع إليه.

وقدمت هذه المجموعة من المقالات تحت عنوان: **نظرات في الأسرة المسلمة**، لما

أرى من أهمية الموضوع الذي تعالجه، ذلك لأن الأسرة[١] المسلمة هي الآن الدريئة المستهدفة من الأعداء، لأنها ما تزال في عدد من بلادنا محتفظة بكثير من المعاني والقيم الإسلامية التي حطمها أولئك الأعداء في مجالات الحياة الأخرى.

إن هذه المجموعة "نظرات في الأسرة" تعتمد على القرآن والسنة الثابتة، وتنتفع من التجربة التاريخية والاجتماعية، وتعالج الواقع المهدد بأعظم الأخطار.

ويتبيّن من أسلوب هذه الكلمات أنها أعدَّت لمخاطبة الناس عامة، وفيهم المثقف والعاميّ، والعالم والرجل العاديّ، ومن أجل ذلك كتبت مبسطة واضحة.

وربما وجد القارئ الكريم المعنى الواحد يتكرر في أكثر من مقالة، ولكن ذلك يأتي منسجماً في موضعه، بأسلوب يختلف عن الموضع السابق. ولولا أهميته لما تكرّر.

ويقرر العلماء أن التكرار لا يكون عيباً إلا إذا كان مملاً قد أتى في غير موضعه وبالأسلوب نفسه.

ولا بدّ لي من تقرير حقيقة تتصل بهذا الكتاب، وهي أنّ هذه الموضوعات ضمّت خلاصة تجربتي في الحياة، فلقد كنتُ أسعى في الصلح بين الأزواج وإصلاح ذات البين، وكان يرجع إليّ كثير من الناس في مشكلاتهم العائلية، وكنت أنجح بفضل الله وتوفيقه في مسعاي. فأكسبني ذلك خبرة اجتماعية، وقد ذكرت بعض هذه التجارب في هذه الكلمات.

وكانت أسئلة الناس الدينية التي أتلقاها في دروسي وعن طريق الهاتف معينة لي على معرفة واقعنا الحاليّ معرفة جيدة.

هذا ولم أكن في كتابة هذه المقالات متعجلاً.. بل كنت أطيل النظر في كثير من أفكارها، وكنت أرجع في كثير منها إلى مراجع عدة: في التفسير والحديث والفقه

---

(١) الأسرة لغة: الدرع الحصينة، ومن الرجل أهله الأدنون وعشيرته لأنه يتقوى بهم ولم ترد هذه الكلمة في القرآن الكريم، ولم أقف عليها في السنة إلا في حديث ضعيف أخرجه أبو داود في كتاب الحدود باب في رجم اليهوديين رقم ٤٤٥٠ [ثم زنى رجل في أسرة من الناس].

والعقيدة والتاريخ والصحف.

وكنت حريصاً: أشدَّ الحرص على ألّا أستشهد بحديث إلا إذا كان صحيحاً. فإن كان معناه جيداً وهو ضعيف ذكرته وأشرت إلى ضعفه في صلب الكلام أو الهامش.

ومهما يكن من أمر فإني أرجو من إخواني وأولادي أن يوافوني بما يرون من نقد.

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه وأعذنا من شرور أنفسنا ومن كيد أعدائنا وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين والحمد لله رب العالمين.

الرياض ١٢ محرم سنة ١٤٠٥ هـ
(٧ تشرين أول سنة ١٩٨٤ م)
محمد بن لطفي الصباغ

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المـرأة

يشكو المراقبون المخلصون للعمل الإسلامي المعاصر تقصيراً بيناً في موضوع المرأة من قبل الحركات الإسلامية التي قامت في العصر الحديث. ولست أريد في هذه الكلمة أن أبحث في أسباب ذلك، وإنما الذي يعنيني هنا أن أقرر الحاجة الماسة إلى العناية بالمرأة، وأن أقدم مقترحات أولية عسى أن يعمل بها من يقتنع بصحتها ووجاهتها.

كان المجتمع في الماضي يسمح بأن يصل صوت الإسلام إلى المرأة؛ وذلك لأن المجتمع يومذاك كان قائماً على الشريعة الإسلامية في شتى جوانب الحياة الاجتماعية، ولأن الشخصية المسلمة كانت ما تزال قائمة ومستقلة متميزة، ولأن الثقافة الإسلامية من فقه وتوحيد وتفسير وحديث كانت الإطار الثقافي الوحيد الذي تقع ضمنه عقول الناس جميعاً من عامة ومثقفين، وكان تأثر المرأة بهذه الثقافة عن طريق البيت الإسلامي وبواسطة الرجل تأثراً جيداً.

ومن ثم لم يشعر الدعاة إلى الله بالحاجة الماسة إلى أن يولوا هذا الموضوع الأهمية البالغة التي نشعر بضرورتها اليوم.

وجاء العصر الحاضر الذي حفل – وا أسفاه- بالنكبات الملمات فكان فيه أمران خطيران: تسميم مناهج التعليم، وتضليل أدوات التوجيه.

أما مناهج التعليم فقد وضعت في بلاد المسلمين من قبل أعداء الأمة ودينها، وقد أقيمت ليتخرج بها الذكور والإناث على حدّ سواء، فأصبحت المرأة معرضة إلى مخاطر الإلحاد والزيغ والشك في كل مقوماتها وكيانها الفكري والديني.

وأما أدوات التوجيه التي استطاعت الحضارة المعاصرة أن توصل تأثيرها إلى كل

بيت، وتنفذ بها إلى كل وسط، فقد كانت بأيدي أناس لا حظّ لهم من الخلق ولا نصيب لهم من التدين، وأهم هذه الأدوات الإذاعة والتلفزيون والسينما والصحافة وكلها - واحرّ قلباه- في أصقاع عدة من بلادنا معاول تهدم في صرح الخلق الإسلامي النظيف، وتزلزل أركان العرف الإسلامي القويم.

إن مناهج التعليم وأدوات التوجيه أوجدت جيلاً من أبناء المسلمين وبناتهم مشككاً قلقاً منهار الخلق، فقامت الحركات الإسلامية تعالج هذا الواقع بالنسبة إلى الذكور، وتعدّد الوسائل الرامية إلى إصلاحهم واستنقاذهم من الحال المؤلمة التي صاروا إليها، وقد أحرزت في ذلك بعض التقدم؛ ولكنها لم تعن بالمرأة العناية اللازمة، وبذلك فقد حرمت المرأة من سماع صوت الإسلام الذي كان المجتمع في الماضي متكفلاً بإيصاله إليها، لأن المجتمع قد تبدل وتغير، وخضعت في الوقت نفسه لمؤثرات باغية طاغية من التضليل والإغواء، فكان من ذلك انحراف وفساد كبير؛ ولم تسوّ الحركات الإسلامية بين الذكور والإناث في توجيه الدعوة، بل إنها كانت تتجاهل هذه القضية في كثير من الأحيان، بسبب صعوبات ليس المجال مجال تعدادها، والتجاهل لا يغير من الواقع شيئاً، بل يعقد المشكلة ويزيد من صعوبة حلها في المستقبل. أفليس من المؤلم أن يكون نصف المجتمع حقلاً خصباً لأعداء الإسلام لا يجدون فيه منافساً؟

إن المرأة بالنسبة إلى كل مسلم أم أو أخت أو زوجة. أوليس من الواجب أن تحظى أمهاتنا وأخواتنا وزوجاتنا بالعناية فيما يعود عليها وعلى أسرتها وأمتها بالخير والسعادة في الدنيا والآخرة؟

هذه تذكرة لرجال الفكر والقيادة. وما يزال هناك متسع من الوقت لتلافي شيء مما فات، أما بعد مدة فلن تكون هناك جدوى ولات ساعة مندم.

ونحن اليوم نرى أن المرأة أصبحت ذات تأثير على المجتمع من جوانب متعددة: فهي أم تخرج الأجيال.

وزوج تؤثر على الرجال.

وهي عملياً تشغل كثيراً من الوظائف والمناصب، ولها الحق في التصويت والتمثيل في مجالس الأمة.

فهل يجوز أن نسقط كل هذه الطاقات من حسابنا نحن معشر المسلمين؟

والشاب المسلم يعاني أزمة مستحكمة خانقة لأنه لا يستطيع أن يجد الزوجة التي تكون له عوناً على الطريق الشائك الصعب الذي يسلكه في هذه الحياة. وكم سمعنا من مآسي كثير من الشباب المؤمنين بسبب الزواج. مآسٍ تجعلهم ينشغلون بأنفسهم عن شؤون دعوتهم، وقد ينتاب بعضهم أمراض نفسية خطيرة، وقد تعصف ببعضهم من ضعاف النفوس أعاصير الأزمة حتى ينحرفوا انحرافاً تاماً عن أصل العقيدة.

إن كل ما تقدم يوضح الحاجة الملحة إلى العناية بالمرأة.

وعلى العاملين في الحقل الإسلامي أن يفكروا في الوسائل العملية المؤدية إلى هذه العناية. وهذه بعض المقترحات من أجل ذلك:

١- ينبغي أن تنشط الأخوات القادرات على المحاضرة والخطابة والكتابة وأن تعد الوسائل الكافية لإعداد الداعيات منهن بكل الأساليب الممكنة وأن يشعرن بالمسؤولية الضخمة التي تتحملها ذوات الكفاءة والموهبة منهنّ.

٢- كان للنساء في العهد المثالي الكريم حظ من الرسول ﷺ يعظهن ويجيب على أسئلتهن، ولم تكن المرأة مهملة ولا منسية أبداً حينذاك، فمن الجدير بأهل العلم ورثة الأنبياء أن يلتفتوا إلى هذا الموضوع وأن يوفروا في المسجد وقاعات المحاضرات أماكن معينة تجلس فيها النساء ويستمعن الموعظة مع مراعاة آداب الإسلام في عدم الاختلاط وفي الستر.

٣- يجب أن تكون كل أنواع النشاط الملائمة لطبيعة الأنثى متاحة للفتيات المسلمات في إطار إسلامي هادف واعٍ كالمحاضرات وضروب الرياضة الخفيفة

والمشاغل النسوية وألوان التسلية البريئة.

٤- يحسن تخصيص أماكن للنساء في كل جامع ومسجد كما سبق أن أشرنا ليتسنى لهن سماع خطبة الجمعة وأداء صلاتها وصلاة العيدين والمواعظ العامة وما يقدرن عليه من الصلوات وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»[1] ... إلى غير ذلك من المقترحات.

نسأل الله تعالى أن يسدد خطوات العاملين للإسلام وأن يحقق لهم النصرة وأن يمكن لهم وفي ذلك سعادة الناس أجمعين.

(١) انظر «صحيح البخاري» ٢/ ٦ و«صحيح مسلم» ٤٤٢ و«سنن أبي داود» ٥٦٦ و«موارد الظمآن» رقم ٣٢٦ و«الموطأ» ١/ ١٩٧ و«مسند أحمد» ٢/ ١٦ و«سنن ابن ماجه» رقم ١٦ و«الدارمي» ١/ ٢٩٣ و«اللؤلؤ والمرجان» رقم ٢٥٤ و«صحيح الجامع الصغير» رقم ٧٤٥٦.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

صيانة الإسلام للمرأة[١]

يقول الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣٠-٣١].

هاتان الآيتان الكريمتان من أعظم ما كرّم به الإسلام المرأة، وإننا لنحسُّ بقيمة هذا التكريم ونحن نشاهد ونقرأ ونسمع أنباء حضارة الغرب التي امتهنت المرأة امتهاناً شديداً، حتى لم تعد إلّا لعبة بالأيدي، ومتعة للذة ما دام فيها رواء وشباب فإذا جاوزت مرحلة الصبا، وذوت فيها نضرة الجمال، نُبذت نبذ النواة، وأعرض عنها كل ناظر اشمئزازاً ونفوراً، ولم تعد تأمل بأن تحظى بأي لون من الإكبار والإجلال مهما كان باهتاً. وإن كانت سعيدة الحظ أصابتها نظرة عطف كما يعطف على العاجزات المشلولات!! وتركت تعاني شيخوخة بائسة!!

إن المرأة أسمى من هذا المستوى، إنها إنسان يجب أن تتمتع بما يتمتع به الإنسان من حقوق، إن الغريزة جانب فيها كما هي في كل مخلوق، ومن أجل ذلك كان واجباً

(١) كتبت هذه الكلمة بعد تأثري بقصيدة خبيثة نشرت تحت عنوان (مزقيه) أي مزقي البرقع.

على المسلم أن يصونها عن كل ما يخدش كرامتها الإنسانية.

إن نظرة الإسلام إلى المرأة نظرة احترام وإنصاف ورعاية، وقد شرع لها كل ما يحفظ لها كرامتها ويوفرها، وكل ما يحقق لها حمايتها وإنصافها، ومن ذلك حجبها عن الأجانب، والحيلولة بينها وبين كل ما يؤدي إلى الجريمة أو الريبة من الاختلاط وإطلاق النظرات وإبداء الزينة والسفر دون محرم.

وقد قررت هاتان الآيتان أموراً ثلاثة هي: غض البصر، وحفظ الفرج، وإخفاء الزينة والاحتجاب عن الأجانب.

ويعجبني في هذا المجال أن أورد بعض ما ذكره صاحب الظلال في تفسير هذه الآية قال رحمه الله:

[إنّ الإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف، لا تهاج فيه الشهوات في كل لحظة، ولا تستثار فيه دفعات اللحم والدم في كل حين، فعمليات الاستثارة المستمرة تنتهي إلى سعار شهواني لا ينطفئ ولا يرتوي، والنظرة الخائنة، والحركات المثيرة، والزينة المتبرجة، والجسم العاري.. كلها لا تصنع شيئاً إلا أن تهيج ذلك السعار الحيواني المجنون! وإلا أن يفلت زمام الأعصاب والإرادة، فإما الإفضاء الفوضوي الذي لا يتقيد بقيد، وإما الأمراض العصبية والعقد النفسية الناشئة من الكبح بعد الإثارة! وهي تكاد أن تكون عملية تعذيب!!.

وإحدى وسائل الإسلام إلى إنشاء مجتمع نظيف هي الحيلولة دون هذه الاستثارة، وإبقاء الدافع الفطري العميق بين الجنسين سليماً، وبقوته الطبيعية، دون استثارة مصطنعة، وتصريفه في موضعه المأمون النظيف.

ولقد شاع في وقت من الأوقات أن النظرة المباحة، والحديث الطليق، والاختلاط الميسور، والدعابة المرحة بين الجنسين، والاطلاع على مواضع الفتنة المخبوءة.. شاع أن كل هذا تنفيس وترويح، وإطلاق للرغبات الحبيسة، ووقاية من الكبت، ومن العقد النفسية، وتخفيف من حدّة الضغط الجنسي، وما وراءه من

اندفاع غير مأمون... إلخ... ولكن هذا لم يكن سوى فروض نظرية، رأيت بعيني في أشد البلاد إباحية وتفلتاً من جميع القيود الاجتماعية والأخلاقية والدينية والإنسانية ما يكذبها وينقضها من الأساس. نعم شاهدت في البلاد التي ليس فيها قيد واحد على الكشف الجسدي، والاختلاط الجنسي، بكل صوره وأشكاله، أن هذا كله لم ينته بتهذيب الدوافع الجنسية وترويضها. إنما انتهى إلى سعار مجنون لا يرتوي ولا يهدأ إلا ريثما يعود إلى الظمأ والاندفاع! وشاهدت الأمراض النفسية والعقد التي كان مفهوماً أنها لا تنشأ إلا من الحرمان، وإلا من التلهف على الجنس الآخر المحجوب، شاهدتها بوفرة ومعها الشذوذ الجنسي بكل أنواعه.. ثمرة مباشرة للاختلاط الكامل الذي لا يقيده قيد ولا يقف عند حدّ، وللأجسام العارية في الطريق، وللحركات المثيرة والنظرات الجاهرة واللفتات الموقظة.. إنّ الميل الفطري بين الرجل والمرأة ميل عميق في التكوين الحيوي.. فهو ميل دائم يسكن فترة ثم يعود، وإثارته في كل حين تزيد من عرامته، وتدفع به إلى الإفضاء المادي للحصول على الراحة، فإذا لم يتم هذا تعبت الأعصاب المستثارة، وكان هذا بمثابة عملية تعذيب مستمرة! والنظرة تثير، والحركة تثير، والضحكة تثير، والدعابة تثير، واللذة المعبرة عن هذا الميل تثير، والطريق المأمون هو تقليل هذه المثيرات بحيث يبقى هذا الميل في حدوده الطبيعية، ثم يلبّى تلبية طبيعية.. وهذا هو المنهج الذي يختاره الإسلام، مع تهذيب الطبع وشغل الطاقة البشرية بهموم أخرى في الحياة غير تلبية دافع اللحم والدم، فلا تكون هذه التلبية هي المنفذ الوحيد.

وغض البصر.. أدب نفسي ومحاولة للاستعلاء على الرغبة في الاطلاع على المحاسن والمفاتن في الوجوه والأجسام، كما أنّ فيه إغلاقاً للنافذة الأولى من نوافذ الفتنة والغواية، ومحاولة عملية للحيلولة دون وصول السهم المسموم.

وحفظ الفرج هو الثمرة الطبيعية لغض البصر. أو هو الخطوة التالية لتحكيم الإرادة ويقظة الرقابة، والاستعلاء على الرغبة في مراحلها الأولى، ومن ثم يجمع

بينهما في آية واحدة، بوصفهما سبباً ونتيجة أو باعتبارهما خطوتين متواليتين في عالم الضمير وعالم الواقع. كلتاهما قريب من قريب].[1]

وكما حرّم على الرجال النظر إلى النساء فكذلك فقد حرّم على النساء النظر إلى الرجال، وأمرهن بغض الأبصار، حتى يقطع على الشيطان كل سبيل، وحتى يكون ذلك سداً للذريعة. إنّ الإسلام عندما يحرم جريمة الزنا، ويشدد في عقوبة مرتكبيها يسدّ كل الطرق المؤدية إليها، لأنه ليس من العدالة في شيء أن ندفع المرء دفعاً إلى الجريمة بكل وسائل الإعلام وطرائق الإغراء والإثارة من إذاعة وتلفزيون وصحافة ثم نحظر عليه ما تؤدي إليه هذه الوسائل والطرق ونرتب عليه العقوبة الزاجرة، ويقسو المجتمع في النظرة إلى المجرمة خاصة ويجعلها من الساقطات.

ومما يحقق الغاية المثلى في نظافة المجتمع منع إبداء الزينة والاحتجاب عن الرجال الأجانب والآية تذكر هذا بالتفصيل.

إن الزينة ليست محرمة على المرأة ولكن المحرم هو أن تبدي هذه الزينة للرجال فتكون سبباً في فتنتهم أو تكون هي هدفاً للجريمة الغليظة.

والزينة للمرأة أمر فطري، [والإسلام لا يقاوم هذه الرغبة الفطرية ولكنه ينظمها ويضبطها ويجعلها تتبلور في الاتجاه بها إلى رجل واحد هو شريك الحياة] ويأتي الأمر بالحجاب صريحاً في قوله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.

أيتها المسلمات الفضليات:

إنّ الحجاب صيانة لكنّ، وامتثال لأمر الله جل جلاله، وبتطبيقه ترتفعن إلى المستوى الإنساني الكريم، وهو في الوقت ذاته لا يعوق إحداكن عن بلوغ أعلى مرتبة تطمح إليها أنثى، فلقد كانت المرأة المسلمة تخوض غمار الوغى وتتعلم العلم

(١) الظلال ط الشروق ٤/ ٢٥١١-٢٥١٢.

وتعلمه وهي محافظة على حجابها ولله در عائشة التيمورية[١] حين تقول:

بيد العفاف أصون عز حجابي وبعصمتي أسمو على أترابي
وبفكرة وقادة وقريحة نقادة قد كملت آدابي
ما ضرني أدبي وحسن تعلمي إلا بكوني زهرة الألباب
ما عاقني خجلي عن العليا ولا سدلُ الخمار بلمتي ونقابي[٢]

وإن كل دعوة لترك هذا الحجاب مؤامرة عليكن تجلب لكنّ الشقاء في الدنيا والعذاب في الآخرة، وقانا الله وإياكن مزالق الهوى وحفظنا من وسوسة شياطين الإنس والجن، وأخذ بنواصينا إليه.

٧ ربيع الأول سنة ١٣٩٨ م

(١) هي عائشة عصمت بنت إسماعيل باشا بن محمد كاشف تيمور، شاعرة أديبة من نوابغ مصر، تقول الشعر بالعربية والفارسية ولدت ١٢٥٦هـ- ١٨٤٠م وتوفيت ١٣٢٠هـ- ١٩٠٢م لها كتب وديوان شعر وهي شقيقة أحمد تيمور.

(٢) وبعد هذه الأبيات البيتان الآتيان:

عن طيّ مضمار الرهان إذا اشتكت صعب السباق مطامح الركاب
بل صولتي في راحتي وتفرسي في حسن ما أسعى لخير مآب

وقد أورد هذه الأبيات الشيخ علي الطنطاوي في كتاب "المحفوظات" والهاشمي في "جواهر الأدب".

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

واجب المرأة المثقفة نحو نفسها وبيتها

إن مجتمعنا بحاجة إلى إصلاح.. ولا بدّ أن تتعاون القوى مجتمعة على عملية الإصلاح هذه.. فلا الدولة وحدها.. ولا الفرد وحده.. ولا الرجل وحده.. ولا المرأة وحدها.. ولا البيت وحده.. ولا المدرسة وحدها.. ولا النظام وحده.. ليس واحدٌ من هؤلاء بمفرده يحقق الإصلاح المنشود.. بل لا بدّ أن تتعاون هذه المؤسسات كلها، والأفراد جميعهم على إقامة أسس الإصلاح ورعايته حتى يؤتي أكله.

والمرأة عامل مهم أساسي من عوامل الإصلاح.. ولا سيما إن كانت مثقفة ونودّ في هذه الكلمة الموجزة أن نتبين واجب المرأة نحو نفسها وبيتها، لأن قيامها بهذا الواجب يؤهلها للقيام بواجبها في المجتمع.

والخطوة الأولى التي تمكنها من ذلك كله أن تشعر بمسؤوليتها أمام الله.. وأن تشعر بمسؤوليتها عن بيتها وأمتها.. وكون هذه المسؤولية أمام الله يحملها على مضاعفة الجهد والبعد عن التقصير؛ لأنه تبارك وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. وهذا يقتضيها أن تنبذ اللامبالاة، والاقتصار على الاهتمام بشؤونها الخاصة، كما تفعل كثير من السيدات المثقفات في هذه الأيام، ويقتضيها أن تتحمل قسطاً من أعباء الإصلاح والبناء. وإذا كانت الحياة الإنسانية لا يمكن أن تقوم ولا أن تستمر إلا بالمرأة، فطبيعي أن تشارك المرأة في كل ما يتصل بهذه الحياة.

والخطوة الثانية أمور عدّة تتصل برفعها من مستواها وإعدادها للقيام بمهمة الإصلاح ونذكر منها:

١- أن تزداد صلتها بكتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله ﷺ. فكتاب الله هو

الهدى والنور، وهو الحبل المتين من تمسك به أفلح وهدي إلى صراط مستقيم وحيزت له السعادة الدنيوية والأخروية، وسنة رسول الله ﷺ هي البيان الشافي والنهج الواضح. فما يليق بالمرأة المثقفة المسلمة أن تشغلها شؤون الحياة المتشعبة عن الرجوع إلى هذين المصدرين والتزود من معينهما.. نعم لا يليق أن يمر يوم دون أن تخصص وقتاً للاتصال بكتاب الله وسنة رسوله تلاوة وتدبراً ووعياً.

وينبغي أن تنتقل هذه الصلة الوثيقة بصاحبتها إلى ميدان التطبيق والالتزام، فتعنى بأن تكون حياتها ترجمة حية ناطقة لما جاء فيهما، وتعنى بروحها وعبادتها الواجبة والمستحبة، فاليقظة الفكرية والتآلف الروحي وسيلتان رائعتان تمكنان الراغبة في الدعوة من النجاح والعمل الجاد البناء.

٢- ومنها أن تنمو ثقافياً عن طريق متابعة المطالعة والاستزادة من المعرفة، فذلك ينأى بها عن الإسفاف الذي تنحدر إليه كثيرات ممن ودعن القراءة والاطلاع بعد أن حملن الشهادات العالية.

٣- ومنها أن تلزم نفسها بتهيئة الوسط الصالح الذي تحيا فيه وتتعاون معه على الخير، وتتبادل معه النصح، وألا تكون صلاتها إلا بمن يعينها على مهمتها الجليلة، مهمة الإصلاح والبناء، وقد أمر الله رسوله ﷺ بذلك فقال عز من قائل: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

٤- ومنها أن تقوم بعملية مزدوجة بينها وبين نفسها، هذه العملية ترتكز على عنصرين:

أولهما: تقويم عملها دائماً بموضوعية محايدة، ونقد ذاتي لتصرفاتها تناقش هذه التصرفات، كما لو كانت من امرأة غريبة.

وثانيهما: التخطيط للخروج من الوضع الحالي إلى الوضع الأمثل بناء على

التجربة التي عانتها وانتقدتها.

إنّ ما سبق ذكره يعدّ المرأة المثقفة المسلمة للقيام بواجبها الذي نجد له مجالين هما: البيت والمجتمع.

أما البيت فإنه القلعة الحصينة التي ما يزال أعداء الإسلام يوجهون نحوها سهامهم يريدون أن ينحّوا كل أثر للإسلام عنه، ولم يستطيعوا حتى الآن اقتحامه والسيطرة عليه بصورة عامة، ولكنهم مع الأسف استطاعوا أن يتسللوا إلى بعض أعضائه عن طريق مناهج التعليم ووسائل الإعلام، وهم سائرون في عملهم التخريبي بمكر، ماضون فيه بتخطيط، وبمقدار غياب الوعي عن هذا البيت يستطيع هؤلاء الأعداء أن يحققوا أغراضهم بيسر وسهولة. والمرأة في البيت هي الدعامة الرئيسية، وواجبها صيانة بيتها من وسائل الأعداء المدمرة، والمحافظة على أن يستمر البيت بأداء مهمته الخالدة في تنشئة أبناء هذه الأمة على الإسلام وموالاته.

وهي - إن كانت مثقفة- تستطيع أن تجعل منه منطلقاً لتخريج الأبطال، وقد عرفنا - فيما يقصه علينا التاريخ من أنباء- عمالقةً كان للبيت المسلم تأثير كبير عليهم، ونستطيع أن نضرب مثلاً على ذلك ابن تيمية الذي كان لبيته الفاضل أثر واضح في تنشئته على العلم والجهاد والصلاح والإصلاح، وغيره كثير. وعرفنا في العصر الحاضر عدداً من رواد الإصلاح والدعوة الإسلامية كان للبيت المسلم أكبر الأثر في تكوينهم.

وهي - إن كانت مثقفة مخلصة حكيمة- تستطيع أن تحمي أولادها وزوجها من الانحراف... بل إنها - إن كانت قوية الشخصية- لتستطيع أن تصلح من أوضاع إخوتها ووالديها.. وتحملهم جميعاً على جادة الإسلام.

إن الجيل الحاضر جيل مترف مترهل أفسدته وسائل الراحة والرفاهية وعوامل التسلية والمتعة حتى غدا بعيداً عن الرجولة والاستقامة والصواب.. إن هذا الجيل لا يستطيع أن يستعيد الأرض ولا أن يزيل العار.

وحل قضية الإسلام السياسية الكبرى (قضية فلسطين) لا يمكن أن يحققه إلا جيل مؤمن مجاهد.

وهذه مهمة المرأة المسلمة الواعية في البيت المسلم، وقد حدثنا القرآن عن نساء فضليات كان لهن الأثر العظيم، من أمثال مريم وأم موسى وملكة سبأ وامرأة فرعون[١]. وقد حفل تاريخنا بالعدد الوافر من هؤلاء النساء على مرّ العصور من أمثال خديجة وعائشة وأم سلمة[٢].... وكثيرات.

إن سلامة البيت الذي يستقبل الوليد تضمن له السلامة النفسية والعقلية والصحية، وتغرس فيه القيم الأصيلة التي نحتاج إليها في حياتنا عامة وفي معركتنا خاصة.

فإلى هذه المهمة العظمى يا أيتها الأخت الكريمة والله يسدد خطاكِ على طريق الحق.

١٣٩٨/٥/٨

(١) انظر كتاب توجيهات الإسلام، للشيخ محمود شلتوت.

(٢) انظر كتاب نساء الإسلام، لسليمان الندوي.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

واجب المرأة المثقفة نحو المجتمع

عالجت في المقالة السابقة واجب المرأة المسلمة المثقفة نحو نفسها وبيتها، وسأتحدث اليوم عن الدور العظيم الذي ينتظرها في المجتمع.

إن النساء العاديات لا يستطعن أن يدركن بعمق خطر التيارات الاجتماعية الماحق، ولا يستطعن مقاومة ما يسود في الأوساط الاجتماعية من نزعات التقليد الأعمى، وموجات التبرج والاختلاط، ولو أنهن أدركن خطر هذه التيارات والنزعات، وملكن الجرأة في مقاومتها، لكنهن لا يملكن الأداة الفعالة من التعبير كتابة وحديثاً وفكراً.

هذه الأمور مجتمعة تضع المرأة المثقفة أمام واجب ضخم عظيم، هو التصدي لهذه التيارات الهدامة وتعرية هذه الحركات المدمرة وكشفها والدعوة إلى مقاومتها والحذر منها، وإنها لمهمة ثقيلة.

ولم يشهد تاريخنا الفكري والاجتماعي غزواً ضارياً قوياً مؤهلاً بوسائل فعالة. كهذا الغزو الرهيب؛ الذي يحاول أن يرد المسلمين عن دينهم، وأن ينقل إليهم الوضع البغيض الذي يقوم في دنياه. ذاك الوضع ينسجم مع نظرة الغرب العامة للزنا، فهم لا يرون ضرورة لحصر المتعة على الحياة الزوجية، ولا يشعرون باحترام بالغ لفكرة البيت، حتى قامت في الوقت الحاضر دعوة تنادي بإلغاء الزواج. فالعري والتبرج وإظهار المفاتن والاختلاط شيء طبيعي نتيجة لهذه النظرة المنحرفة. بينما يقوم مجتمعنا في الإسلام على حصر تصريف الغريزة في نطاق الحياة الزوجية وينظر إلى البيت نظرة مملوءة بالاحترام، ومن هنا منع العري والتبرج والاختلاط وكان وجوب التستر والاحتشام، وكانت العقوبة الشديدة العنيفة الرادعة على من

يخالف دين الله وحكمه في هذه المسألة.

يجب على المرأة المثقفة المسلمة أن تعلِّم من حولها أن مكان المرأة الطبيعي إنما هو بيتها، ولها فيه مهمة ضخمة كبيرة هي مهمة إعداد الأجيال وبناء نفوس أبناء الأمة، وأنها عندما تكون في بيتها فإنها لا تكون فارغة ولا مسترخية بل تكون في عمل ضخم يؤدي أعظم مهمة للمجتمع.. إن المرأة العاملة في مصنع قد تصنع أداة أو جزءاً من أداة.. أما المرأة التي تعمل في البيت فإنها تصنع الأجيال وتخرج الأبطال وتصوغ الرجال. ولا يعني هذا أن العمل محظور عليها.. لا.. ولكنه ليس هو الأمر الطبيعي.. فإذا اضطرت ظروف الحياة المرأة أن تعمل فلا بأس إذا تحققت الشروط الإسلامية من التزام الحجاب، وترك الزينة، والبعد عن الاختلاط، وغض البصر، والابتعاد عن فتنة الرجال أو الخلوة بواحد منهم.

ومما ينبه على خطورة عمل المرأة في هذا الزمن وضع النساء العاملات، إذ تتخذ المرأة مع الأسف الشديد وسيلة دعاية وأداة استجلاب للزبائن وفي ذلك ما فيه من امتهان المرأة والإساءة إلى الخلق الكريم.

إنّ على المرأة المثقفة أن تقوم بواجب الدعوة إلى الله في صفوف النساء.. فلقد تعاظم تقصير الدعاة نحو النصف الآخر زمناً طويلاً مع أن المرأة ذات استعداد للخير كبير، والتجارب في القديم والحديث مؤيدة لهذا الكلام؛ فالإقبال على الإسلام اليوم من قبل الفتيات أمر واضح يلفت النظر ويضع المثقفات أمام واجبهنّ.

يجب أن تتقدم المرأة المثقفة المسلمة لترفع عن بنات دينها وصمة التحلل من الدين الذي تقوم به بعض النساء الحاقدات الزائغات، يجب أن تقوم كفايات مسلمة تعمل في ميادين الدعوة إلى الله، وعليها أن تصمد في وجه هذه الدعوات الآثمة التافهة، وأن تدرع الصبر والاحتمال، وأن تملئ نفسها بالأمل المشرق، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. إن هذه الكفايات إن عملت وصبرت حققت

للناس خيري الدنيا والآخرة، ومهدت لوضع شريف يطل على الناس، تعلو فيه كلمة الحق، ويكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خلقاً قائماً يحقق أعظم النتائج.

وعندما تدخل هذه الكفايات المخلصة إلى ميدان التأثير ينحسر البلاء ويتوارى الفساد العريض الذي يكاد يدمر الأمة تدميراً.

يجب أن تكون المرأة أمينة على رسالة الإسلام الحق تؤديها كما أنزلها الله.

إن عليها أن تدعو نساء مجتمعها إلى أن يحافظن على أنوثتهنّ نقية، من تيارات الميوعة أو الاسترجال، ذلك لأن الفساد الذي يتهدد المجتمع من جراء تخلي الرجل عن رجولته مساوٍ للفساد الذي يتهددنا من تخلي المرأة عن أنوثتها. إن الحياة لا تقوم سوية إلا إذا كان هناك رجل يتصف بالرجولة حقاً، وامرأة تحافظ على أنوثتها كاملة. والتفريط في ذلك يؤدي إلى اختلال عظيم في أوضاع الحياة وقيمها.

وقد انتقد الدكتور الفرنسي المشهور الكسيس كاريل الذي يعد من أكبر المشتغلين بالبحوث العلمية والحائز على جائزة نوبل انتقد رواد الحركة النسائية اللائي يطالبن بالمساواة في الثقافة وفي الأعمال فيقول: [والحقيقة أن المرأة مختلفة اختلافاً عميقاً عن الرجل، فكل حجيرة في جسمها تحمل طابع جنسها، وكذلك الحال بالنسبة إلى أجهزتها العضوية ولا سيما الجهاز العصبي.. يجب أن ينمين استعداداتهن في اتجاه طبيعتهن الخاصة دون أن يحاولن تقليد الذكور فدورهن في تقديم المدنية أعلى من دور الرجال فلا ينبغي لهن أن يتخلين عنه.. فلا ينبغي أن يتلقى الفتيان والفتيات ثقافة واحدة ولا أن يكون لهم أسلوب واحد في الحياة، وعلى المربين أن يعتبروا الفروق الجسمية والعقلية بين الذكر والأنثى وما بين دوريهما الطبيعيين].

وبعد، فهل تتقدم فتاتنا المسلمة المثقفة لأداء هذه المهمة؟

أيكون لها شرف خدمة دين الله فتسعد في الدنيا والآخرة أم تؤثر الراحة فتخلد

إلى الأرض؟

إنها إن تولت يستبدل الله بها غيرها، ولن يضيع الله هذا الدين.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

١٠/ ٥/ ١٣٩٨ هـ

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الإسلام ومسايرة الفطرة وحفظ النوع الإنساني

أقام الإسلام بناء الأسرة على دعائم ثابتة، وأسس متينة، من الخلق الرضيّ، والسلوك النقي، والدين الخالص، والود الودود، والمصلحة العامة للأمة، والنفع المحقق لكل فرد من أفراد المجتمع.

فقد ندب الناس إلى الزواج، وجعله سنة الإسلام، وحذّر من الرغبة عنها أعظم التحذير، وربط الدعوة إلى الزواج بغرض اجتماعي وشرعي عظيم دعاه علماء المسلمين ضرورة من الضرورات الخمس التي جاءت الأديان لتحقيقها، هذا الغرض هو حفظ النسل.

قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٢-٣٣].

والأيامى جمع أيم. وتطلق على المرأة التي لا زوج لها سواء كانت قد تزوجت ثم فارقت أم لم تتزوج وكذلك يقال للرجل أيضاً[1].

فالله عز وجل يأمر في هذه الآية بالتزويج. قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: [وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه على كل من قدر عليه، واحتجوا بظاهر قوله عليه السلام: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض

---

(١) انظر تحقيقاً لمعنى هذه الكلمة ذكره القاضي الجرجاني في "الوساطة" ص٦٢-٦٣-٦٤ فإنه نفيس وذلك عند مناقشته شعر أبي تمام وقوله:

حلت محل البكر من معطى وقد زفت من المعطى زفاف الأيم

للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» أخرجاه في الصحيحين من حديث ابن مسعود][1].

وقد روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: "أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى قال تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

وعن ابن مسعود: التمسوا الغنى في النكاح يقول الله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

وروى الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله»[2] هذا هو منطق الإيمان، وليس ما يسود اليوم بعض الأوساط الإسلامية من المنطق المادي الذي يحكم تصرفات الناس بعيداً عن التوكل على الله... وقد نسي هؤلاء الناس أنّ الله هو الرزاق ذو القوة المتين، وأن كثيراً من الأغنياء كانوا قبل مدة قصيرة من الزمن فقراء لا يملكون نقيراً ولا قطميراً.

قال ابن كثير: [وقد زوج النبي ﷺ ذلك الرجل الذي لم يجد عليه إلا إزاره ولم يقدر على خاتم من حديد، ومع هذا فزوّجه بتلك المرأة، وجعل صداقها عليه أن

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨٦. وانظر الحديث في «صحيح البخاري» مع «فتح الباري» ٤/ ١١٩ برقم ١٩٠٥ و٩/ ١١٢ برقم ٥٠٦٦ و«صحيح مسلم» رقم ١٤٠٠ و«سنن أبي داود» رقم ٢٠٤٦ و«الترمذي» ٢/ ١٦٧ وفي ط شاكر ٣/ برقم ١٠٨١ و«النسائي» ٤/ ١٦٩-١٧١ و٦/ ٥٧-٥٨ و«تلخيص الحبير» ٣/ ١٤٤ و«الترغيب والترهيب» ٣/ ٥ و«صحيح الجامع الصغير» ٧٩٧٥.

(٢) انظر الحديث في «مسند أحمد» ٢/ ٢٥١ و٤٣٧ و«النسائي» ٦/ ٦١ و«الترمذي» ٣/ ١٥ برقم ١٦٥٥ و«ابن ماجه» ٢٥١٨ و«المستدرك» ٢/ ١٦٠ و«تلخيص الحبير» ٣/ ١١٧ و«صحيح الجامع الصغير» ٣٠٥٠.

يعلمها ما معه من القرآن[١]، والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه ما فيه كفاية لها وله][٢].

وقال تعالى في معرض وصف الرسل ومدحهم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد ٣٨]. فذكر من أوصافهم - في معرض الثناء عليهم والامتنان وإظهار الفضل- أنّ لهم أزواجاً وذرية.

وكذلك فقد مدح أولياءه بسؤال ذلك في الدعاء فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان ٧٤].

إن هذا الموقف -أعني الحضّ على الزواج والترغيب فيه- يحقق غرضين جليلين:

أما أولهما فهو مسايرة الفطرة الإنسانية التي فطر الله الخلق عليها، وتصعيد الغريزة على وجه يحقق الخير والحق والفضيلة والمثل الإسلامية العليا.

بل إن الإسلام ليعد ممارسة العمل الغريزي في نطاق الحلال المشروع صدقة يستحق صاحبها الثواب؛ لأنه امتثل أمر الله في التزام الحلال والوقوف عند حدود الله.

قال ﷺ: «وفي بضع أحدكم صدقة» قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»[٣].

والإسلام الذي هو دين الفطرة لم يحظر شيئاً تميل إليه النفس إلا أحلَّ ما يغني

---

(١) والحديث في «صحيح البخاري» ٧/ ٧ و«فتح الباري» ٩/ ١٣١ و«صحيح مسلم» ١٤٢٥ و«الترمذي» ٢/ ١٨٣، وانظره في ص٤٨ و٥٨ من هذا الكتاب.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨٧.

(٣) صحيح مسلم ٣/ ٨٢. وفي ط عبد الباقي برقم ١٠٠٦.

عنه؛ ومن هنا كان هدي الإسلام في تحريم الزنا والدعوة إلى الزواج؛ فالزنا هو من الفوضى الجنسية التي تفسد الضمائر، وتضيع الأنساب، وتهدم الأسرة، وتقوض كيان الأمة، وتشعل نيران الحرب والعدوان، وعندما حرمه الإسلام أعظم التحريم وشدد في عقوبة مرتكبه، أباح الزواج وندب إليه حتى لا تكون معارضة للفطرة ولا إساءة للنفس الإنسانية بسبب الحرمان والكبت.

وفي الزواج المتعة والمحبة، والسكن والمودة وإنشاء قرابة جديدة ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩] ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:٢١] وفيه إقامة الأسرة التي هي لبنة المجتمع الأولى، فيها يدرج الأولاد تحت رعاية الأبوين، وفي ظلال المعاني الإسلامية السامية.

وأما ثانيهما فهو استمرار وجود الجنس الإنساني على ظهر هذه الأرض يعمر الكون حتى يأذن الله بأمر آخر.

وإن الحياة الإنسانية لا يتحقق فيها الوفاء إن لم تستمر الأجيال في عملية عمارة الأرض وتحقيق الخلافة.. بل إنها تكاد تفقد قيمتها عندما يحسُّ المرء أنه نبتةٌ وحيدة لا امتداد لها في هذا الوجود.. إنّ هناك غريزة الامتداد في الذراري والأحفاد لا يستطيع المرء السويّ أن ينعم بها إلا عن طريق الزواج.

فكما أحسن إليك والدك فكان سبب وجودك في هذه الدنيا فكذلك ينبغي بالنسبة إليك أن تقابل هذا الإحسان بالبر إليه والوفاء له فتنجب للدنيا نبتة كريمة تتعهدها بالتربية والتهذيب تحيي اسمك واسم والدك ويكون عملها الطيب في سجلك.

ويكفي الممتنع عن الإنجاب عقوقاً أن يكون هو الشخص الأول الذي يقطع

هذه السلسلة التي تبدأ بآدم وتنتهي به.

من أجل هذا كله كان الزواج من سنة النبي ﷺ ويقول في ذلك: «ومن رغب عن سنتي فليس مني»[1].

٢٠ / ٥ / ١٣٩٧

(١) «فتح الباري» ٩/ ١٠٤ برقم ٥٠٦٣ و«صحيح مسلم» ١٤٠١ و«النسائي» ٦/ ٦٠ وانظر صفحة ٥٥ و٥٨ و٧٨ من هذا الكتاب.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

حماية الأسرة واجب إسلامي

قرر الإسلام مكانة عظيمة للأسرة، تتجلى من الاهتمام بشؤونها في كتاب الله زواجاً ورضاعاً وطلاقاً وإرثاً، واستطاعت الأجيال المتعاقبة أن ترسخ معاني إسلامية عميقة في الأسرة في مجتمعاتنا. وقد أحسّ[1] أعداؤنا - وهم يحاولون هدم هذه الأمة- صلابة هذه اللبنة، وقوة هذا الحصن.. ومن أجل ذلك كان في الحقبة الأخيرة هجوم مركز على الأسرة، استخدموا له كل القوى التي يمكن أن تصل إلى أيديهم، وما أكثرها!! ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] لقد استخدموا سَنّ القوانين التي تخالف شرع الله حتى أصبح المعروف منكراً بمقتضى هذه القوانين وتفتت الأسرة في كثير من بلاد المسلمين، وشنوا حملات عليها من طريق الفنّ بوسائل النشر والإعلام من قصص وصحف ومجلات وإذاعة وتلفزيون ومسرح وسينما، وما زالوا في طريقهم ماضين.

ويساعد هذه الحملات المسعورة - في أحيان كثيرة- سيطرةُ النزعة المادية على سواد الناس.

ومما يؤسف له أنّ هذه الأسرة المستهدفة من قبل الأعداء مهددة أيضاً من قبل أصحابها المسؤولين عنها.. وإن المسؤولية في الأسرة يتحملها الرجل في قطاع كبير قال ﷺ: «كلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته.. والرجل راعٍ في أهله ومسؤول عن رعيته» كما أن المرأة أيضاً تتحمل مسؤولية قررها رسول الله ﷺ بقوله: «والمرأة

---

(١) يقال أحسّ الشيء إحساساً: علم به، يتعدى بنفسه قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ وربما زيدت الباء فقيل: أحسّ به على معنى شعر به (انظر المصباح).

راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها»[1]. إن على كل أب وكل أم أن يستشعر هذه المسؤولية نحو الأسرة.. فهناك خطر داهم ماحق خطير، والأسرة هي - كما أسلفنا- القلعة الأخيرة التي إن خسرناها فقد أضعنا كرامتنا وديننا ومجتمعاتنا، ذلك لأن أكثر شعوب العالم الإسلامي غزيت بما يهدد عقيدتها في عدة مجالات: في المدرسة.. ومناهج التعليم.. في السوق والمتجر والمصنع.. في وسائل الإعلام وأدوات تكوين الرأي العام.

وقد حيل - في كثير من بلاد المسلمين- بين الدعاة العاملين والناس، ولم يبق لهذه العناصر المسلمة الخيرة من مجال إلا الأسرة. نعم بقيت المنطلق الوحيد لهؤلاء الدعاة... ونحن لا نودّ أن نلقي اللوم على الأعداء ونبرئ أنفسنا. إن كثيراً منّا يتحمل في هذا الأمر أكبر نصيب في المسؤولية. ويحسن بنا أن نذكر أهم الأمور التي تعرّض الأسرة للخطر الماحق، والتي تعود إلينا نحن. إن الأمور الخمسة الآتية أهم ما يرد في هذا المجال وهي:

١ - الشغل المتواصل:

أصبح ربّ الأسرة - في معظم الأحيان- عاجزاً عن أن يجد الوقت الذي يجتمع فيه بنفسه أو بأفراد أسرته يوجههم ويحدثهم ويستمع إليهم، حتى إن زوجته لا يتاح لها أن تجلس معه وتتفاهم معه على الخطة الرشيدة التي يجب أن يسير بموجبها أفراد الأسرة، ففي الصباح يسارع إلى عمله الدنيوي، ولا يعود إلا لتناول طعام الغداء وأخذ قسط من الراحة تمنع خلاله الحركات والهمسات ولا يعود في المساء إلا في ساعة متأخرة من الليل ليجد أهل البيت نياماً. وإذا كان هذا الوضع مستنكراً صدوره من عامة الناس فإنه من المتدينين أشد، واللوم لهم أكثر؛ ذلك لأن هذا الأخ

(١) رواه البخاري ٢/ ٥ برقم ٨٩٣ ومسلم ١٨٢٩ عن ابن عمر. وانظر أبو داود ٣/ ١٨٠ برقم ٢٩٢٨ والترمذي ٣/ ٣٣ برقم ١٧٠٥ ومسند أحمد ٢/ ٥ والنسائي في الكبرى ٥/ ٣٧٤ و«الترغيب والترهيب» ٣/ ٨.

المتدين سيجد نفسه - بعد مدة- في واد، وزوجته وأولاده في وادٍ آخر، وسيندم ولات ساعة مندم. ومن المؤسف أن هذا الشغل لم يقتصر على الرجل بل شمل في بعض الأسر المرأة التي تترك بيتها سحابة النهار وتكل تربية أبنائها وإعداد بيتها للخادمة.. فيكون من ذلك الضياع التام.

والشغل متنوع، وأكثره في الدنيا والكسب، غير أن هناك نوعاً غريباً جداً من أنواع الشغل، وهو ما يكون للدعوة وإصلاح الناس... وذلك خطأ في تصور الدعوة والعمل فيها، والمرء مطالب بأن يصلح أهله أشد المطالبة، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] ويقول: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾ [طه: ١٣٢]. وهذا الإهمال لأهله سيوقعهم في الانحراف والمخالفة، وعندئذ لا يقوى على الاستمرار في الدعوة إلى الله.. إذ سرعان ما تلوكه الألسنة، ويقال له: إن كنت صادقاً فأصلح بيتك، ويكون هذا الوضع الخاص مضعفاً لتأثيره في الناس لأن معنى القدوة يفوت بوجود مثل هذا الوضع، ويكون ذلك سبباً في أن يتعكر صفوه، وتتنغص عليه لذاته، وفي أن تتولد فيه عقد، وتواجهه مشكلات، قد تحول بينه وبين الاستمرار في الدعوة.

٢- عدم تقدير المستقبل:

كثيراً ما يتصرف المرء بعض التصرفات، ولا يقدر أثرها في المستقبل، فقد يتصور أن سكوته على أمر ما هين يسير، ولكن ذلك يهدم الأسرة هدماً تاماً. وقد يتصور أن أولاده صغار لا يستحقون أن يخصهم بجزء من وقته الثمين فهو يضحك منهم ويسخر، ولا يأمر واحداً منهم بخير، ولا ينهاه أو يحذره من منكر.. ولا يقدر المستقبل.. ولا يدري أن هذا الطفل الصغير سيكون بعد مدة وجيزة رجلاً كبيراً، قد يكون له شأنه في البيت، بل في المجتمع كله.

٣- روح اللامبالاة:

وقد سرت هذه الروح في عدد من أبناء أمتنا، مع أن الإسلام يربي في أبنائه الشعور بالمسؤولية، وينمي فيهم الاهتمام بشؤون المسلمين، فليس هناك أمر يحدث في المجتمع ولا تأثير له أو يخلو من تأثير. وما أروع حديث السفينة[1] الذي يجعل أيّ عمل من أي فرد له تأثير على المجتمع كله؛ إن هذا الحديث يبين لنا أن روح اللامبالاة تقضي على الأمة؛ إذ لو أن ذاك الرجل الذي أراد أن يخرق في موضعه من السفينة خرقاً ترك وشأنه انطلاقاً من روح اللامبالاة لهلك وهلك ركاب السفينة جميعاً.

٤- سيطرة التقاليد الاجتماعية المتعفنة وقلة العلم بالدين:

وهذا أمر في غاية الأهمية؛ إذ نرى أن كثيراً من هذه التقاليد التي لم يشرعها الله تحل محلّ الدين في كثير من بلاد المسلمين، ومكن لها من السيطرة الجهل بدين الله وتخلف الوعي الإسلامي، وهي تختلف من بلد إلى بلد، ولكنها في هذه البلاد جميعاً تسيء في عملية بناء الأسرة بناء متيناً أو في محاولة الإبقاء عليها أمام هذه الأعاصير.

٥- تخلي كل من الزوجين عن مهماته فالرجل لا يقوم بواجب القوامة، والمرأة لا تقوم بواجب تربية الأولاد بل تترك الأمر للخدم:

وقد سرى هذا الداء في أوساطنا بسبب التقليد، وهو من أخطر الأمور وأكثرها إيذاء، فقد تقترح المرأة أن تلبس البنات لباساً لا يقره الإسلام بحجة أنهن صغيرات، وأن الناس هكذا يعملون وأن المصلحة في مسايرة الزمان. ويضعف الرجل ويوافق.

وقد ترى المرأة أن تقوم بألوان من الاستقبالات التي لا يقرها الإسلام، ويضعف الرجل ويوافق. وفي هذا ما فيه من الهدم للأسرة.

---

(١) «صحيح البخاري» ٣/ ١٢١ برقم ٢٤٩٣.

وإنه انتكاس للأمور يمكن أن يفهم من قوله ﷺ عندما ذكر أمارات الساعة فقال: «أن تلد الأمة ربتها»[1]. وليس معنى هذا أن نلغي شخصية المرأة.. لا.. ولكنها القوامة.. التي جعلها الله للرجل في حدود شرعه. ومهما يكن من أمر فإن إلغاء شخصية الرجل أكبر خطراً وأعظم أثراً.

ومثل هذا قد يكون من الرجل، فقد يطلب إليها أن تجلس أمام الرجال الأجانب في جلسة فيها مزاح هابط، وتوافق.

هذه أمور بأيدينا نحن فلنتق الله فيها.. ولنصلح الفاسد.. ولنحذر غرق سفينة المجتمع.

إن الأسرة هي القلعة الأخيرة التي ينبغي أن نقف حياتنا وإمكانياتنا لحمايتها وحفظها وإنا لمسؤولون.

٢٠/ ٥/ ١٣٩٧

(١) «صحيح مسلم» رقم ١.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تربية الفتاة وتوجيهها ضرورة لقيام الأسرة المسلمة

من الأسر المسلمة يتكون المجتمع المسلم، ولا بد لقيام الأسرة المسلمة من وجود زوجين مسلمين ملتزمين بالإسلام.

ويشكو كثير من الشباب الصالحين من قلة الفتيات المتدينات.. إن كثيراً منهم ينكبون عندما يتزوجون، ولا يجدون في زوجاتهم الوعي السليم، والفهم الدقيق، والخلق الزكيّ، والقيام بالواجبات الدينية التي أوجبها الله. ويكونون أمام خيار صعب:

- فإما أن يلجؤوا إلى الطلاق، وفي هذه الحالة يخشون أن تتكرر المأساة عليهم في الزواج الثاني.

- وإما أن يرضوا بالواقع المؤلم وعندئذ يكونون بين حالتين لا ثالثة لهما:

* **الحالة الأولى** أن يرضوا بحياة القيل والقال، والصراع والصدام، والمشكلات التي تملأ عليهم وجودهم، وهذا يجعل حياتهم جحيماً لا يطاق، وأتوناً يحرقون فيه أنفسهم وزوجاتهم، ويحطمون نفسيات أولادهم، ويقضون على سعادتهم، وإمكانات الإبداع والعبقرية فيهم.

* **والحالة الثانية** أن يتنازلوا عن أشياء من عقيدتهم، ويتركوا السلوك الذي تمليه عليهم هذه العقيدة. وهذا هو السقوط الأكبر، والخسارة التي ليس بعدها خسارة. ومن المؤسف أن نقرر أن هذه الحالة هي واقع عدد من الشباب كان زواجهم منعطفاً خطيراً في حياتهم قادهم إلى الانحراف التدريجي حتى أصبحوا بعيدين عن الإسلام بعداً كبيراً.

إن هؤلاء الشباب بشر من البشر لا يقوون على البقاء دون زواج، ولا يرضى

الإسلام لهم أن يبقوا دون زواج.

أقول: من أين يأتون بالزوجة الصالحة إن لم نتول نحن توجيه النساء؟

في الأيام السالفة كانت التقاليد الإسلامية، والأوضاع الخلقية السديدة والأعراف المحافظة تساعد الرجل شيئاً من المساعدة في تحقيق بعض ما يريد الشاب الصالح،.. ولكن هذه التقاليد قد زلزلت وتلك الأوضاع الخلقية قد تأثرت بعوامل الفساد، والأعراف قد عراها التبدل في كثير من نواحيها... فلم يبق أمام هؤلاء الشباب من النساء ما كان يجد سلفهم.

إن تربية الفتيات وتوجيههن ضرورة إسلامية... وهذا واجب الدعاة والوعاظ وقادة الحركات الإسلامية وأولي الأمر من الحكام وأصحاب الأقلام من الصحفيين والأدباء وكتاب القصة والمسرحية والتمثيلية والأساتذة والآباء والأمهات.

وإلا فإن المشكلة ستبقى على ما هي عليه بل إنها ستزداد تفاقماً، ويكون الفساد الكبير.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أهمية الزواج

إن الواقع الأليم الذي يحياه المسلمون ينبئ أن معظم قلاع المسلمين قد سقطت – وا أسفاه– ولم يبق إلا حصن الأسرة، وهذا الحصن مستهدف في هذه الأيام ترصد الأموال والطاقات لإسقاطه والقضاء عليه.

إنّ واقع المسلمين المؤلم نستطيع أن نلخصه في السمات الآتية:

١) جهل كثير من المسلمين بأحكام الإسلام ومبادئه.

٢) عدوان المستعمرين على المسلمين واستعمارهم بلادهم.

٣) استغلال المستعمرين لاقتصاديات العالم الإسلامي وطاقاته.

٤) مظالم اجتماعية صارخة تقوم في دنيا المسلمين. فبينما يسود البؤس والجوع في قطاعات يسود الترف والتخمة في قطاعات أخرى.

٥) غياب الدعاة والموجهين والمصلحين غياباً يكاد يكون فريداً في تاريخنا على أحقابه كلها. وتناقص العلماء الصالحين العاملين.

٦) غزو فكري موجه للمسلمين من قبل حضارة أوروبا المادية ويتمثل هذا الغزو فيما يأتي:

١– الأنظمة السياسية الجاهلية التي أقامها المسلمون بعد تحررهم من الغرب.

٢– مناهج التعليم الأوروبية التي تلقّفها المسلمون من أعدائهم.

٣– قيام أحزاب معادية للإسلام.

٤– انحلال خلقي مريع.

٥– قيام مؤسسات الرأي العام على قواعد مناهضة للإسلام من صحافة وإذاعة وسينما.

٦- إحلال قوانين أوروبا في بلاد المسلمين محل الشريعة الإسلامية.

٧- تقليد كثير من المسلمين للكفار في العادات والأعراف وكل ما يتصل بالحياة الاجتماعية.

وأسرنا وبيوتنا المسلمة مهددة بخطر داهم ماحق من جرّاء هذا الواقع الأليم، ومن أجل ذلك كان قيام أسرة مسلمة جديدة مدعاة إلى السرور البالغ، يفرح بها كل مؤمن بالله واليوم الآخر.

وكيد الكفار الذي أثّر فينا أخّر قيام عدد كبير من الأسر المسلمة بسبب الضائقة المادية والأعراف الاجتماعية المريضة.

والواجب على الدعاة أن يشجعوا إحياء سنة الزواج وأن يعملوا على إحيائها بكل سبيل. ولنذكر جميعاً قول رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أحصن للفرج وأغض للبصر ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء»[1] وعلينا أن ننبه إلى أهمية عملية اختيار الزوجة، وقد ذكر لنا رسول الله ﷺ الدوافع التي ترغب في الزوجة وأوصى بالدافع الأهم وهو الدين يقول: «فعليك بذات الدين تربت يداك»[2].

وهناك فكرة مغلوطة يلبس إبليس بها على بعض الشباب، فقد يرى واحد منهم فتاة يروقه جمالها ولكنها ليست ذات دين، فيدعي أنه يريد من وراء الزواج منها أن يصلحها، وهذه الفكرة خطرة وغير مأمونة ولا مضمونة.

وقد رأينا في الحياة الواقعية أن بعض الشباب كانوا يريدون الإصلاح فأفسدتهم تلك الزوجة.

ومن الأهمية بمكان أن ننبه إلى أنه بعد حسن الاختيار يجب أن تراعى في معاملة كل من الزوجين للآخر حدود الله، والخطر الذي يهدد بالقضاء على بعض الأسر

---

(١) انظر تخريجه في ص٣١.

(٢) انظر تخريجه في ص٦١ فقد ورد هناك بتمامه.

الإسلامية يأتي من التساهل في حق شريعة الله.

وعلى الزوجين أن يعملا على حلّ مشكلاتهما بأنفسهما وألّا يدخلا الأهل، فتدخل الأهل في كثير من الأحيان يكون مؤذياً. والبراعة تكون في الموافقة بين برّ الوالدين وبين الحياة الزوجية الخاصة.

وهناك أمور تحتاج إلى انتباه لها وقد خصصناها بالتفصيل في موضع آخر وأهم هذه الأمور:

ألا يشغل الزوج عن أهله وأولاده، فذلك يجعل قدرته على التأثير ضعيفة، ويجعل بالتالي تأثيره في الناس ضعيفاً لأن معنى القدوة يخدش، وربما انتهى به الأمر إلى حياة مزدوجة تعكر عليه صفوه وتنغص عليه حياته، وتنشئ فيه عقداً ومشكلات. إلى غير ذلك من الأمور[1].

(١) انظرها في صفحة ٣٥.

عوائق الزواج

إن الزواج مما رغب فيه الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٢- ٣٣].

وقال ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغضّ للبصر وأحصن للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» متفق عليه من حديث ابن مسعود[1].

وعن ابن عباس في تفسير الآية المتقدمة: [رغبهم الله في التزويج وأمر به الأحرار والعبيد ووعدهم عليه الغنى].

ويروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: (أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى قال تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾).

والزواج يحقق للمجتمع الإسلامي الاستمرار والبقاء، وهو يحقق مقصداً من مقاصد الشريعة التي جاءت لإقامتها في الحياة وهو حفظ النسل.

قال شيخنا الأستاذ محمد الخضر الحسين: [... فالإسلام أصلح الصلة بين الرجل والمرأة، وجعلها بمأمن من أن يلحقها وهن، أو يعلق بها كدر، وبعد أن أحكم صلة الزواج وهذّب حواشيها حثّ على الزواج وجعله من سننه... وإذا نظرت إلى أن حكمة الله تعالى قد اقتضت بقاء النسل لإقامة الشرائع وعمران الكون

(١) انظر تخريجه في صفحة ٣١.

وإصلاح الأرض، وأن النسل الصالح لا يبقى إلا بالزواج رأيت كيف كان الزواج وسيلة إلى تحقيق أمور عظيمة أحب الله أن تكون، وحبب للناس القيام عليها. وإذا كنت من علماء الأخلاق ونظرت إلى أن هناك فضيلة يقال لها العفاف، وعرفت أن الزواج مما يعين على التحلي بهذه الفضيلة، ظهر لك أن الزواج وسيلة من وسائل الفضائل، وكثيراً ما تأخذ الوسائل حكم المقاصد في نظر الشارع وفي عرف الناس.. أوليس الزواج يكسب الرجل رفيقة تخلص له ودّها، وتشمل منزله برعايتها، ومثل هذه الرفيقة التي تحمل حبه الطاهر، وتعمل لتدبير منزله في غير منّ ولا تباطؤ، لا تتمثل إلا فيمن تربطه بها صلة الزواج... والزواج يكسب الرجل ولداً إن يُحسِن تربيته كان له قرة عين في حياته، وذكراً طيباً بعد وفاته... ومن ذا ينكر أنّ الولد المهذب من أجلّ النعم في هذه الحياة؟ فللزواج مصالح تكثر بكثرته، وتقل بقلته، وتفقد بفقده][1].

وإذا نظرنا إلى واقعنا وجدنا معوقات عدة تصدّ الشباب عن الزواج لعلّ من أهمها المغالاة في المهور.. هذه المغالاة التي بلغت حداً لا يطاق في هذه الأيام وبالنسبة لشباب ناشئين.. وتحديد المهور أمر ربما كان نافعاً في بعض المجتمعات، ولكنه ليس كافياً وحده... إنه في أغلب الحالات غير مجد.. ذلك لأن التفاخر في الهدايا والملابس والحليّ يضحي عائقاً أشدّ وأقسى، فقد يكون المهر بضع مئات من الريالات، ولكنّ الحفلات والهدايا والحليّ قد تبلغ مئات الألوف.

إذن لا بدّ من عملية توعية وإقناع في أن مصلحة الأمة وأخلاقها ومستقبلها في رفع كل الحواجز والعوائق التي تقوم في وجه الزواج.. لا بد من أن يعلم الناس أن هذا الوضع الرهيب إن استمر سيهدد أعراضهم وكراماتهم ومستقبل أمتهم.

ولو نظرنا في الواقع العملي للمسلمين في عهد السلف لوجدنا أن الأمر أيسر

---

(١) رسائل الإصلاح صفحة ٢٢٠-٢٢١ ط دمشق.

بكثير مما هو موجود الآن.

فقد روى مسلم وأبو داود عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ: كم كان صداق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان صداقه لأزواجه ثنتي عشرة أوقية ونشاً. قالت: أتدري ما النشّ؟ قلت: لا. قالت: نصف أوقية، فذلك خمسمائة درهم[1].

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أعتق صفية بنت حيي، وجعل عتقها صداقها. أخرجه الترمذي وأبو داود والنسائي وهو طرف من حديث طويل وأخرجه البخاري ومسلم[2].

وأخرج البخاري بسنده إلى سهل بن سعد الساعدي قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله جئت أهب لك نفسي قال: فنظر إليها رسول الله ﷺ فصعد النظر فيها وصوّبه. ثم طأطأ رسول الله ﷺ رأسه، فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئاً جلست. فقام رجل من أصحابه فقال: يا رسول الله إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها.

فقال: وهل عندك من شيء؟ قال: لا والله يا رسول الله.

فقال ﷺ: اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئاً؟ فذهب، ثم رجع فقال: لا والله ما وجدت شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: «انظر ولو خاتماً من حديد» فذهب، ثم رجع فقال: لا والله يا رسول الله ولا خاتماً من حديد. ولكن هذا إزاري - فقال سهل: ماله رداء - فلها نصفه.

فقال رسول الله ﷺ: ما تصنع بإزارك؟ إن لبستَهُ لم يكن عليها منه شيء، وإن لبسَتْهُ لم يكن عليك شيء.

---

(١) «صحيح مسلم» ١٤٢٦ و«سنن أبي داود» ٢/ ٣١٥.

(٢) «صحيح البخاري» ٢/ ١٤ و٧/ ٢١ و«فتح الباري» ١/ ١٢٩ و«صحيح مسلم» ٤/ ١٤٦ و«الترمذي» ٢/ ١٨٤ و«ابن ماجه» ١٩٥٧-١٩٥٨ و«الدارمي» ٢/ ١٥٤.

فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام، فرآه رسول الله ﷺ مولياً، فأمر به، فدعي فلما جاء قال: ماذا معك من القرآن؟ قال معي سورة كذا وسورة كذا.. عددها فقال ﷺ: تقرؤهن عن ظهر قلبك؟ قال نعم.

قال: اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن[1].

وأخرج البخاري أن أنساً حدّث بحضور ابنته فقال: جاءت امرأة إلى رسول الله تعرض عليه نفسها قالت: يا رسول الله ألك بي حاجة؟ فقالت بنت أنس: ما أقل حياءها.. واسوأتاه.. واسوأتاه.. قال: هي خير منك رغبت في النبي ﷺ فعرضت عليه نفسها[2].

إن هذه الآثار لتدلّ على أنّ الزواج في عهد السلف لم يكن على صورته المعقدة التي جعله فيها الناس اليوم.

إن الزواج أصبح بالنسبة إلى الشاب الناشئ في كثير من بلاد المسلمين ضرباً من المستحيل، وقد أثر هذا الوضع تأثيراً سيئاً على المجتمع.. إذ جعل نسبة العوانس ترتفع.. وجعل الفساد ينتشر.. والانحلال يتفاقم وجعل كثيراً من الشباب يرغبون عن الزواج.

إنها لمشكلة لا بد أن يعمل لها الداعون، ويواجهها المصلحون.. وليس تحديد الأمور وحده كافياً.. لا بدّ من القدوة الحسنة من أولي الجاه والعلم في الأمة... يخطون الخطوة المتقدمة.. والناس أبداً يقلدون الكبراء والوجهاء...

لا بدّ من القدوة في إيثار البساطة والتخفيف في الحفلات والولائم والحليّ والهدايا والملابس والمهور.

وليعلم الآباء الذين يرون أن في رفع المهور ضماناً لبناتهم أنّ الذي يكره زوجته

---

(١) انظر تخريجه ص٣٢.

(٢) صحيح البخاري ٧/ ١٣. و«فتح الباري» ٩/ ١٧٤.

ويريد طلاقها لا يمكن أن تقف في وجهه مشكلة المال، لا سيما إذا عرفنا أن المال الآن ميسور.

أجل إن الناس بجهلهم وخضوعهم إلى عادات ما أنزل الله بها من سلطان وضعوا العوائق والحواجز في وجه الزواج حتى غدا صعباً. وهذا خطر كبير ولا بد لرجال الفكر من أن ينبهوا على المخاطر المذهلة إن استمرت هذه العوائق.

إن كيان المجتمع معرض إلى الانهيار بسبب الفساد العريض الذي يتعاظم يوماً بعد يوم، وليس الموضوع موضوع المهور.. إن المغالاة في المهور عائق من أشد العوائق في وجه الزواج، ولكنه ليس وحده المسؤول عن مصاعب الزواج وعزوف الشباب عنه. ولقد أدرك سلفنا الصالح خطورة تفاقم هذه العوائق.. فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدرك بثاقب نظره ما يمكن أن يهدد المجتمع من المخاطر والشرور بسبب المغالاة في المهور، فلقد جاء عنه رضي الله عنه أنه قال: (ألا لا تغالوا صَدُقَات النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها نبي الله ﷺ ما علمنا رسول الله ﷺ نكح شيئاً من نسائه ولا أنكح شيئاً من بناته على أكثر من ثنتي عشرة أوقية)[1].

ويحسن أن نقف عند أمر أشار إليه سيدنا عمر، وهو ما يحمل كثيراً من الناس على المغالاة في المهور.. هذا الأمر هو التوهم بأن غلاء مهر المرأة مكرمة لها في الدنيا.. فقال: لو كان ذلك كذلك لكان أحق الناس بهذه المكرمة رسول الله ﷺ الذي تزوج وزوج بمهر لا يتجاوز اثنتي عشرة أوقية.

وأما قصة ردّ المرأة على عمر فهي ضعيفة، أخرجها الزبير بن بكار من وجه

(١) أخرجه الترمذي (٢/ ١٨٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح والنسائي (٦/ ٩٦) وأبو داود (٢/ ٣١٦) وابن ماجه (١/ ٦٠٧) وأحمد (١/ ٤٠) وابن حبان وانظر "موارد الظمآن" صفحة (٣٠٧) برقم ١٢٥٩.

منقطع كما قرر ذلك الحافظ ابن حجر في الفتح[1]. والمؤسف أن هذه القصة استغلت استغلالاً سيئاً في وجه كل دعوة إصلاحية تدعو إلى معالجة الوضع الشاذ.. وهي قصة شائعة جداً، ويبدو أن للقصاص والوعاظ دوراً في إشاعتها ونشرها، كما يبدو أن هناك جانباً مشوقاً فيها وهو الموقف البطولي في القصة سواء من جانب المرأة إذ ردت امرأة على الخليفة... وإنها لجرأة عظيمة. أم من جانب الخليفة إذ رجع عن رأيه وأعلن ذلك على الناس، وهو لو صح أمر عظيم، وكذلك فإن لكتب التفسير التي أوردتها دون تعليق عليها دوراً في إشاعتها ونشرها.

وإن كانت المغالاة في المهور غير محظورة لأدلة ذكرها الفقهاء والمفسرون، من ذلك أن الله تبارك وتعالى مثّل بالقنطار في المهر ﴿.. وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا ..﴾ [النساء: ٢٠]. قال القرطبي في تفسير هذه الآية: (فيها دليل على جواز المغالاة في المهور لأن الله لا يمثل إلا بمباح] أقول: وليس كل جائز مستحسناً ولا كل مباح مُرَغِّباً فيه، بل لقد رأينا أن سيدنا عمر رضي الله عنه ذهب

---

(١) انظر «الدرر المنتثرة» بتحقيقنا رقم ٤٩٢ و«مختصر المقاصد» ٢٤٨ و٧٥٦ وانظر المصنف لعبد الرزاق ٦/ ١٨٠ وانظر إرواء الغليل ٦/ ٣٤٨ وانظر سنن البيهقي ٧/ ٢٣٣ وقال: هذا منقطع. وقصة ردّ المرأة على عمر أخرجها أبو يعلى، وأورد سندها ابن كثير في تفسيره ٢/ ٢١٢-٢١٣هكذا: [أبو خيثمة، حدثنا يعقوب ابن إبراهيم، حدثنا أبي، عن أبي إسحاق حدثني محمد بن عبد الرحمن، عن المجالد بن سعيد، عن الشعبي عن مسروق قال..] ومجالد ضعيف لا يحتج به كما قال ابن معين. وقال أحمد: يرفع كثيراً مما لا يرفعه الناس. ليس بشيء. وقال الفلاس: سمعت يحيى بن سعيد يقول: لو شئت أن يجعلها لي مجالد كلها عن الشعبي عن مسروق فعل.

وأورد ابن كثير طريقاً أخرى: [قال ابن المنذر حدثنا إسحاق بن إبراهيم عن عبد الرزاق، عن قيس بن الربيع، عن أبي حصين عن أبي عبد الرحمن السلميّ قال..] وأبو حصين هو عثمان بن عاصم وهو ثقة، لكن قال ابن حجر في التقريب: [ثقة ثبت سنيّ وربما دلّس] وقد عنعن في هذا السند. وقيس بن الربيع قال ابن حجر في التقريب: [صدوق تغير لما كبر وأدخل عليه ابنه ما ليس من حديثه فحدث به].

ثم أورد ابن كثير طريق الزبير بن بكار وقال ابن كثير: فيها انقطاع. وقال ابن حجر في الفتح ٩/ ٢٠٤: [وأخرجه الزبير بن بكار من وجه آخر منقطع] وهكذا يبدو أن القصة غير صحيحة والحمد لله.

إلى منعه لأن فيه ضرراً واضحاً. وإذا تحوّل الأمر المباح إلى شيء ضار أضحى غير مباح كما هو مقرر عند العلماء. إنّ حلّ المشكلة يكمن في إزاحة العوائق والاقتناع بضرورة تيسير أسباب الزواج وتسهيلها. إنّ علينا أن ندرك أن كل العقبات التي تقوم في وجه الزواج هي معاول هدامة في صرح الفضيلة والخلق والاستقامة والصحة النفسية. ويستتبع هذا أن نقوم بدراسة الوسائل التي توصلنا إلى إزاحة هذه العوائق جميعها.

وقد يكون من المفيد أن نعدد أهم هذه العوائق وهي:

١- المغالاة في المهور وقد ذكرنا أشياء حولها. ونود أن نضيف أن هذه المغالاة تحمل معنى غير كريم بالنسبة للمرأة.. إن المرأة ليست سلعة تباع وتشترى.. والمهر أمر رمزي قرره الإسلام وأوجبه لمصالح عدة ليس المجال الآن مجال بحثها.. وقد سمعت طرفة أكدها من رواها لي، وفحواها أن رجلاً خطبت بنته، ووافق على الخاطب لأنه مناسب، وأبدى الخاطب استعداده لدفع مبلغ معقول معتدل مهراً، فإذا بالأب يعترض ويرفض هذا المبلغ، فظن أنه استقلّ المبلغ وأنه يريد أكثر.. ولكنه تبين أن الأب يرى أن هذا المبلغ كبير وأنه يرضى بنصف ما دفع وقال مفسراً له موقفه المستغرب هذا: يا بني إن المرأة إنسان كريم لا يباع ولا يشترى ثم أردف قائلاً: وأنا يا بني عندي عدة بنات فإذا تسامع الناس الطيبون المقلون بهذا المهر ابتعدوا عني ولم يأتِ إلا الموسرون وربما كان فيهم من لا أرضاه زوجاً لبنتي. وهذا موقف العقل والحكمة والدين.

٢- المبالغة في الهدايا والحلي والثياب والولائم: فإنك لترى الزوج يتفاخر بالمبالغة بالهدايا، فقد يقدم عدة هدايا تبلغ كل واحدة منها عشرات الألوف أو مئات الألوف. وكذلك الملابس فبعض الناس يشتري ثوباً بستين ألفاً وربما لا يلبس إلا مرة أو مرتين. وكذلك الولائم التي تذبح فيها الذبائح الكثيرة ولا ينتفع من لحومها وطعامها إلا قليل من الناس وتلقى بعد ذلك في القمامة. لا بد من فصل هذه الأمور

عن الزواج ولا بد من التقليل منها؛ لأنها سرف منكر بل ربما كانت سفهاً ملوماً.

٣- سيطرة العادات البالية والأعراف الباطلة على الناس، وذلك مما يعوق الزواج ويكبل كلاً من الفتى والفتاة، كأن يحمل العرف الفتى على الزواج ممن لا يحب رعاية لأقوال الناس وكلامهم.

٤- تحكم النزعة المادية: فلا يزوج الرجل إلا إن كان غنياً موسراً، ولا يرغب بالفتاة الفقيرة.

وكم سمعنا من أنباء إخفاق الزواج الذي يقوم على المصلحة. وكم رأينا ناساً تزوجوا فقراء فأغناهم الله من فضله.

٥- طول مدة الدراسة التي تصرف الشباب والشابات عن الزواج، والعجب كل العجب أننا نمشي وراء الغرب في بعض الأمور، ونرفض السير وراءه في أمور أخرى نافعة، إنه شركة إذا تم الاتفاق على إقامتها فليس للسفاسف أن تحد منها. إني أعرف حادثة بطل الزواج فيها من أجل المهر بعد أن اتفق الطرفان الطيبان على كل شيء.

فإلى إصلاح هذه المفاسد ندعو العلماء والوجهاء والآباء والأمهات والله يتولى الجميع بالتوفيق والسداد.

الزواج المبكر والأخلاق

لست أريد في هذه الكلمة أن أقول شيئاً جديداً لا يعرفه القراء، ولكنها ذكرى وإن الذكرى تنفع المؤمنين.

وأريد أن أخص إخوتي الدعاة بهذه الكلمة، فهم بعد الله معقد الأمل، وبهم نرجو صلاح الأمور.

إن خطراً ماحقاً يتهدد مجتمعاتنا الإسلامية بعامة، وإنّ وميض النار ليتراءى ههنا وهناك.

وهذا الخطر الماحق هو الانهيار الخلقي.

وإنني - من مدة تزيد على الثلاثين سنة- أعايش الشباب، وأتلمس قضاياهم وكنت قبل ذلك واحداً منهم.

لقد تعاونت عوامل عديدة على إغوائهم وإهلاكهم والانقضاض على أخلاقهم ودينهم.

من ذلك انتشار السفور والحسور، والمجلّات والصحف الهابطة، والإذاعة والتلفزيون، والفيديو، وشيوع الأغاني والمقالات الجنسية الفاضحة، والصور الوضيعة،... وتوفر المال لدى طائفة من هؤلاء الشباب يسر لهم الوصول إلى الإثم ولو كانوا في أقصى الأرض... وقامت الطائرات وأجهزة الهاتف بدورها في تيسير أسباب الجريمة.

مع عوامل الإغواء هذه لا يتاح للشاب أن يتزوج إلا في وقت متأخر جداً فقد يصل الخامسة والثلاثين والأربعين وهو عزب لوجود العقبات العديدة من نحو طول الدراسة الثانوية والجامعية والعالية ونحو غلاء المهور. ونحو التكاليف

المتعلقة بالعرس.

والإتيان بالكماليات بشكل إلزامي.

والانفراد بسكن خاص.

والخضوع لمطالب لها أول وليس لها آخر.

ماذا تنتظرون من شباب وشابات تُوقِدُ نيرانَ الغريزة في أعماقهم كلُّ تلك العوامل التي ذكرنا، ويحول دون زواجهم كل هاتيك العقبات التي أشرنا إلى بعضها؟

ويغيب التوجيه الرشيد.

وتتوارى سمات المجتمع الإسلامي المتماسك.

إن هذا الواقع يؤثر آثاراً سلبية عدة أذكر أهمها فيما يأتي:

* أن يكون الكبت الذي يعانيه الشباب والشابات من أهل الاستقامة مما يؤثر على مواهبهم وأوضاعهم الذهنية والعملية.

* أن يزين الشيطان للمنحرف فلسفة هذا الواقع الذي صار إليه فيقرر أموراً تسوغ له عمله المنحرف وذلك كأن يقول:

ماذا يحصل من لقاء الشاب والشابة على مقاعد الدراسة أو في نوادي الرياضة؟. إنه لقاء نظيف شريف والفتاة العفيفة لا يفسدها تعرضها للرجال. ماذا في الاختلاط؟ ماذا في سفر المرأة وحدها؟ ماذا في استقبال المرأة أصدقاء أخيها وزوجها؟

* بل قد يصل هذا الأثر إلى الإلحاد والعياذ بالله تعالى، فإن الذين عرفتهم من الملحدين كان سبب إلحاد أكثرهم الرغبة في إزاحة أي عقبة تقف في طريق شهواتهم. لم يلحدوا عن طريق اقتناع.

* تأخر ميعاد الإنجاب وقلة عدد المسلمين.

إن وسيلة العلاج بأيدي رجال العلم ورجال الحكم. هذه الوسيلة هي الزواج

المبكر.

فلندع إليها بالأقلام والألسنة بكل وسائل الإعلام ولنيسر أسبابها بما نستطيع من إمكانات.

ولا بد من التفريق بين بلد وبلد، ولا بد من معالجة القضية بصورة كلية، لأن أي قضية اجتماعية لا يمكن أن ترد إلى سبب واحد أبداً.

يقول ﷺ: «معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[١].

ويقول: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»[٢].

ويقول: «إني لأصوم وأفطر. وأقوم وأنام وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»[٣].

إن الخاسر في هذه المعركة نحن المسلمين.

وإن المنهدم في هذه المعركة مجتمعنا نحن المسلمين.

وأنا أثرت القضية وأنادي الدعاة والعلماء وأقول: لا بدّ من علاج، وثقوا أنكم لو فزتم بتوفيق الله في حل هذه المشكلة لاستقامت لكم أحوال كثير من قطاعات المجتمع.

(١) انظر تخريجه في صفحة ٣١.

(٢) أخرجه الترمذي ٢/ ١٦٩ وابن ماجه ١٩٦٧ والحاكم ٢/ ١٦٥ عن أبي هريرة وأخرجه الترمذي أيضاً والبيهقي ٧/ ٨٢ عن أبي حاتم المزني، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وأبو حاتم له صحبة ولا يعرف له عن النبي ﷺ غير هذا الحديث. وأخرجه ابن عدي ٥/ ١٧٢٨ عن ابن عمر. وانظر «صحيح الجامع الصغير» ٢٧٠.

(٣) انظر تخريجه في صفحة ٣٤.

مخاطر العزوف عن الزواج وعلاجها

إنّ الأسرة هي اللبنة الأولى في كيان المجتمع. وهي أساسه الركين، وبصلاحها يصلح المجتمع، وبفسادها يفسد.

وتولد الأسرة يوم عقد الزواج. ومن أهم حكم الزواج إرواء الغريزة، وإنجاب النسل، وغرس العقيدة في قلوبهم وتنشئتهم على المثل العليا للأمة.. وهذا مما يسوء أعداء الأمة ومن أجل ذلك تعد الخطط المحكمة لإفساد الأسرة عن طريق وسائل الإعلام ومناهج التعليم.

ومن أهم وسائل القضاء على الأسرة أن يشيعوا في أبناء الأمة فكرة العزوف عن الزواج.

وقد مهّدوا فكرياً لذلك بأن عملوا على إضعاف الإيمان بالله، وزعزعوا من قيمة التوكل على الله، حتى بلغ بهم الأمر أن يهزؤوا بمن يتوكل على الله. وأقاموا عقبات عدة ضخمة دون الزواج وهذا الأمر جعل فريقاً من الشباب يعزفون عن الزواج، أذكر أهمها فيما يأتي:

١- طول مدة الدراسة وعدم الزواج إلا بعد الانتهاء من الدراسة.

٢- ارتفاع المهور.

٣- قلة المساكن وانعدامها في بعض البلدان.

٤- قيام عادات اجتماعية سيئة ذات تكاليف باهظة واستحكامها في كثير من مجتمعاتنا الإسلامية.

٥- موجة الغلاء الشديد والتضخم الكبير.

٦- الدخل المحدود بالنسبة للشباب في معظم بلاد المسلمين.

٧- قيام أعراف وعادات تقلق المرء وتجعله في صراع دائم، ولا سيما عندما يحتدم الخلاف بين أهله وزوجته أو بينه وبين أهلها.

٨- إعطاء الكماليات صفة الضروريات. وذلك مما يرهق الزوج مالياً وهو لا يزال في بدء حياته العملية الكسبية.

وإهمال الزواج أو تأخيره يسبب فساداً اجتماعياً كبيراً نتبين أهم معالمه في هذه السطور:

١- إن الإعراض عن الزواج ينتج فوضى خلقية مدمرة، ذلك لأن الزواج تصريف للغريزة في حدود ما شرع الله، والإعراض عنه قد ينتهي بصاحبه إلى الزنا والعياذ بالله. والزنا من الموبقات التي تهلك الأمة وتقضي على مقوماتها الكريمة، وتضيع الأنساب وتزلزل القيم، وتهدد رسالة الأمة.

إن تجاهل ضغط الغريزة لا يحل المشكلة لا سيما إن لم يكن في القلب خوف الله.

٢- والإعراض عن الزواج مع الامتناع عن الانحراف قد يؤدي إلى استحكام عقد نفسية في الرجال والنساء. وهذا عذاب أليم للفرد.

والمجتمع لا يفيد من هؤلاء المعقدين. وكثيراً ما تتفاقم هذه العقد فتقود أصحابها إلى مستشفى المجانين أو تصنع منهم ناساً مجرمين يقضون مضجع الأمة ويروعون أبناءها.

٣- وأمر ثالث في غاية الأهمية يعود بالضرر البالغ على المجتمع، وهو أن الرجل المعرض عن الزواج سواء انجرف في تيار الانحراف والرذيلة أم كان من أولئك المعقدين.. إن هذا الرجل مشغول البال دائماً... فاقد القدرة على الإنتاج والإبداع والإتقان.

٤- إن هذا المعرض عن الزواج إن سقط خسر قيمته الاجتماعية في بلادنا، ذلك لأن مجتمعاتنا ما تزال محافظة تعير موضوع الشرف والعفة أكبر الأهمية. ونحن بهذا نختلف اختلافاً كبيراً عن مجتمعات الغرب. وإن أصيب بالعقد النفسية خسر قيمته

الاجتماعية لأنه عندئذ شخص مصاب مريض مطعون في قواه العقلية أو في قدرتها المبدعة على أحسن الأحوال.

٥- إن انتشار هذا الإعراض عن الزواج يضعف الأمة ويهددها بالانقراض ويمكن لأعدائها.

ذلك لأنه يقطع النسل، ولما كان هذا أمراً لا يمكن أن يكون عاماً قلنا إنه يضعف الأمة.. أما لو تحقق فإنه يبيد الأمة.

إن علاج هذا المرض الفتاك سهل ميسور إن نحن صدقنا في مواجهته. ونستطيع أن نذكر الأمور الآتية:

١- ينبغي أن نعود بالزواج إلى بساطته ويسره، فليس يتطلب الأمر كل هذه التعقيدات التي صنعها الناس.

إن الزواج يتم شرعاً بقيام عقد بين زوج ووليّ زوجة بموافقتها وقبولها وبوجود شاهدين وبصيغة يكون فيها إيجاب وقبول، ومهر.

ولقد رغب النبي ﷺ بالزواج ترغيباً جعله يعده من سنته كما جاء في الحديث الصحيح[1].

فلقد رضي الرسول ﷺ أن يكون المهر خاتماً من حديد[2].. لو وجده الزوج... ثم زوجه المرأة بما معه من القرآن.

وهنا نودّ أن نذكر ضرورة وجود الولي الذي ذهب إلى القول بوجوده جمهور علماء المسلمين، وقد اشترط العلماء في الولي الشروط الآتية:

١- أن يكون مختاراً.

٢- أن يكون ذكراً.

---

(١) انظر تخريجه ص٣٤.

(٢) انظر تخريجه ص٣٢.

٣- أن يكون محرماً.

٤- أن يكون بالغاً.

٥- أن يكون عاقلاً.

٦- أن يكون عدلاً.

٧- ألا يكون محجوراً عليه.

٨- ألا يكون مختل النظر.

٩- ألا يكون مخالفاً في الدين.

١٠- ألا يكون رقيقاً.

وقد استدل العلماء على ضرورة وجود الولي في عقد الزواج بقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢] وبقوله ﷺ: «لا نكاح إلا بولي»(١).

والحق أن مشروعية الولي إنما هي لمصلحة البنت ذلك:

لأن أباها أكثر خبرة منها.

ولأن حكمه حكم موضوعي لا دخل للعاطفة والشهوة فيه.

ومع ذلك كله فإن رأيه في الراجح من أقوال العلماء غير ملزم إن لم تكن البنت موافقة.

وكيف لا يستشار وهو الذي سيكون المرجع، وعليه تكون المسؤولية في حالة الخلاف.

٢- التعاون على تذليل العقبات الضخمة التي تقوم في وجه الزواج من مثل

---

(١) انظر «مسند أحمد» ١/ ٢٥٩ و٤/ ٣٩٤ و٤١٣ و٤١٨ و٦/ ٢٦٠ و«الترمذي» ٢/ ١٧٥ و«أبو داود» ٢٠٨٥ و«ابن ماجه» ١٨٨٠-١٨٨١ و«المستدرك» ٢/ ١٦٩ و«الدارمي» ٢/ ١٣٧ وموارد الظمآن بأرقام ١٢٤٣ و١٢٤٤ و١٢٤٥ و١٢٤٦ و١٢٤٧ عن أبي موسى وأبي هريرة وعائشة وانظر مجمع الزوائد ٤/ ٢٨٦.

تسهيل الزواج على طالب العلم حتى قبل أن يتخرج.

٣- تنمية الإيمان بالله والتوكل عليه.

٤- القناعة بالضروري من المسكن والملبس والمهر ولا بد من تهيئة جو لذلك، بالكلمة والحوار والقدوة.

٥- التغلب على العادات والأعراف التي لا يقرها الإسلام.

٦- المساعدة المادية من قبل جمعيات خيرية تنشأ لهذا الغرض وإنه لغرض جليل.

اختيار الزوجة

دعا الإسلام أتباعه إلى الزواج وحرّم الرهبانية، وجعل التزوج سنة من سننه، وأباح الزواج من الكتابية، وسهّل أمور الزواج ولم يعقّدها. ورغّب ترغيباً شديداً في حسن الاختيار، وأن يكون التخيّر من المسلمات، وجعل الأساس الأفضل والمقياس المفضل هو التديّن.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها. فاظفر بذات الدين. تربت يداك»[1] متفق عليه[2].

لقد ذكر رسول الله ﷺ مرغبات الزواج من المرأة عادة فقرر أنها أربعة وهي المال والحسب والجمال والدين.

---

(١) قال النووي في رياض الصالحين: (ومعناه أن الناس يقصدون في العادة من المرأة هذه الخصال الأربع، فاحرص أنت على ذات الدين واظفر بها واحرص على صحبتها ومعنى تربت يداك أي افتقرت إن لم تأخذها).

وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» ٣/ ٧: (تربت يداك كلمةٌ معناها الحثّ والتحريض. وقيل: هي هنا دعاء عليه بالفقر. وقيل: بكثرة المال. واللفظ مشترك بينهما قابل لكل منهما والآخر هنا أظهر. ومعناه: اظفر بذات الدين ولا تلتفت إلى المال. أكثر الله مالك).

وقال ابن الأثير في "النهاية" ١/ ١٨٤: (ترب الرجل إذا افتقر أي لصق بالتراب. وأترب إذا استغنى. وهذه الكلمة جارية على ألسنة العرب لا يريدون بها الدعاء على المخاطب ولا وقوع الأمر به، كما يقولون قاتله الله. وقيل: معناها لله درك).

(٢) انظر «البخاري» ٧/ ٨ برقم ٥٠٩٠ و«فتح الباري» ٩/ ١٣٢ و«صحيح مسلم» ١٤٦٦ و«أبو داود» برقم ٢٠٤٧ و«الترمذي» ٢/ ١٦٩ و«النسائي» ٦/ ٦٨ و«سنن ابن ماجه» ١٨٥٨ و«الدارمي» ٢/ ١٣٤ و«المسند» ٢/ ٤٢٨. و«سنن الدارقطني» ٣/ ٣٠٣ و«المستدرك» ٢/ ١٦١ و«تلخيص الحبير» ٣/ ١٤٦ و«مجمع الزوائد» ٤/ ٢٥٤.

وحضه على أن يكون المقياس المرغب في الزواج هو الدين. ولعمري إن ذلك هو الحق الذي تعضده أحداث الحياة في واقع الناس.

* فالمال عرض حائل، وعارية موقوتة.. فكم من الأغنياء أصبحوا فقراء بين عشية وضحاها، وكم من الفقراء أصبحوا أغنياء بين طرفة عين وانتباهتها.

إن المال يتهدده الزوال السريع. هذا وما علاقة السعادة بالمال؟ إن هناك وهماً كبيراً يسيطر على كثير من الناس، يحسبون السعادة قائمة على الغنى والمال. والحقيقة أنّ المال لا يوجد السعادة.. قد يعين على تحقيق السعادة إن كانت هي موجودة.

إنها إن لم تكن نابعة من أعماق النفس بسبب الرضى والقناعة والمعاشرة الحلوة فإن المال لا يوجدها أبداً.

* والجمال مهما كان رائعاً فهو موقوت بالصحة والشباب، سرعان ما يذبل ويذوي مع تقدم السن وطروء المرض وتكرار الحمل والولادة.

تصور يا سيدي أنك تزوجت ملكة جمال الكون وليس بينك وبينها تفاهم.. فماذا أنت مستفيد من هذا الجمال؟ إن الجمال ربما يعرض صاحبته إلى الغرور والفتنة والتعالي وشراسة الخلق.. ليس الجمال بحد ذاته عيباً ولا نقيصة وهو إن اجتمع مع الخلق والدين كان خيراً إلى خير، ولكنه وحده لا يحقق السعادة بل ولا المتعة. ولله درّ القائل (وهو ابن لنكك):

إذا أخو الحسن أضحى فعله سمجاً رأيت صورته من أقبح الصور
وهبه كالشمس في حسن ألم ترنا نفر منها إذا مالت إلى الضرر

* والحسب أمر عرفي.. فالوجيه في قوم ربما كان في نظر آخرين وضيعاً، وهو لا يغني عن العمل الصالح ولا الخلق شيئاً، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه. والحسب لا يتغير في ذاته كما يتغير المال والجمال، ولكنه يتغير في نظر الآخرين كما أشرنا إلى ذلك آنفاً، فما كان مزية في الحسب عند إنسان قد يكون نقيصة في نظر آخرين.

والحسب الرفيع إن اجتمع مع الخلق السمح والتدين الصادق كان خيراً وبركة، ورسول الله ﷺ يقول: «الناس معادن: خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»[1].

* أما التدين بالإسلام التدين الحق فهو أمر لا يتغير ولا يختلف.

إن التدين الحق من الزوجة لا يعرض الزوج إلى الأزمات بكل أنواعها.. إنها تحفظه في عرضها وفي ماله وفي أولاده.. إنها تشجعه على كل أنواع البر والصلاح والتقوى.. إنها تكون عوناً له على بر والديه.. وعلى بذل النفقة للمحتاجين والمعوزين.. إنها تنظر إليه نظرة ملؤها الحب والرحمة والمودة والحنان... إنها تطيعه في كل ما يأمر به إلا أن يأمر بمعصية... إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وتكون عوناً له على ما يلقى من الشدائد والصعوبات، والأزمات والعقبات... إنها تحسّ بأن الذي يتعرض له من الضيق أمر يهددها هي بالذات.. وتشعره بأنه ليس وحده يعاني ما يعاني.. وكم يخفف من وقع المصيبة أن يرى المصاب من يشاركه شعوره نحوها بصدق وأمانة، وأن يرى أن معه من يقف موقفه تثبيتاً وتأييداً ودعماً ومشورة.

وتكاد تختفي من حياة زوج ذات الدين المشكلات تماماً، ذلك لأنه ما من مشكلة إلا ولها حل في الإسلام. فإذا كانت تقوم بواجبها بصدق وحماسة خيمت على البيت سحائب السعادة والسرور.

والناس يحيون بالمعاني.. ويلتذون بالعواطف.. ويسعدون بالمشاعر أكثر من الأمور المادية الحسية.

إن هذا كله يدعو العاقل من المسلمين أن لا يقَدِّم على الدين في المرأة عاملاً آخر. وفقنا الله إلى الخير واستعملنا في طاعته والحمد لله رب العالمين.

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة برقم ٢٦٣٨ وأبو داود برقم ٤٨٣٤ وانظر مختصر المقاصد ١١٣٤.

الزواج من الكتابيات

يقول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ۖ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

إن الزواج من الكتابية حلال بنَصّ الكتاب، ولكنه ليس الأفضل والأكمل فإذا كان الزواج من المسلمة قد نُدِب المسلم فيه إلى اختيار ذات الدين فإن ذلك صريح في أن زواج اليهودية والنصرانية ليس هو الأمثل ولا الأفضل.

وقد ذكرنا توجيه الرسول الكريم في حض المسلمين على اختيار ذات الدين في قوله ﷺ: «فاظفر بذات الدين تربت يداك»[1].

وأحب أن أورد أهمّ المضار التي تنشأ عن الزواج من غير المسلمات ونستطيع أن نصنفها في زمر ثلاث هي:

مضار للزوج- مضار للأولاد- مضار للمجتمع.

١- إن الزوج المسلم عندما يعاشر امرأة تخالفه في العقيدة والمثل العليا والقيم الكبرى يشعر بكثير من المرارة... والتعاسة. إنها لا تعظّم ما يعظّم... ولا تحرّم ما يحرّم.. وترى الشيء المعيب في نظره شيئاً عادياً.

وهل أصعب على نفس المرء من أن يعاشر من يكون كذلك؟ هذا بشكل عام.. فإذا راعينا الاعتبارات التاريخية التي تبدلت، وحالتنا السياسية في الماضي، وكيف

(١) انظر تخريجه ص٦١.

تغيرت الآن، والغزو الفكري العنيف الذي خضع له العالم الإسلامي تبدّت صعوبة الحياة الزوجية مع غير المسلمة.

لقد كانت هناك جوانب إيجابية في الزواج من غير المسلمات؛ إذ كانت النتيجة الغالبة أنّ المرأة تدخل في الإسلام ويحسن إسلامها، وفي ذلك كسب للإسلام وإنقاذ لإنسانة من البشر من عذاب الله.

كان ذلك يوم أن كان المسلمون مسلمين حقاً، ويوم أن كانت الأوضاع الاجتماعية تتيح للرجل من التأثير أضعاف ما تتيحه اليوم. فلم يكن الناس يعرفون شيئاً يدعى "مشكلة المرأة". لقد كانت المرأة في المجتمع المسلم أماً تحظى ببر أولادها، أو بنتاً تكون موضع حنان الأبوين ورعايتهما، أو زوجة تربطها بزوجها رابطة المودة والرحمة، أو أختاً يحفظها أخوها ويقوم بشؤونها.

ثم كان تخلف شمل الرجل والمرأة جميعاً، فكان من كيد الأعداء أنهم طرحوا شعار "مشكلة المرأة" ومحاولة إنصافها. وإنها - والله- فتنة مصطنعة، وأسهمت أيد أثيمة محلية ماكرة بتضخيم هذه المشكلة، ونشرت بوسائل الإعلام المتعددة أفكاراً هدامة تحت هذا الشعار وأعانتها في بعض الأحيان قوى تملك السلطة فانتقصت من حق الأب والزوج والأخ، وبذلك تزلزلت قوامة الرجل الذي كان له وزن كبير في التأثير. ولم يكن تسلط الشهوة على الناس في الماضي كما هو اليوم.. لقد استحكم سلطان الشهوة - مع الأسف الشديد- على النفوس، حتى أضعف ذلك من رجولة الرجل.. وخفف من قوامته.

هذه واحدة والثانية أنّ دولة الإسلام كانت أعظم دولة في الأرض، أو من أعظم دول الأرض.. واستمر هذا عبر القرون حتى آخر أيام الدولة العثمانية.. إن هذا الواقع السياسي الرفيع يعطي المسلم من القوة المعنوية والاعتزاز بالإسلام وبكيانه الشيء الكثير... وهذا قد غاب مع الأسف الشديد في هذا العصر.

والثالثة هي قضية الغزو الفكري الأوروبي للمسلمين.. ذلك الغزو الذي نقل

إلينا مفاهيم غريبة ومغلوطة في الزواج والطلاق والتعدد... والنظرة إلى الحياة وإلى الغيبيات، وأتت بمثل جديدة لا نعرفها كالقوميات والوطنيات وما إلى ذلك، إن هذه الأمور الثلاثة تعطل كثيراً من الجوانب الإيجابية للزواج من غير المسلمات وتجعل الزوج في تعاسة كبيرة. وهو بين أحد أمرين:

إما أن يحس بهذا الواقع المؤلم، وعندئذ ستكون التعاسة في أعماقه وبين جوانحه ويظهر الشقاء في حياته لكل من يراه.

وإما ألا يحسّ بهذا الواقع فالمصيبة أعظم... لأنه يكون قد فقد الإحساس بالنقص وذلك أدهى وأمر.. لأن من فقد الإحساس بنقصه يكون قد فقد ذاته. ومن المضار التي تتعلق بالزوج أنه في حالة الإخفاق في الزواج من الكتابية قد يتعرض إلى تغلبها عليه في انتزاع الأولاد منه.. وهذا قد يحطمه تحطيماً..

٢- أما المضار التي تلحق بالأولاد فأهمها: التوزع في الولاء، فلا يدرون لمن يعطون الولاء، ألأبيهم المسلم أم لأمهم اليهودية أو النصرانية... إنهم يفتحون أعينهم على اتجاهين مختلفين في وسط الأسرة والبيت.. وفي ذلك ما فيه. ومنها التأثر بالأم لأن الولد ميّال إلى أمه بطبيعة الحال، لما تغمره به الأم عادة من الحنان والحب والرعاية. ومنها الآثار الوراثية، لأن العرق دساس، وقد أثبتت الدراسات العلمية الحديثة في حقل الوراثة أن الوليد تنحدر إليه صفات من أجداده من طرفي أبيه وأمه.

ومنها فقدان التوجيه من ألصق أبويه به، فالأم الكافرة بدين أبيه لا تذكره بعبادة ولا تأمره بواجب ديني ولا تنهاه عن حرام.

أضف إلى ذلك ما يحصل كثيراً من انتزاع الأولاد من أبيهم والرجوع بهم إلى بلدها في أوروبا أو أمريكا وتنصير الأولاد وتنشئتهم على أوضاع أهلها وقومها.

٣- أما المضار التي تلحق بالمجتمع فكثيرة: أهمها كساد بنات المسلمين، وبقاؤهن عوانس في البيوت، وهذا يلحق أعظم الأضرار بحياة الأفراد والأسر.

إن كثيراً من المشكلات العائلية والنفسية والاجتماعية التي تعانيها كثير من البيوت يعود إلى وجود عوانس فيها، لأن بعض النساء العوانس يتصرفن تصرفات تزعجهن وتزعج الآخرين، فسنة الحياة التي فطر الله الناس عليها أن الرجل يكمل المرأة وأن المرأة تكمل الرجل، وأن لقاءهما في بيت الزوجية يقيهما العقد النفسية، وما أكثر المآسي التي تخرب بيوتاً عدة بسبب هذا الاختلال المؤذي في بنية المجتمع. أضف إلى ذلك ما يمكن أن تتعرض له الأمة من الفساد الخلقي الرهيب. ومن هذه المضار نشر عادات اجتماعية بعيدة عن الإسلام وذلك عندما تمارس الزوجة الكتابية عاداتها المستنكرة إسلامياً من نحو خروجها حاسرة متبرجة ملقية الحجاب الذي أوجبه الله على المرأة، ومن نحو سباحتها على الشواطئ مع الرجال شبه عارية على الوضع المزري الذي يفعله الكفار.

إن الشرع عندما أباح للمسلم أن يتزوج الكتابية أباح ذلك والسلطان للرجل في مجتمع تغلب عليه الأعراف والآداب الإسلامية، فهي لا تقوى على أن تمارس عاداتها التي ألفتها... والوضع الآن يختلف عن ذلك في أكثر بلاد المسلمين. حتى ولو لم تعلن في المجتمع الإسلامي المنكرات التي ألفتها، فإن مخالطتها للنساء المسلمات يترك أثراً كبيراً فيهن، لا سيما والمرأة كما هو معلوم ضعيفة سريعة التأثر. ومن المضارّ التي تعود على المجتمع بالضرر البالغ أن هذه المرأة الكافرة ستطلع على أحوال زوجها وكثير من أسراره.. فإن كان الزوج رجلاً كبيراً أو مشتغلاً بقضية كبرى كان معرضاً إلى أن تسرق أسراره بصورة مباشرة أو غير مباشرة إلى أعداء أمته. وفي تاريخنا وتاريخ الأمم الأخرى قصص واقعية لكوارث تعرّضت لها الأمة بسبب خيانة بعض الزوجات الأجنبيات.

إن ذلك كله ليجعل الإقدام على الزواج من الكتابية أمراً مرجوحاً. إن الأنفع للمسلم في ذاته وفي أولاده وفي أمته أن يتزوج امرأة من بني جلدته من ذوات الدين، ليسعد ويكون قادراً على خدمة أمته وعلى نشر رسالتها.

ويبقى حكم الزواج من الكتابية على الحل، لكنه ليس الأفضل، وقد يصل بسبب ما ذكرنا إلى الكراهة.

هذا وللموضوع جوانب أخرى لا بدّ من الإلمام بها ولو بذكرها، من أهمها الشروط التي لا بد من توافرها وهي:

١- أن تكون كتابية. أما المشركة فلا يحل نكاحها.

٢- أن تكون عفيفة. أما الزانية فلا يحل نكاحها.

٣- أن تُستوفى شروط العقد.

٤- ألا يحمله الزواج منها على التفريط في حق دينه.

وإننا لننصح من يقدم بعد هذا كله على الزواج من كتابية - أن يتقي الله فيها، وأن تكون تصرفاته معها متقيدة بآداب الإسلام، ليكون سلوكه داعياً إياها إلى الإسلام.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

اختيار الصهر

ذكرت آنفاً المقياس الذي يجب أن يُحكَّم في موضوع الزواج، وأدرت الحديث كله حول اختيار الرجل للمرأة، وانتهيت من ذاك الحديث إلى أنّ المقياس الذي لا ينبغي أن يعلوه شيء هو الدين، وأنه لا يجوز أن يكون لعامل آخر من العوامل التي تقوم في دنيا الناس كلمة الفصل في هذا الموضوع. وأودّ أن أدير الحديث اليوم على اختيار الصهر الخاطب والزوج المقبل:

قد يكون الموضوع ذا حساسية متناهية؛ لأنّ المرأة في بلادنا مطلوبة وليست طالبة، وهي مخطوبة لا خاطبة[1].

ولكن هذه الحساسية تجعله موضوعاً مهماً جداً، والغلط في اختيار الصهر المناسب أشدّ خطراً من الغلط في اختيار الزوجة، لأنّ الزوجة السيئة يتخلّص منها المبتلى بها بكلمة واحدة، أما الصهر السيئ فإنّ التخلص منه في غاية الصعوبة، وأثر التخلص منه لا يمحي بسهولة لا من نفسية الفتاة ولا من سمعة الأسرة.

ولننظر كيف عالج الإسلام العظيم هذا الموضوع الدقيق؟ لقد عالجه ببالغ الحكمة وغاية التوفيق، يتجلّى ذلك في قول الصادق المصدوق: «إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه. إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[2]. إنّ

---

(١) هذا في الأعم الأغلب، وهناك ناس يخطبون لبناتهم مقتدين بسيدنا عمر بن الخطاب عندما عرض على سيدنا أبي بكر الزواج من حفصة بعدما تأيمت فاعتذر، ثم عرض على عثمان الزواج منها فاعتذر حتى خطبها رسول الله ﷺ. ومن قبل ذلك فقد خطبت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ. وهؤلاء الناس الذين يفعلون ذلك استطاعوا بحق أن يرتقوا إلى هذا المستوى الرفيع وأن يتخلصوا من ضغط العادات والأعراف، فكانوا بذلك قمماً شامخة. ومُثُلاً رائدة.

(٢) انظر تخريجه ص٥٥.

المقياس الأول الذي يجب أن يُحكّم، والذي ينبغي أن تكون له كلمة الفصل في هذا الموضوع هو الدين. أجل إن الدين قبل العلم.. وقبل المال.. وقبل الجاه.. وقبل الجمال.. وقبل الحسب والنسب.

يروى عن بعض السلف أنه قال: "زوج بنتك صاحب الدين؛ فإنّه إن أحبها أكرمها، وإن كرهها لم يظلمها".

إن المتدين الصادق لا يمكن أن يظلم امرأة غريبة ولا رجلاً بعيداً ولا طفلاً ولا حيواناً فضلاً عن أن يظلم زوجته التي جعلها الله تحت سلطته وأخذت منه ميثاقاً غليظاً والتي هي من نفسه. ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١] ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١].

لا بد من أن نشير إلى أن خللاً فظيعاً في نظرتنا للأمور طرأ علينا، وأنّ مقاييس وافدة دخيلة جدت في مجتمعنا.

وأن ذلك كله قد نشر في أوساطنا أمراضاً اجتماعية فتاكة ونحن لا نلقي لها بالاً، ولا نعنى بدراستها ومعرفة مخاطرها وأضرارها، وهي مسؤولية العلماء والمفكرين.

يتقدم الشاب لخطبة الفتاة، فيواجه من أهلها بمواقف في غاية الغرابة والشذوذ، ويفاجأ بقيم غريبة واعتبارات بعيدة عنّا يفرضونها عليه فرضاً ويؤثرونها على غيرها، وربما كانوا من المشهورين بالتدين. والغرابة تكمن في تقديمها وإعطائها الأولوية:

من هذه الاعتبارات التي يعطونها الأولوية: المال والعقارات.. والمنصب.. واللياقة والهندام.. والمكانة الاجتماعية.. والشهادات العلمية.. والحسب الرفيع.. والوضعية العائلية المناسبة.. كأن يكون من أسرة كريمة ولكنه لا أم له ولا أب ولا أخوات. والوضع الصحي.. والبذل السخي.. والترف الواسع.. إلخ.. وهذه

الاعتبارات لا ترفض من حيث هي، ولا تنحى في مجال البحث والمفاضلة والاختيار والفكر والنظر. ولا حرج على الباحث من أن يسأل عن هذه الأمور كلها أو جلها.. ولا عيب.

لكن الحرج كله والعيب أن تكون هي وحدها المحكمة في المفاضلة والموازنة والترجيح.. أو أن يكون لها النصيب الأوفر في ذلك.

لا بدّ من تقديم اعتبار تكون له الأولوية.. فإذا توافر هذا الاعتبار في الطالبين جميعاً عمد المرء إلى النظر في الاعتبارات الأخرى، وفضّل من حاز على عدد أكبر من هذه الاعتبارات.

جاءت فاطمة بنت قيس إلى رسول الله ﷺ وذكرت له أنه خطبها معاوية بن أبي سفيان وأبو الجهم رضي الله عنهما. فقال رسول الله ﷺ: «أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو الجهم فإنه لا يضع عصاه عن عاتقه، ولكن انكحي أسامة بن زيد». قالت فاطمة: فكرهته ثم قال ﷺ: «انكحي أسامة» قالت فاطمة: فنكحته، فجعل الله فيه خيراً كثيراً واغتبطت. رواه مسلم والأربعة[1].

---

(١) انظره في صحيح مسلم ٢/ ١١١٤ برقم ١٤٨٠. وفي رواية لمسلم ص١١١٩: "أما معاوية فرجل ترب لا مال له، وأما أبو جهم فرجل ضراب للنساء، ولكن أسامة بن زيد" فقالت بيدها هكذا: أسامة! أسامة! فقال لها رسول الله ﷺ: «طاعة الله وطاعة رسوله خير لك» قالت: فتزوجته فاغتبطت. ورواه أبو داود ٢/ ٣٨٣-٣٨٧ والنسائي ٦/ ٦١ ومالك ٢/ ٥٨٠ وأحمد ٦/ ٤١٢ وابن ماجه ١٨٦٩ والحاكم ٤/ ٥٥ وانظر «تلخيص الحبير» ٤/ ٢٠٢ والترمذي ٢/ ١٩٢ وقال: (قال الشافعي: معنى هذا الحديث: «لا يخطب الرجل على خطبة أخيه» هذا عندنا إذا خطب الرجل، فرضيت به وركنت إليه، فليس لأحد أن يخطب على خطبته، فأمّا قبل أن يعلم رضاها أو ركونها إليه فلا بأس أن يخطبها. والحجة في ذلك حديث فاطمة بنت قيس حيث جاءت... فمعنى هذا الحديث عندنا -والله أعلم- أنّ فاطمة لم تخبره برضاها بواحد منهما، فلو أخبرته لم يشر عليها بغير الذي ذكرته) وللشافعي في «الرسالة» ٣٠٧-٣١٣ كلام نفيس في شرح الحديث فانظره هناك، وملخصه ذكره الترمذي. أقول: والحديث «لا يخطب الرجل على خطبة أخيه» رواه البخاري ٧/ ١٧ برقم ٥١٤٢ ومسلم ١٤٠٨ وأبو داود ٢٠٨٠ وابن ماجه ١٨٦٨ والترمذي ٢/ ١٩٢ والنسائي ٦/ ٧١ والدارمي ٢/ ١٣٥ ومالك ٢/ ٥٢٣ وانظر «مجمع الزوائد» ٤/ ٨١.

وواضح من الحديث أن رسول الله ﷺ ذكر من أسباب المفاضلة الناحية المالية والسلوك والمعاشرة ولكن بعد توافر التدين. فاعلموا هذا واعملوا به يسعد مجتمعكم وتبعدوا الفساد العريض عن بلادكم.

وأود أن أوجه كلمتين: إحداهما إلى أهل الفتاة، وأخاطب بالأخرى الفتاة نفسها.

١ - أما أهل الفتاة فإن معظم المسؤولية في هذا الموضوع ربما يقع عليهم؛ ذلك لأننا هنا في الشرق يقوم الأهل بالدور الأعظم في القبول أو الردّ. والشرع المطهّر يعطي الوليّ حق الموافقة أو الرفض، بشرط ألا يتعسف في استعمال هذا الحق، حتى ينتهي به الأمر إلى العضل (وهو منعها من الزواج).

وتلعبُ - عادة - أم الفتاة دوراً كبيراً في إقناع الوليّ بالموقف الذي تراه.. فإلى الآباء والأمهات أوجّه هذه الكلمات الصادقة المخلصة:

إنّ عليكم يا سادتي أن تشعروا بمسؤوليتكم عن هؤلاء البنات اللاتي ائتمنكم الله عليهنّ، فاحذروا أن تفرطوا في القيام بواجبكم في هذا الموضوع، إن لكم يا إخوتي ويا أخواتي وقفة بين يدي الله سبحانه سيحاسبكم فيها عن كل تصرف من تصرفاتكم.. واذكروا قول رسول الله ﷺ: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»[1].

وإني لأعلم أن اشتراطكم بعض الشروط، وطلبكم بعض الطلبات، إنما هما لصالح بناتكم - كما تتصورون - ولكن الأمر قد يكون على خلاف ما تظنون. ومهما يكن من أمر فإنكم مطالبون بأن تنظروا نظرة بعيدة تتجاوز الظروف والأحوال التي أنتم فيها، لتتبينوا أن عاقبة موقفكم في كثير من الأحيان محض الضرر لبناتكم. إن مطالبتكم بشروط مادية عالية تصد الصالحين المناسبين، وتحرم

(١) انظر تخريجه ص٣٦.

بناتكم من بناء مستقبلهن الزاخر بالرؤى والأحلام، العامر بالآمال والأعمال، ومن إنشاء الأسر التي يَسعدن فيها ويُسعدن.. تلك الأسر التي تقدم لأمة الإسلام جليل العبقريات ووافر الخدمات.

إنك - يا أيها الأب العزيز - لست بباقٍ ولا مخلّد، والأنثى لا تستطيع أن تستغني عن الاستعانة برجل زوجاً كان أو أباً أو أخاً، فإذا انتقلت عن هذه الدار الفانية، ولم تكن ابنتك قد دخلت عش الزوجية السعيد، فمعنى ذلك أنها ستكون عالة على أخيها من بعدك، وقد تكون زوجته شريرة شديدة الغيرة فيتحول البيت إلى جحيم.

وكم في الدنيا من منكوبات كُتب عليهن البقاء عوانس في بيوت آبائهن في أول الأمر.. تحوطهن رعاية الأب الرؤوف، وعاطفة الأم الحنون، ثم عندما تقدم بهنّ العمر فقدن آباءهن وأمهاتهن، فأصبحن يعشن بائسات محزونات تحت سيطرة زوجة الأخ، يصلين نار الخصومات، فيشقين ويُشقين.

وهناك احتمال آخر وهو أن يسيء أهل الفتاة الاختيار لفتاتهم، فيزوجونها ممن توافرت فيه بعض الصفات السابقة، ولكنه تخلى عن الدين. فتعاني في حياتها ألواناً من الشقاء.. وقد تخسر دينها وخلقها.. وقد تنحرف في عقيدتها فتخسر الدنيا والآخرة. وقد تنتهي حياتها بالطلاق.

ماذا تستفيد يا أخي من المال والعقارات إن هي حرمت السعادة والحياة النظيفة الكريمة؟

ماذا تستفيد بنتك يا أخي من الشهادات العلمية التي يحملها زوجها إن كان سيئ المعاشرة فظاً غليظ القلب؟

ماذا تنفعها المكانة الاجتماعية الجيدة والحسب الرفيع واللياقة الأنيقة والهندام الحسن والوجه الجميل إذا كان لا يكرمها ولا يعرف قدرها؟ أو كان يصدها عن الخير والبر والمعروف؟ ويحملها على الشر والإثم والمنكر والانحراف والعياذ بالله تعالى؟

ألا فلنتق الله آباءً وأمهات، ولنشعر بمسؤوليتنا في بناتنا.

٢- وأما أنت أيتها البنت العزيزة فاحذري أن تقعي في شباك التقاليد الفاسدة أو العادات السخيفة أو المفاهيم المنحرفة.

إن الخاسر الأكبر في هذه القضية هو أنت.. إي والله فاحذري أن تقدمي المال والجمال والجاه والمنصب على الدين القوي والخلق الزكي.

إن كثيراً مما يتطلع إليه الفتيات في زوج المستقبل عرضة للتغير والتحول، والضياع والتبدل، وعندئذ تحق على تلك الفتاة الشقاوة والخسارة. أما الدين الحق والخلق الكريم فإنهما ثابتان ثبوت الرواسي من الجبال.. بل في الغالب الأعم أنهما ينموان ويزدادان رسوخاً وقوة.. هذا هو الأغلب، أما النادر من الحالات فهو شاذ، والشاذ يؤيد القاعدة ولا يخرقها.

وربما كانت الشهادات العلمية خداعة لنفر من الفتيات المهتمات بالأمور المعنوية، وهذا بريق كاذب ينطوي على كثير من التزوير. إن العلم إن لم يكسب صاحبه فضلاً واستقامة، ونبلاً وسمواً فهو سراب خادع لا ينفع ولا يغني من جوع، وقد قال سفيان بن عيينة: "العلم إن لم ينفعك ضرّك"[1].

هذا وكم نجد من حملة الشهادات من لا يفقه في موضوع تخصصه إلا اليسير القليل. ولا تظنن واحدة منكن أيتها البنات العزيزات أن العوامل والاعتبارات الأخرى مرفوضة.. لا.. ليس هذا الذي نريد. بل للواحدة منكن أن تطلب في رجلها المقبل كل ما تتمنى من رغبات ولكن على شرط أن يكون ذلك كله بعد توافر التدين في الرجل والخلق الحسن.

ولله در القائل:

ما أجمل الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

---

(١) كتاب القصاص والمذكرين لابن الجوزي بتحقيقنا ص٤١.

وأنا أعلم أن الحياء يمنعكن - أو يمنع كثيراً منكن - من أن تقول رأيها صريحاً لوالدها وأخيها، ولكنها ستكون بعيدة عن هذا الحرج مع أمها أو أختها الكبرى. ومن المعلوم أن الشرع المطهر جعل سكوت البكر دليلاً على قبولها.

واعمدي إلى الاستشارة: استشارة قريباتك ممن تثقين بعقلهن ودينهن.

والجئي إلى الاستخارة التي كان يعلمها رسول الله أصحابه، ثم اتخذي بعد ذلك القرار الذي ستتحملين أنت نتائجه.

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! إن أبي زوّجني ابن أخيه يرفع بي خسيسته. فجعل الأمر إليها فقالت: فإني قد أجزت ما صنع أبي. ولكن أردت أن تعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء[1].

(١) وانظر الحديث في «مسند أحمد» ٦/ ١٣٦ وابن ماجه ١/ ٦٠٢ والنسائي في باب النكاح ٦/ ٨٦.

دعائم الحياة الزوجية

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١]

من آياته تبارك وتعالى أن خلق للناس من أنفسهم أزواجاً، ليجدوا فيها سكناً للنفس والأعصاب، وراحة للجسم والقلب، واستقراراً للحياة والمعاش، وأنساً للأرواح والضمائر، واطمئناناً للرجل والمرأة على السواء.

والأصل في كل رجل سويّ أن يكون زوجاً، وكذلك المرأة، لأن أياً منهما لا غنى له عن هذه الصفات المثلى التي يسعى إليها كل مخلوق من السكن والرحمة والمودة، وذكر تبارك وتعالى أن في ذلك آيات لمن يتفكر ويتدبر. يقول سيد قطب:

[فيدركون حكمة الخالق في خلق كل من الجنسين على نحو يجعله موافقاً للآخر، ملبياً لحاجته الفطرية: نفسية وعقلية وجسدية، بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار؛ ويجدان في اجتماعهما السكن والاكتفاء، والمودة والرحمة؛ لأن تركيبهما النفسي والعصبي والعضوي ملحوظ فيه رغائب كل منهما في الآخر، وائتلافهما وامتزاجهما في النهاية لإنشاء حياة جديدة تتمثل في جيل جديد][1].

ولقد جرى على هذه السنة البشرية الأصيلة الصالحون والأنبياء ومنهم نبينا محمد صلوات الله عليهم أجمعين. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد: ٣٨] وأما حكمه الشرعي فلنستمع إلى الحديث الصحيح الشريف. يقرره بأبلغ بيان.

---

(١) من كلام سيد في «الظلال» ٢١/ ٣٦ (٥/ ٢٧٦٣ ط الشروق).

قال ﷺ: «يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغضّ للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[١].

وفي هذا الحديث وغيره من الأحاديث ترغيب في الزواج وندب إليه، وقد ذهب العلماء إلى أن الزواج يكون واجباً إذا كان المرء قادراً وخشي على نفسه العنت. أما إذا لم يكن قادراً فعليه أن يستعفف حتى يغنيه الله من فضله، وقد دله الحديث على وسيلة ناجعة لتحقيق العفة وهي الصيام.

قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٢_٣٣] [يأمر الله الجماعة المسلمة أن تعين من يقف المال في طريقهم إلى النكاح الحلال][٢]. وفي الآية مجال لأن يفهم أن المرء إذا أغناه الله من فضله فعليه أن يتزوج.

والإسلام في موقفه هذا من الزواج ينسجم مع نهجه الرباني الكريم من حرصه على عدم مصادمة الفطرة، وتصعيد الغرائز حتى تؤدي غرضاً نظيفاً بناءً.

بينما هناك في عالمنا اليوم مذاهب علمانية تعزف عن الزواج وتجده قيداً لا يرضى به إلا السخفاء، ومذاهب دينية ترى أن الزواج تدنس لا يتفق والارتقاء في سلم الروح كما تذهب إلى ذلك النصرانية الكنسية، التي تشترط في رجال الكهنوت عدم الزواج لينالوا الرتب العالية.

أين هذا السلوك المصادم للفطرة والغريزة ممن يجعل الزواج سنته ويبرأ ممن يريد أن يمتنع عن الزواج؟ كما قال رسول الله ﷺ لمن أرادوا أن يقوموا الليل ويصوموا الدهر ويمتنعوا عن الزواج. قال: «أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن ابن مسعود. وانظر تخريجه ص٣١.
(٢) الظلال ١٨/ ٩٨.

أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»[١].

وأين هذا السلوك المصادم للفطرة ممن يجعل الاستمتاع بالحياة الزوجية الحلال صدقة؟ كما قال صلوات الله وسلامه عليه: «وفي بضع أحدكم صدقة» قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أيكون عليه وزر فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»[٢].

***

أما دعائم الحياة الزوجية في الإسلام فسأذكر أهمها فيما يأتي:

١ - تحكيم لدين الله في الحقوق والواجبات لكل من الزوجين:

وهذا يقطع دابر الخلاف، ويتيح للسعادة أن ترفرف بأجنحتها على بيت الزوجية، ذلك لأن الاحتكام إلى مقاييس ربانية وضعها رب العالمين يجعل في النفس راحة في الأخذ بها والوقوف عند حدودها، ولن يكون هناك نكد ولا خصام ولا خلاف إذا روعيت من الطرفين كليهما.

٢ - حب ومودة ورحمة وسكن للزوجين:

هذه الصفات الثلاث الحب والمودة والرحمة وإن كانت متقاربة في المعنى لكن نلمس بينها شيئاً من الفروق الدقيقة.

فالحب عاطفة تعمر جوانب القلب، وتقوم في داخل النفس، والمودة قد تكون مظهر هذا الحب ويسلك الزوجان للتعبير عنها سبيل المؤانسة والملاطفة والهدية. وأما الرحمة فهي فيض من المشاركة الصادقة في الفرح والحزن، والإشفاق المخلص، والمعونة الظاهرة فيما يستطيع الإنسان أن يفعله، وقد تكون بالنظرة الحانية والابتسامة المشرقة، والكلمة الطيبة والمساعدة المادية.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس بن مالك. وانظر تخريجه ص٣٤.

(٢) رواه مسلم عن أبي ذر ٣/ ٨٢.

وذكر تبارك وتعالى المودة والرحمة فقال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]

وينتج عن ذلك كله السكن النفسي الذي تتجمع فيه السعادة كلها قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ [الروم: ٢١].

وقال عز من قائل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

٣- تعاون بين الزوجين في الحياة المشتركة تحت شعار الإيثار والتضحية: فالزوجان يعملان في بناء أسرة إنسانية، ولا يمكن أن يتم البناء إلا بأن يكون عملهما متصفاً بالتضحية والإيثار والتسامح والتحمل، وإن غاب الإيثار والتسامح والتضحية من جو الأسرة فلن تجده في جو آخر.

٤- العدالة والإنصاف في كل شأن من شؤون الحياة والتكافل التام في أحداثها. نعم ينبغي أن يكون كل منهما عادلاً مع الآخر فالظلم محرم بين المسلمين عامة. والحرص على العدل والتكافل من الطرفين ينفي وجود الإحساس المرير بالظلم.

والعدالة التي نريدها دعامة من دعائم الحياة الزوجية عامة تشمل الموقف والكلمة والطلب والنفقة والثقة.

* فمن العدالة اجتناب اللجاجة في الخصومة والإساءة في الكلمة.

ومن العدالة ألا يحمل أحد الزوجين صاحبه ما لا يطيق.

ومن العدالة الاقتصاد في النفقة واجتناب الشح.

ومن العدالة ألا يصغي أحدهما لوشاية الوشاة ولا لسعي النمامين ولا لهدم الهدامين.

* والتكافل هو السبيل الوحيد الذي يجعل سفينة الحياة الزوجية تسير على طريق البناء والخير والسعادة والفلاح.

ولن تكون هناك سعادة في أسرة تقوم على الاستغلال والتقصير والتواكل والظلم.

إن بيتاً تقوم دعائم الحياة فيه على هذه الأسس المذكورة لجدير أن يقدم للأمة من تحتاجه من الأفراد الصالحين الأصحاء المستقيمين، وما زالت الأسرة في بلادنا ولله الحمد تزخر بقيم أصيلة، يصلح بصلاحها المجتمع، فلنعمل على تسهيل الزواج، ولنهيء الظروف والأسباب لتقوم دعائم الحياة الزوجية كما أرادها الإسلام. لنسعد في مجتمعنا ولنقدم للإنسانية كلها نموذج الحياة الصالحة النظيفة السعيدة.

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

المودة والرحمة بين الزوجين

إن الحياة الإنسانية قائمة على الشركة بين المرأة والرجل، وذلك عندما تكون سوية طبيعية. ومن سنة الله في خلقه أن كلاً من الجنسين مفتقر إلى الآخر، وأن أحدهما مكمل لصاحبه، وباجتماعهما تحصل السعادة ويتحقق الخير والصلاح والسرور.

فمن آيات الله الدالة عليه أن خلق للناس من أنفسهم أزواجاً ليسكنوا إليها، فتستريح قلوبهم وأنفسهم، وجعل بينهم مودة ورحمة.. والإنسان يسعد بهذه المعاني من المودة والرحمة والسكن أكثر مما يسعد بالطعام الشهي والبيت الفخم واللباس المترف.. لأن الإنسان إنما يتميز عن الحيوان بالمعاني لا بهذه الأعراض الزائلة من رغيف وثوب ومسكن، والناس عندما أعرضوا عن دين الله أضاعوا السعادة وخسروا الراحة والهناء، وسيطر عليهم البؤس والشقاء والضياع.

إن البيت المسلم هدف الكفرة يصوبون نحوه سهامهم ليزعزعوه وليزلزلوه، فيضيع مهمته التي ظل يؤديها أربعة عشر قرناً. على اشتداد الظلمات السياسية والاجتماعية في كثير من الأحيان.

وعلينا نحن أن نصونه ونعمل على أن يبقى قائماً بالعمل الخالد في إمداد الأمة بالمثل والقيم، والأبطال الذين يحملونها.

إن التهاون في توفير المودة والرحمة من الطرفين أمر في غاية الخطورة، لأن غياب المودة والرحمة سبب من أسباب خراب البيت ودماره. إن البيت الذي يسوده الشقاق والكراهية بيت عاجز عن تخريج الرجال الصالحين والنساء الصالحات.

وأودّ في هذه الكلمة التي تستوحي معانيها من آية المودة والرحمة الواردة في

سورة الروم أن أذكر ببعض الأمور المهمة التي يجب أن يلاحظها الزوجان لإبقاء جو الود والرحمة مخيماً على البيت؛ وحبذا لو عمد الزوجان في لحظة من لحظات الصفاء إلى الاتفاق على وضع أسس سليمة للحياة المشتركة بينهما، لمواجهة المشكلات ساعة حدوثها، ويحسن أن تكون هذه الأسس مكتوبة ومطبقة وأن يذكر كل منهما نفسه بها بين الحين والحين.

١- ومن أهم هذه الأسس أن يلتزما بآداب الإسلام وأحكامه وتوجيهاته، فيؤدي كل منهما واجباته نحو الآخر.

٢- ومنها أن يحتمل كل منهما صاحبه، فابن آدم خطّاء، ولكل جواد كبوة ولكل امرئ هفوة، ولكل إنسان زلة، وأحق الناس بالاحتمال من كان كثير الاحتكاك بمن يعاشر. وأن لا يقابل أحدهما الانفعال بمثله، فإذا رأى أحد الزوجين صاحبه منفعلاً بحدة، فعليه أن يكظم غيظه ولا يرد على الانفعال مباشرة.. وهذه النصيحة يجب أن تعمل بها المرأة أكثر من الرجل رعايةً لحق الزوج.

٣- ومنها مراعاة كل منهما لصاحبه، فلا يجلس الرجل مع أهله في ثياب العمل القذرة، ولا في عرقه الفائحة روائحه.. بل عليه أن يتخذ لبيته ثياباً نظيفة، وأن يتنظف من بعد رجوعه إلى البيت، وكذلك فإن على المرأة أن تنتبه لهذا الأمر، ذلك لأننا نجد العروس في كثير من الأحيان تتغير بعد شهر العسل. فبينما كانت تبدو في خلاله أو في أيام الخطبة في أوج أناقتها، ترتدي أجمل ثيابها، وتخاطبه بأرق عباراتها، وتعامله بالحب الفياض، والاحترام الكبير، تتبدل بعد الزواج وشهر العسل، وتتحول إلى شيء آخر قبيح، تنقلب الأناقة شعثاً وقذارة، والابتسامة الحانية إلى عبوس وكآبة، والمعاملة الطيبة إلى نكد ومشاكسة، والمحادثة اللطيفة إلى صياح وشجار، ولا يعود يرى الزوج من زوجته ما كان يراه منها، أما الزينة والملابس الجميلة والروائح العطرية فمدخرة للضيوف والحفلات.

وربما تقول الزوجة الغافلة: إن الأناقة والرقة لا تليق بها بعد عشر أو عشرين من

السنين قضتها في عشرة الزوج.

وهذا قول مباعد للحق والصواب.. سبحان الله هل تغير الزوج؟ هل انسلخ عن كونه إنساناً يأنس بالكلمة الحلوة، ويتسمتع برؤية الجمال، وتسعد نفسه البسمة والرقة والعذوبة؟

إن كل إنسان مهما كان عمره ومهما كان عدد أولاده ومهما كانت أعماله يتطلع إلى أن تسره زوجته إذا نظر إليها.. بل إن كثرة المسؤوليات لتجعله أحوج إلى المعاملة الطيبة، واليد الحانية، والوجه الجميل.

أليس من العيب أن تعتني الزوجة بمظهرها إذا حضرت إليها صديقة أو أرادت الخروج لزيارة، في الوقت الذي تهمل نفسها وزينتها أمام الزوج؟ أوليس الزوج وحده هو صاحب الحق في أن يتنعم بجمال زوجته وأناقتها وأن يرى عليها أحسن الملابس؟

إن كثيراً من الرجال لا يرى زوجته إلا في ملابس المطبخ أو الشغل وهو المكلف بأن يدفع ثمن الملابس الفاخرة وأجرة خياطتها؟

٤- وهناك أمور أخرى من أهمها تقرير مبدأ طاعة الزوج فيما لا معصية فيه. وهذا أمر طبيعي، فإن كان الزواج شركة، وكان الرجل هو صاحب القوامة، فلا بدّ من طاعته فيما يأمر وينهى في حدود الشرع، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «اثنان لا تجاوز صلاتهما رؤوسهما: عبد أبق من مواليه حتى يرجع، وامرأة عصت زوجها حتى ترجع» رواه الطبراني بإسناد جيد والحاكم[1].

قد شاعت بين عدد من المثقفات فكرة خاطئة وهي أنّ مساواة المرأة بالرجل تقتضي تحررها نهائياً من طاعته، وهي غلط في مقدمتها ونتيجتها، فمساواة المرأة

(١) انظر «المستدرك» ٤/ ١٧٣ و«مجمع الزوائد» ٤/ ٣١٣ و«الترغيب والترهيب» ٢/ ٢٨١ و٣/ ١٤ و«صحيح الجامع الصغير» رقم ١٣٦.

بالرجل خديعة أطلقها ناس وهم لا يصدقونها، لأن الواقع لا يصدقها. ولو كان ذلك صحيحاً فليس من الضروري أن يترتب عليها عدم الطاعة، لأن طاعة الرئيس لا تعني عدم المساواة بينه وبين مرؤوسيه.

وهذه الفكرة هي السبب في هدم بنيان كثير من الأسر اليوم.

إن الحياة المشتركة ينبغي أن تكون مبنية على التفاهم والتحاور والتشاور، ولكن القوامة ينبغي أن تكون للرجل كما قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤]. وهناك حقيقة لا بد أن تعلمها الزوجة المثقفة وأن تتذكرها دائماً، وهي أن الرجل السويّ لا يحب المرأة المسترجلة التي ترفع صوتها فوق صوته، والتي تشاجره في كل أمر، وتخالفه في كل رغبة، وتسارع إلى ردّ رأيه أو ما يقول. إن هذا الرجل إن لم يطلقها عاش معها كئيباً عابساً كارهاً، فتكون بذلك قد حرمت نفسها رؤية البهجة المرحة في وجه زوجها ومعاملته، وحرمت بيتها التمتع بالحنان الدافئ... وهي الخاسرة سواء شُرِّد أولادها بالطلاق وتحطمت نفسيتها بالترمل، أم بقيت في بيت تعلوه سحب المصادمات اليومية والحرائق النزاعية.

إن الزوجة الذكية هي التي لا تتخلى عن طبيعتها الرقيقة الهادئة الطيبة، إنها كما صورها الحديث الشريف راعية في بيت زوجها تصونه وترعاه. إذا نظر إليها زوجها سرته، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله.

عن أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرّته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله»[1].

وعن أبي هريرة قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي النساء خير؟ قال: «التي تسره إذا

(١) أخرجه ابن ماجه ١٨٥٧. وفي إسناده علي بن يزيد، وهو منكر الحديث.

نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه في نفسها وماله بما يكره»[1].

٥- ومن هذه الأمور ألا يدخل أحد منهما في الخلاف إنساناً آخر مهما كان هذا الإنسان قريباً حتى ولو كان ولداً أو والداً.. إلا أن يتفاقم الخلاف ويصبح التحكيم وسيلة من وسائل العلاج المحتوم.

٦- ومنها ألا يتكرر العتاب في مسألة واحدة إلا على سبيل الندرة.. إن كَثْرَةَ العتاب والتوبيخ والإسراف في اللوم من المبيدات لجوّ التعاون والتفاهم والمحبة.

٧- ومنها ألا تطول المقاطعة وألا يدوم الهجران بينهما أكثر من ساعات هذا إذا كان السبب يسيراً، أما إذا كان نشوزاً أو ما إلى ذلك فله أن يهجرها في المضاجع ولكن لأمد محدود.

إن طول مدة الخصام تسقط هيبة الطرف الثاني، وتجرئ على المضيّ في طريق الخصومة، وربما تفاقم الأمر إلى ما لا تحمد عقباه.

٨- ومنها أن يعترف المخطئ بخطئه، ولا يكابر إبقاءً على منزلته وهرباً من الحرج والخجل.. وأن ينسى الطرفان بعد ذلك هذا الخطأ.

٩- ومنها افتعال المنشطات وعوامل التجديد وترسيخ المحبة كالابتسامة الدائمة، والملاطفة، وكالمفاجأة بالهدايا، وكالقيام برحلات ممتعة بين آونة وأخرى، والحرص على الاستحواذ على قلب صاحبه، وتفهم وضعه والتجاوب. إن هذه المنشطات بمثابة إعادة بناء صرح الزوجية يومياً.. ذلك الصرح المستهدف.. إننا إن لم نسارع إلى إعادة بنائه رجالاً ونساءً نكون قد مكنّا أعداءنا منا، وأتحنا لهم أن يهدموه.

١٠- ومنها أن يهتم كل منهما بالآخر، وأن يفرغ له حيناً من الوقت يقضيه بالمؤانسة والمجاملة والكلمة الطيبة، ويعين على ذلك تنظيم الانشغال بالأولاد والأعمال الخاصة والأصدقاء.

---

(١) أخرجه النسائي ٦/ ٦٨.

١١- ومنها المبالغة من كل منهما في إكرام أهل صاحبه.

***

إن هذا الاتفاق على هذه الأمور وغيرها له تأثير نافع في الحدّ من الخلافات الزوجية التي تهدد السعادة الزوجية، لا سيما إن كانت هناك رغبة من الطرفين بالحياة المشتركة.

ولنذكر أن معظم النار من مستصغر الشرر، وأن من لم يصبر على كلمة سمع كلمات، وأنّ كلم اللسان أنكى من كلم السنان، وأن عثرة الرِّجْلِ تُقال، وعثرة اللسان ربما لا تقال.

ولنذكر بحديثين عن رسول الله ﷺ هما قوله: «لا تغضب»[١] وقوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[٢].

وأخيراً ليعلم الرجل أن النساء متشابهات، وأن الكمال مستحيل، وأنه إن كره منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر.

ولتعلم المرأة أنّ الذي لا يعجبها من زوجها ربما يهون لو اطلعت على صفات أخرى لأزواج غيره، ذلك أن بيئتنا واحدة وطباعنا متقاربة. ألا فلنقم آية الله في زواجنا ولنجعل المودة والرحمة ترفرف على بيوتنا لنجد فيها الأمن والسكن والسعادة. والطريق إلى ذلك يبدأ من أنفسنا وينتهي بالمجتمع.

(١) «صحيح البخاري» ٨/ ٢٤ و«الترمذي» ٣/ ١٥١-١٥٢ ومالك في «الموطأ» ٢/ ٩٠٦ وأحمد في «المسند» ٢/ ١٧٥ وانظر «الترغيب والترهيب» ٣/ ١٩٤ وكتابنا: «الحديث النبوي» ١٢٤.

(٢) صحيح البخاري: فتح الباري ١٠/ ٤٤٥ و١١/ ٣٠٨ وصحيح مسلم ٤٧ وابن ماجه ٣٩٧١ والترغيب والترهيب ٣/ ٢١٩ وابن ماجه ٣٩٧١ ورياض الصالحين ١٥١٨.

حسن العشرة بين الزوجين

إن المهمة العظمى التي بعث الله عبده ورسوله محمداً ﷺ من أجلها هي:
توحيد الله تبارك وتعالى. وتتميم مكارم الأخلاق.

وتوحيد الله وإفراده بالعبادات وما يترتب على هذا التوحيد يمثل العقيدة الصالحة التي لا تقوم الحياة الإنسانية على الوجه الأفضل إلا بها.

ومكارم الأخلاق تمثل الطريقة المثلى في السلوك والمعاملة الكريمة التي بها يحيا الناس سعداء طيبين، ولو نظرنا إلى العبادات كلها لوجدنا أنها تسهم في تزكية الخلق، وترتفع بمن يؤديها على وجهها إلى أسمى مستوى. ومن أجل ذلك قال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»(١).

وما أكثر الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الحاضة على حسن الخلق، والرفق بالناس، ومعاشرتهم بالمعروف.

فمن ذلك هذه الآية الجامعة العظيمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] ومن ذلك آيات الوصايا الخالدة: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟

(١) الموطأ ٢/ ٩٠٤ بلفظ «لأتمم حسن الأخلاق» ومكارم الأخلاق للخرائطي صفحة٢ والمستدرك ٢/ ٦١٣ ومجمع الزوائد ٨/ ٢٣ و١٨٨ و٩/ ١٥ والسنن للبيهقي ١٠/ ١٩٢ وأخرجه ابن سعد والبيهقي في شعب الإيمان والبخاري في الأدب المفرد وانظر مختصر المقاصد ١٨٤ والدرر ١٥١ وصحيح الجامع الصغير ٢٣٤٩.

ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام ١٥١-١٥٢] والآية: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤].

القرآن مملوء بمثل هذه الآيات التي تدعو إلى الفضيلة والخلق الكريم.

ومن الأحاديث قوله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»(١) وقوله: «إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً»(٢) وقوله: «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف»(٣) وقوله: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه»(٤). وقال أنس خادمه: كان ﷺ أحسن الناس خلقاً(٥) وقال: ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي قط: أف، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا؟(٦).

إذا كان المسلم مطالباً بأن يتحلى بهذه الآداب الإسلامية الكريمة في معاملة الناس عامة فإنه مطالب بذلك بشكل أشد بشأن الزوجة شريكة العمر ورفيقة

(١) رواه الترمذي ٣/ ١٤١ عن أبي ذر ومعاذ والدارمي ٢/ ٣٢٣ وأحمد ٥/ ١٥٣.

(٢) انظر «الحديث النبوي» ١٠٩-١١٠ ففيه تفصيل في التخريج.

(٣) رواه مسلم ٢٥٩٣.

(٤) رواه مسلم ٢٥٩٤ وأبو داود ٢٤٧٨ وأحمد ٦/ ٥٨ وانظر مختصر المقاصد ٢٠٣.

(٥) البخاري برقم ٦٢٠٣ وانظر فتح الباري ١٠/ ٥٨٢ ومسلم برقم ٢١٥٠.

(٦) البخاري برقم ٦٠٢٨ وانظر فتح الباري ١٠/ ٤٥٦ ومسلم برقم ٢٣٣٠.

الدرب.

ومن أهم هذه الآداب حسن المخالقة وطيب المعاشرة في التعامل.

إنّ حسن الخلق هو المفتاح الذي يدخلك إلى روضة السعادة، وهو العامل الرئيسي في قيام الأسرة الفاضلة، التي تنتج مواطنين صالحين.

والمعاشرة الحسنة لا بد أن تكون من الطرفين لتؤتي أكلها، أما إذا كان أحدهما كريم الخلق، لين العريكة، وكان صاحبه وعر الطبع، سيئ المعاملة، لم تؤت هذه الحالة ثمرة طيبة أبداً.

وحسن المعاشرة - بالنسبة إلى الزوج- يتمثل في الأمور الآتية وهي جميعاً داخلة في قوله عز من قائل: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

١- النفقة الكافية حسب وُسْعه، وتأمين المسكن والمطعم والملبس قال ﷺ: «ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن"[١]. وقال صلوات الله عليه: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت»[٢].

٢- طلاقة الوجه، والكلمة الطيبة:

عن معاوية بن حيدة قال: قلت: يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال ﷺ: "أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت"[٣]. قال الحافظ المنذري[٤] يشرح قوله (ولا تقبح): أي لا تسمعها المكروه ولا تشتمها ولا تقل قبحك الله ونحو ذلك.

---

(١) رواه الترمذي ٢/ ٢٠٤ وقال حديث حسن صحيح وابن ماجه ١٨٥١ وأحمد ٥/ ٧٢.

(٢) رواه أبو داود ١٦٩٢ وأحمد ٢/ ١٦٠ والحاكم ١/ ٤١٥ و٤/ ٥٠٠ وانظر «مجمع الزوائد» ٤/ ٣٢٥ و«مختصر المقاصد» ٧٤٨ وصحيح الجامع ٤٤٨١ وأخرجه مسلم ٩٩٦ بلفظ «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته» والنسائي في الكبرى ٥/ ٣٧٤.

(٣) أبو داود ٢١٤٢ وأحمد ٤/ ٤٤٦ و٤٤٧ و٥/ ٣ وابن ماجه ١٨٥٠ وانظر «موارد الظمآن» ١٢٨٦.

(٤) الترغيب والترهيب ٣/ ٨.

وقال ﷺ: «والكلمة الطيبة صدقة»[١].

وقال أيضاً: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق»[٢] والزوجة أجدر الناس بأن تعامل بمقتضى هذا التوجيه النبوي الكريم.

٣- كف الأذى من اللسان واليد: رأينا نهيه صلوات الله عليه عن ضرب الوجه وعن قول الهجر ونورد هنا إنكاره ﷺ على ناس قساة القلوب يعمدون إلى ضرب نسائهم ضرباً مبرحاً يقول: «يعمد أحدكم فيجلد امرأته جلد العبد!! فلعله يضاجعها من آخر يومه»[٣]. إنه ﷺ يستغرب كيف يجتمع مثل هذا اللون من المعاملة والاستمتاع!!

٤- بذل المعروف والمراعاة لطبيعة المرأة:

يقول ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج وإنّ أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وكسرها طلاقها، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج»[٤]. وقوله (كسرها طلاقها) من رواية مسلم. ويقول في خطبة الوداع: «استوصوا بالنساء خيراً فإنما هن عوان عندكم»[٥].

٥- النصح لها وأخذها بأحكام الشرع بالإقناع والتلطف والحسنى:

يقول تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه ١٣٢] ويقول عزّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. ويقول رسول الله

(١) البخاري المطبوع مع فتح الباري ٦/ ٨٥ ومسلم ١٠٠٩ ومختصر المقاصد ٧٥٥.

(٢) مسلم٢٦٢٦.

(٣) مسلم ٢٦٢٦.

(٤) البخاري (الفتح ٩/ ٢٥٣) برقم ٥١٨٦ ومسلم برقم ١٤٦٨.

(٥) الترمذي ٢/ ٢٠٤ وفي الطبعة الأخرى ٣/ برقم ١١٦٣ وابن ماجه برقم ١٨٥١ وأحمد ٥/ ٧٢.

ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[١].

٦- تحمّلها إذا أخطأت والاقتصاد في معاتبتها لا سيما في الأمور الهيّنة:

يقول ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائهم»[٢]. ويقول: «ولقد أطاف بآل بيت محمد نساء كثير يشكون أزواجهن ليس أولئك بخياركم»[٣].

٧- معاملتها بما يُحب أن تعامله به:

فقد روي عن ابن عباس أنه كان يستحب للرجل أن يتزين لها كما تتزين له. وإذا كان الإيثار رائد كل من الزوجين كانت حياتهما المشتركة نعيماً مقيماً.

* * *

وحسن العشرة - بالنسبة إلى الزوجة- يتمثل في الأمور الآتية:

١- الطاعة التامة فيما لا معصية فيه، واستئذانه في شؤونها حتى الصوم:

يقول ﷺ: «أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنة»[٤].

ويقول: «إذا صلت المرأة خمسها، وحصنت فرجها، وأطاعت بعلها دخلت من أي أبواب الجنة شاءت»[٥]. ويقول: «لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه ولا تأذن في بيته إلا بإذنه»[٦].

---

(١) انظر ص٣٦.

(٢) الترمذي ٢/ ٢٠٤ وأحمد ٢/ ٢٥٠ وانظر موارد الظمآن ١٣١١.

(٣) أبو داود ٢١٤٦ وابن ماجه ١٩٨٥ والمستدرك ٢/ ١٩١ وانظر موارد الظمآن ١٣١٦ وصحيح الجامع الصغير ٥١٣٧ والمستدرك ٢/ ١٩١.

(٤) الترمذي ٢/ ٢٠٤ وابن ماجه ١٨٥٤ والحاكم ٤/ ١٧٣ وانظر «الترغيب والترهيب» ٣/ ٩١.

(٥) موارد الظمآن ١٢٩٦ والمسند ومجمع الزوائد ٤/ ٣٠٥-٣٠٦ وانظر كلام الهيثمي في هذا الحديث. وانظر صحيح الجامع ٦٦٠.

(٦) البخاري برقم ٥١٩٥ (الفتح ٩/ ٢٩٥) ومسلم ١٠٢٦ وموارد الظمآن ١٣٠٩ الترغيب والترهيب ٢/ ٤٠.

٢- استجابتها له إن دعاها لما أحل الله له:

يقول ﷺ: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأته فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح»[١].

٣- طلاقة الوجه والكلمة الطيبة وحفظ سره وماله وعرضه:

وما قدمناه من الأدلة لهذا المعنى في حق الزوج وارد هنا في حق الزوجة، وأما مسؤوليتها عن ماله فيدل على ذلك قوله ﷺ: «والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها»[٢].

٤- تحمله إن أخطأ واسترضاؤه إن غضب:

يقول ﷺ: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»[٣]. وعن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ: أي الناس أعظم حقاً على المرأة؟ قال: «زوجها». قلت: فأي الناس أعظم حقاً على الرجل؟ قال: «أمه». رواه البزار والحاكم[٤].

وأخرج الحاكم قوله ﷺ: «فلتأته حتى ترضيه، فإن قبل منها فبها ونعمت، وقبل الله عذرها ولا إثم عليها، وإن هو لم يرض فقد أبلغت عند الله عذرها»[٥].

٥- الانتباه لأموره الخاصة من طعام وشراب ولباس وأن لا تأذن في بيته لمن لا يحب دخوله: يقول ﷺ: «فحقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن

---

(١) البخاري برقم ٥١٩٣ (الفتح ٩/ ٢٩٤) ومسلم ١٤٣٦ وأبو داود ٢١٤١.

(٢) انظر ص٣٦.

(٣) الترمذي ٢/ ٢٠٣-٢٠٤ وموارد الظمآن ١٢٩٠-١٢٩١ ومسند أحمد وابن ماجه ١٨٥٢-١٨٥٣ والمستدرك ٢/ ١٨٧ و١٨٩ وسنن البيهقي ٧/ ٢٩٢. ومجمع الزوائد ٤/ ٣١٠ و«الترغيب والترهيب» ٣/ ١٢ وصحيح الجامع الصغير ٥٢٩٤.

(٤) المستدرك ٤/ ١٥٠ ومجمع الزوائد ٤/ ٣٠٨.

(٥) المستدرك ٢/ ١٩٠ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: قلت: بل منكر وإسناده منقطع.

في بيوتكم لمن تكرهون»[١].

٦- كف الأذى:

يقول ﷺ: «لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله، فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا»[٢].

٧- تربية أولاده: وهي من أفضل أنواع العشرة الحسنة لأن المرأة راعية على أولاد زوجها كما قرر ذلك الحديث السابق.

(١) رواه الترمذي ٢/ ٢٠٤ وابن ماجه ١٨٥١ وأحمد ٥/ ٧٢ وانظر الترغيب ٣/ ٩.

(٢) رواه الترمذي ٢/ ٢٠٨ وابن ماجه ٢٠١٤ وأحمد ٥/ ٢٤٢ وانظر الترغيب ٣/ ١٣ وصحيح الجامع الصغير ٧١٩٢.

كلمة إلى العُرُس والعرائس[1]

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

إن هذه المودة والرحمة اللتين تقررهما الآية لا بد لتحقيقهما من اصطناع الأسباب التي تؤدي إليهما من الكلمة الحلوة، والبذل السخيّ، والعشرة اللطيفة، والسلوك الحسن، والفعل الطيب. وليس ذلك كائناً إلا بأن يتعاون الزوجان على فهم كل منهما للآخر، وبأن يخطو كل منهما الخطوة الإيجابية في طريق المحبة، ويبادل صاحبه العاطفة الكريمة بمثلها.

وهذا كلام يفيد الإخوة والأخوات من الأزواج سواءٌ أكانوا حديثي عهد بالزواج أم كانوا ممن مضى عليهم في هذه التجربة حين من الدهر. ولكنّ الكلام الآتي خاص بالزوجين في بدء حياتهما الزوجية السعيدة، ذلك لأن هذه المرحلة مرحلة خطيرة لها آثارها الضخمة على حياتهما المقبلة.

وقد يكون كثير من الشباب والشابات على معرفة يسيرة بحقيقة الحياة، وخبرة محدودة بعلائق الناس ومعاملتهم، فإلى هؤلاء أوجه هذه الكلمة لنعيش معهم في جوّ المودة والرحمة الذي يشع من الآية الكريمة.

أيها العرس والعرائس!

إنّ هناك أفكاراً مغلوطة تقوم في أذهان كثير من عامتنا رجالاً ونساءً، وهذه الأفكار الخاطئة ربما أودت بالحياة الهادئة السعيدة، والعيشة الراضية الرخيّة التي

(١) العرس للذكور والعرائس للإناث.

يتطلع إليها كل عروس[١]:

فمن ذلك ما يشيع عند نفر من العامة من أن العنف الشديد ينبغي أن يكون في الأيام الأولى للزواج.

ومن ذلك ما بدأنا نسمع به ونراه من التكلف الزائد والتصنع الواضح في أيام العرس وتحميل الإنسان نفسه من النفقات ما لا يطيق وإظهار نفسه على غير حقيقتها.

وهذا وذاك خطأ بيّن، وخطر ماحق يتهدد السعادة البيتية، ويقضي على الحياة الزوجية. يا أبنائي ويا بناتي إنّ المودة لا تهبط علينا هبوطاً، ولا تنبع من تحت أرجلنا نبعاً.. إننا إن لم نسع إليها ونأخذ بما يوصلنا إليها لم نبلغها...

فاستفيدوا يا أيها الأحبة من خبرة أهل العلم والتجربة التي توصلوا إليها بعد أن أمضوا عقوداً عديدة من السنين في دراسة مشكلات الناس ومحاولة التوفيق بين المختلفين منهم.

في كل بلدٍ تقوم أمثال شعبية تعبر عن آراء أهل ذاك البلد، وهذه الآراء منها الصحيح ومنها المغلوط، فمن الأمثال الشعبية الهدامة التي تهدد سعادة الأزواج بالانهيار مثلٌ يردده الناس في بلدنا وهو قولهم: (اقطع رأس القط في ليلة العرس) وهذا المثل مبني على أسطورة تدّعي أن رجلاً مقبلاً على الزواج أتى بقط وجعله في غرفة العروس، وخبأ تحت الوسادة سكيناً، فلما دخلت العروس أمسك بالسكين وعمد إلى القط فقطع رأسه، فراع دم الهر البريء المرأة الغريبة الوافدة، وجزعت أشد الجزع وأحسّت أنها إن خالفت أمر هذا الزوج الوحش ربما تعرّضت إلى عقوبة تقرب من عقوبة ذاك القط البريء... ولذلك فقد انقادت لزوجها انقياداً تاماً وأطاعته طاعة عمياء.

---

(١) يطلق على الذكر والأنثى.

إن هذه الفكرة الخاطئة توقع النفور بين الزوجين في وقت هما في أشد الحاجة إلى الألفة والمودة والانسجام... إن بدء الحياة الزوجية في جوّ يقوم على الإرهاب والدم والتهديد يذهب بكل إمكانات الوفاق في المستقبل، ويجعل الحياة إن استمرت قائمة على الخوف والحقد، والكراهية والكيد... إنّ الأيام الأولى في الزواج مرحلة من أدق المراحل في حياة الإنسان. نعم.. هناك ضرورة ماسة إلى أن يروض كل من الزوجين نفسه وصاحبه على الحياة الجديدة.. وقد تتداخل بعض المعاني في بعض عند كثير من الشباب فيقعون في أغلاط مدمرة.. إن ترويض العروسين نفسيهما وصاحبيهما على بعض العادات والأخلاق والأعراف ينبغي أن يكون مغموراً بندى المودة، وشذا المحبة، ونسيم التفاهم.. أما العصا والسوط والسكين والمعاندة والمخالفة فسلاح مفلول إن صلح لدى بعض الأمزجة المريضة النادرة فلن يصلح في أكثر الحالات. إن الزوج الناجح هو الذي يستطيع أن يمتلك قلب زوجته في الأيام الأولى، وإن الزوجة الناجحة هي التي تستطيع أن تحظى بإعجاب الزوج ومحبته في هاتيك الأيام السعيدة، ذلك لأن الإحسان يقود إلى الإحسان، وقيام مثل هذا الوضع من الطرفين يعينهما على إفراز المحبة والعطف والحنان والتقدير والاحترام. وعلى مرور الأيام كلما قامت عوامل جديدة ترتبط بين الزوجين نجد أن هذه المعاني قد زادت توثقاً ورسوخاً ونمت نمواً كبيراً.

ولو نظرنا يا سادتي في أحكام الشريعة السمحاء لوجدنا ما يؤيد هذا المنطق السليم ويدعمه. فلقد ندب الشارع الحكيم الزوج أن يقيم مع عروسه سبعة أيام إن كانت بكراً وألا يشرك معها غيرها.

روى البخاري ومسلم عن أنس أنه قال: "من السنة إذا تزوج الرجل البكر على

الثيب أقام عندها سبعاً وقسم، وإذا تزوج الثيب أقام عندها ثلاثاً ثم قسم"[١].

ولقد ندب إلى إقامة الوليمة وفي ذلك تطبيب لخاطرها وإشعار لها بالاهتمام البالغ لا سيما في الأزمان التي يكثر فيها الفقر وتشح فيها الموارد.

والناظر في سيرة النبي ﷺ مع أهله وأزواجه يعلم حقّ العلم أن الفكرة القائلة باستخدام العنف في الأيام الأولى أو في الحياة الزوجية مرفوضة رفضاً تاماً فرسول الله ﷺ يقول: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»[٢] وكان ﷺ يعنى بملاطفة أهله والتودد إليهن ومازحتهن.

والمروءة تقضي بذلك أيضاً، فهذه البنت الغريبة التي تركت أهلها، وجاءت إلى بيت لم تألفه، وإلى قرين لم يسبق لها به خلطة، جديرة بأن تكرم حتى تزول وحشتها، وتشعر أنها انقلبت إلى جو مفعم بالحب والحنان والمؤانسة والاحترام، يجب أن يشعرها الزوج الذي ارتضاها بأن تكون شريكة عمره وأم أولاده أن يشعرها أن بيت الزوجية ليس قفصاً ولا سجناً ولا أتوناً.. وإنما هو واحة عامرة بالودّ والنعيم وأنها في أفراح متواصلة لا في معارك ساخنة.

وعليها هي أيضاً أن تبادله هذه العواطف بمثلها، وتروّض نفسها على قبول الحياة الجديدة، ويتنازل كل منهما عن العادات التي كان يحياها فيما قبل الزواج. إنّ الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه. فالعنف من أحد الزوجين أو كليهما ينمي فيهما الحقد ويحملهما على العبوس الدائم، وقد يصيبهما ببعض الأمراض النفسية التي تسيء إليهما مدة حياتهما وإلى أولادهما من بعدهما،

---

(١) البخاري برقم ٥٢١٤ وانظر (الفتح ٩/ ٣١٤) ومسلم برقم ١٤٦١ والترمذي ٢/ ١٩٤ و«المشكاة» ٢/ ١٩٥ ولقد نقل صاحب «مطالب أولي النهى» ١/ ٧٠٥ عن ابن عقيل أنه يقول: إن العرس من أعذار ترك الجماعة. وفي ذلك نظر.

(٢) المسند ٢/ ٢٥٠ و٤٧٢ والمستدرك ١/ ٣ وموارد الظمآن ١٣١٢ و١٣١٥ وسنن البيهقي ٧/ ٤٦٨. وانظر الترمذي ٢/ ٢٠٤ وصحيح الجامع الصغير ٣٢٦٥ و٣٢٦٦ و٣٣١٤.

وقد يعرضهما إلى الجنون أو الإجرام، وقد تتقوض الحياة الوليدة وتنتهي إلى الفراق الفاجع.

وكذلك فإن التكلف الزائد، وإرهاق المرء نفسه بالنفقات في أيام العرس لون من الخداع يكون أثره سيئاً على الحياة الزوجية، وحماقة تؤذي مصلحة الأسرة الجديدة.

أيها السادة:

لنتق الله في بيوتنا، ولنتخلق بالأخلاق الإسلامية، ولنلق وراء ظهورنا كل العادات السخيفة البالية والمستحدثة، ولنستمسك بما جاء في ديننا ففيه - والله- السعادة الحقيقية. ولنسع إلى المودة والرحمة باتخاذ أسبابهما لعلنا نوفق إلى إقامة الأسر المتراحمة المتوادة التي تحتاج إليها أمتنا في نهضتها المقبلة إن شاء الله.

وصايا للزوجين

قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩] وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] ولتتحقق هذه المعاشرة، وتكون هذه المودة والرحمة، يجب على الزوجين التزام حدود الشرع المطهّر وامتثال أوامره ووصاياه.

ومن أهم المراحل التي ينبغي الاهتمام بها الأيام الأولى في الحياة الزوجية.

وأحب أن أتقدم ببعض النصائح لمن يمرّ بهذه المرحلة.

وهذا الموضوع من الموضوعات التي حظيت في الماضي باهتمام الحكماء والآباء من أولي البيان، فترى في كتب الأدب كثيراً من الوصايا توجه إلى البنات في ليلة زفاف الواحدة منهن.

ويخيّل إليّ أنّ جيلنا - ولا سيما الدعاة- لا يُعير هذا الموضوع مثل ما كان يعيره المتقدمون، مع أن البيت المسلم اليوم مستهدف أكثر من أي وقت مضى. فأعداء الإسلام يعلمون حق العلم أنّ الاستيلاء على الأسر لا يتم إلّا بتهديم المعاني الإسلامية التي تقوم فيها بحكم الاستمرار.

ومن أجل ذلك فأنا موجه هذه النصائح لكل عروسين يشرعان الآن في بناء الأسرة الفاضلة، ويقيمان اللبنة الأساسية في المجتمع.

عسى أن يتحقق بتنفيذ هذه الوصايا السكن، وتكون المودة والرحمة، وتسود المعاشرة بالمعروف جوّ البيت، ليؤدي مهمته في إمداد الأمة بالأفراد الصالحين والأبطال العاملين.

سأتحدث عن بعض الوصايا وأرى أنها ثلاثة أنواع. فهناك وصايا مشتركة توجه إلى الزوجين، وهناك وصايا خاصة بالزوج، وهناك وصايا خاصة بالزوجة.

١ - الوصايا المشتركة:

أيها العرس والعرائس:

إن عليكم أن تعرفوا أهمية الحقبة الأولى في حياتكم الزوجية.. إنّ هذه الحقبة تمثّل بداية الخط في السير على طريق العمر. وبداية الخط لها أهمية وأية أهمية.. فالغلط اليسير في هذه المرحلة يبدد المصالح الكبرى من هذه المسيرة.

إن انحراف الخط عن الجادة يكون في أول أمره يسيراً ولكنه لا يلبث أن يكون الانحراف كبيراً وخطيراً. إن الغلط في اختيار القطار المطلوب يحملك إلى جهة أخرى لا تقصدها، وربما كانت الأخطار والمتاعب تنتظرك في هذه الجهة وتفوت عليك قصدك.. وربما حملك إلى بلد لا تعرف أحداً فيه، ولا تعرف لغته وعاداته وطرقاته؛ وربما كنت لا تحمل من المال ما يعيدك إلى مكانك ولا تعرف من يقرضك.

إذن فعليكم يا أبنائي ويا بناتي أن تهتموا بهذه المرحلة الدقيقة الحساسة وألّا تتهاونوا فيها، وفي الاهتمام بجزئياتها وكلياتها على الوجه الذي يصون لكم الحياة المشتركة التي قررتم التعاون على إقامتها، امزجوا العاطفة المشبوبة التي تحيط بكم وأنتم عروسان بنزعة العقل والتفكير وتحكيم المصلحة.

فكلّ نار مهما كانت شديدة الضرام لا بدّ أن تخبو، فلا تحسبوا أنّ هذه العواطف المضطرمة الملتهبة التي تعيشون في دفئها وحرارتها باقية على هذا الالتهاب والضرام. فاحذروا أن تغمضوا أعينكم عن واقع الحياة ودوافع المصالح ورعاية المستقبل.

نعم.. إن العاطفة أمر عظيم في الحياة الزوجية، ولا أهوّن من شأنها ولا سيما في مرحلة العرس.. ولكنّ الخطر في طغيان العواطف على حكم العقل.. والمقياس الذي ينبغي تحكيمه والرجوع إليه هو الشرع المطهر الذي أنزله الله لتقوم عليه حياتنا بالقسط.

ويوضح هذا الكلام المجرّد المثال الآتي، وما أكثر الأمثلة التي توضح هذا المعنى:

إن كلاً من الزوجين يعيش قبل الزواج في أحلام السعادة والمسرة، والرؤى المترعة بالأماني المحققة، وينتظر اللحظة السعيدة المرتقبة التي يتاح له فيها أن يلقى زوجه... فقد تحمل هذه العواطف المضطرمة الزوج على أن يبالغ في الإنفاق في الحقبة الأولى مبالغة تفوق طاقته.. فلا يصحو إلّا ومطارق الديون والمطالب المادية المتلاحقة فوق رأسه.. وهو عندئذ بين أمرين كلاهما مرّ: فإما أن يغير ما عوّد عليه أهله، وهذا صعب عليهما، وإما أن يستمر في هذا الإنفاق الذي لا يقوى عليه إلا بالاستدانة أو المال الحرام!! وهذا أشد صعوبة على الطرفين، لأن آثاره تتجاوز الدنيا إلى يوم القيامة.

وقد كان يستطيع أن يتفادى ذلك كله لو أنه مزج العاطفة المشبوبة بشيء من التعقّل والاحتكام إلى المصلحة.

ولا يعني كلامي هذا أن يعمد الزوج في أيام العرس إلى البخل والتقتير وحرمان عروسه من كل ألوان المتعة.

لا.. إن هذا تنفير وتدمير وإساءة.

إنه تنفير للزوجة من زوجها الذي قد تصوره تصرفاته لها شحيحاً بخيلاً، وإنه تدمير لمستقبل الحياة الزوجية التي ستتعرض من جراء ذلك إلى النكد المستمر أو الانفصال المحقق.

وإنه إساءة إلى نفسه وصاحبته وإلى كل المعاني الكريمة التي سعى الدين إلى أن تقوم في الزواج.

وما أروع توجيه القرآن في الإنفاق: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء ٢٦-٢٧] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

ومن الحكمة إعطاء كل مناسبة حظها، فللحياة اليومية تقدير، وللمناسب التي لا تتكرر تقدير. إن زيادة الإنفاق مطلوبة في الأفراح والمناسبات ولكن بشرط أن تكون ضمن الطاقة.

هذا مثل من الأمثلة التي تؤكد خطورة المرحلة الأولى في مسيرة الحياة الزوجية.

إن من أهم ما يوصي به الزوجان لتتحقق المعاشرة الكريمة بالمعروف وليتوافر السكن ولتكون المودة بينهما مراعاة احترام كل منهما للآخر.

وهذا أمر عظيم التأثير على الحياة الزوجية، ترتبط به السعادة والمسرة وجوداً وعدماً. وهذا الأمر - أي احترام كل منهما للآخر- كثيراً ما يضيعه الأزواج والزوجات، بسبب غلط في فهم إزالة الكلفة. نعم.. لا يعقل أن تبقى الكلفة بين الزوجين ولكن إزالتها لا تتعارض مع الاحترام المتبادل بينهما.

إن التفريق بين الأمرين مما يصعب تحقيقه في كثير من الأحيان ويقع الناس فيه بين الإفراط والتفريط.

إنّ إزالة الكلفة التي ينبغي أن تكون بين الزوجين يفهمها بعض الناس على نحو مغلوط. يفهمونها تطاول أحد الزوجين على صاحبه عن طريق المزاح.. لا يا سادتي لا يجوز أن يكون تصرف من تصرفات أحد الزوجين قائماً على التطاول أو النيل من الآخر أو الإساءة إلى كرامته، ولو اكتست هذه التصرفات ثوب المزاح.

لا تقل يا أخي: هذه زوجة!! ولا داعي إلى مثل هذه الاحترام.

إن الطعنة التي توجهها إليها تبقى جرحاً في قلبها ينزف ضغناً وحقداً، وربما أوجدت هذه الطعنة نفرة تودي بكل أسباب سعادتك في حياتك كلها.

إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا

إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١] ولنقف قليلاً عند قوله ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ فالزوجة إنسان كريم، والمماثلة قائمة بينها وبين الزوج، وللرجل درجة القوامة على المرأة ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨] إن على كل من الزوجين أن يحترم رأي الآخر، وليكن النقاش المبلل بندى العاطفة السبيل الذي يرجع إليه.. ومن الخير ألا يطول النقاش.. وألّا يصل إلى حد المراء.. ومن الخير أن يتنازل واحد منهما مرة عن رأيه للآخر لا سيما عندما يبدو له رجاحة الرأي المقابل ما دامت الآراء كلها في حدود دائرة الشرع الحنيف، ولا يمنّ عليه في هذا التنازل.

بل ليتنازل عن رأيه حتى ولو كان هو الأصوب ما دام لا يخالف أحكام دين الله إن النقاش الموضوعي المصقول بندى المودة والمحبة يتغلب على كل المصاعب، ومن الخطورة بمكان كبير أن يتحول هذا النقاش إلى جدال ومراء، إنه عندئذ يتحول إلى معول هدام يخرب ويدمر الحياة الزوجية السعيدة.

***

هناك أمور عديدة في الحياة ليس من الحكمة الإصرار عليها، وتعريض السعادة البيتية إلى الدمار من أجلها، وهي لا تقدم ولا تؤخر. وليس يعني هذا الكلام أن يكون أحد الزوجين دائماً هو الذي يتنازل عن رأيه.. إن الاحترام المتبادل يجعل الحرص على المودة المشتركة أغلى على المرء من رأي هين في أمر من أمور الحياة التافهة وما أكثرها في حياة الناس.

إنّ وضع هذا الكرسي في هذا المكان أنسب من وضعه في مكان آخر. إنّ ذلك أمر هين لا يستحق أن يختلف الزوجان من أجله. وهناك أمثلة كثيرة من مثل هذه الأمور التافهة التي لا يجوز بحال من الأحوال أن تكون سبباً لضعضعة بنيان السعادة والمودة والسكن.

ومما يتصل باحترام كل منهما لصاحبه احترام كل من الزوجين لأهل صاحبه.

عليك يا أخي أن تحترم أهل زوجتك.

وعليك يا أختي أن تحترمي أهل زوجك.

وليحذر كل منكما من أن يتصرف نحو أهل زوجه تصرفاً لا يرضاه لأهله. والصبر خلق كريم من يتحل به يفز في الدنيا، ولثواب الآخرة أعظم وأبقى.

لا تنسي أيتها الزوجة الفاضلة - وأنت في الأيام الأولى في حياتك الزوجية- لا تنسي أن هذه المرأة التي قد تشعرين أنها منافسة لك في زوجك هي أم هذا الزوج... وأنه لا يستطيع مهما تبلد فيه إحساس البر أن يقبل إهانة توجه إليها... إنها أمه.. حملته في بطنها تسعة أشهر وأمدته بالغذاء من لبنها ووقفت على الاهتمام به حياتها حتى أصبح رجلاً سوياً.

هل تقبلين أن يوجه أحد لأمك إهانة؟ استحضري هذه المعاني وأنت تتعاملين مع أهل الزوج الحبيب. واعلمي أن تفريطك في احترامهم تفريط في احترام الزوج... وإن لم يقابل موقفك السيئ أول مرة بشيء فلن يكون حبه لك سالماً من الخدش والنقص.

إن الروابط بين الإنسان وأهله والعلاقات بينه وبينهم لا يمكن أن تنزع بحال من الأحوال. فلماذا هذه الأنانية من أحد الزوجين التي تجعل المرء يتمنى أن تقطع هذه الروابط والعلاقات ويُجعل الآخر في علاقاته هو ورابطته؟؟

وأنا أعلم أن للأهل - من الطرفين- في كثير من الأحيان تدخلات مسيئة وتصرفات غير مقبولة، وهي غير مقصودة غالباً. فلا يجوز أن يكون الغلط سبباً لغلط آخر في عدم الاحترام.

إن هذه التدخلات يمكن أن تعالج بالسكنى المنفردة، وبأن لا يدخل الزوجان أحداً من أهليهما بمشكلاتهما الخاصة، وأن يتوليا حلها بروح المودة والرحمة.

إن الرجل الذي يحب أهله ويبر والديه إنسان فاضل، فلا تتضايقي بذلك يا أختي، واعلمي أن عقوق الزوج لوالديه دمار عليك وعلى أولادك، لأن العقوق من

المعاصي التي تعجل عقوبتها في الدنيا. وإن المرأة التي تحبّ أهلها امرأة فيها خير فلا تتضايق بذلك يا أخي واعلم أن التي تعق أمها وأباها لا خير فيها. إن احترام أحد الزوجين لأهل صاحبه على الرغم مما يمكن أن يلقى من تدخلاتهم يزيد في المحبة.

***

٢- وصايا للزوج:

ذكرت فيما سبق وصايا تصلح أن توجه لكل من الزوجين في أيام زواجهما الأولى. وأودّ أن أخص الزوج الرجل ببعض النصائح الخاصة به، سائلاً الله له التوفيق فيما يرضيه.

١- إن أهمّ ما يطلب منك أن تعرف دورك ومهمتك والغاية من الزواج. إنك يا أخي ويا ولدي كنت فيما مضى مسؤولاً عن نفسك فحسب، هكذا كنت قبل الزواج، أما الآن فقد أصبحت مسؤولاً عن أسرة؛ وكل راعٍ مسؤول عن رعيته.

إن دورك هو الدور الرئيسي في الأسرة: هذه اللبنة الاجتماعية التي يقوم منها ومن نظيراتها بناء المجتمع.

وإن الغاية من الزواج هو أن تُعِفَّ نفسك، وتَسْعَدَ مع حليلتك، وتنجب للدنيا ناساً صالحين، يتابعون حمل رسالة الإسلام العظيم التي أكرمك الله بها.

إنّ معرفتك لدورك، ومهمتك، والغاية من زواجك، تعينك على إحكام تصرفاتك وتوظيفها للمصلحة الاجتماعية الرشيدة.

٢- ومن الأمور المهمة التي ينبغي أن تعرفها يا عزيزي الزوج الجديد أنه لا بد من أن تغضي عن أمور كثيرة... إنك لن تستطيع أن تجد في زوجتك كل ما تريد، كما أنها هي لن تجد فيك كل ما كانت تريد.

فلا تتعقب المسائل: صغيرها وكبيرها، ولا تعاتب في كل الأمور، وانظر إلى الأدب القرآني الذي تشير إليه الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ

﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣].

وقال الشاعر:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك، لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحداً أو صل أخاك فإنه مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه
ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تعدّ معايبه

إن الإنسان لا يستطيع أن يتخلص من كثير من العيوب التي فيه، فكيف نريد من الآخرين أن يكونوا كما نريد ونحن عاجزون أن نكون نحن كما نريد؟

ولا يعني هذا الكلام أن تتساهل في الأمور الهامة من نحو القيام بالواجبات الدينية، أو رعاية الأخلاق الإسلامية والتزام ما تقضي به الصيانة والعفة.. والعياذ بالله.. لا فهذه أمور ينبغي أن تضعها في رأس الشروط التي لا تقبل التنازل عنها بحال من الأحوال.

٣- لا تنقل هموم عملك إلى بيتك. واعزم على أن تتخفف من كل المشكلات والمزعجات قبل أن تدخل إلى بيتك، فإذا جئت إلى البيت فضع كل أعباء عملك ومتاعبه على الباب الخارجي.. وادخل بقلب خالص. صحيح أن نسيان الأمور المؤلمة صعب.. ولكن تعوّد على تناسي هذه الأمور ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

٤- احرص يا أخي على أن تكون الكلمة الحلوة على لسانك، والابتسامة الجميلة على ثغرك دائماً.

لا تتركها مهما كانت الظروف. فإنّ كثيراً من الناس يحيون حياة سعيدة بهذه الكلمة الطيبة، وتلك الابتسامة الرقيقة. واعلم يا أخي أن الكلمة القاسية النابية، والعبوس المكفهر لا يغير ما تكره، ولئن حسب بعض الناس لكلمتك وعبوسك حساباً في يوم من الأيام إنهم لن يحسبوا لها مثل ذلك في الأيام المقبلة إذا تكرر ذلك

منك.

إن الكلمة الطيبة صدقة.. وإن الابتسامة لون من المعروف كما قال ذلك سيدنا رسول الله ﷺ: «والكلمة الطيبة صدقة»[١] وقال: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[٢].

ومن أحق من الزوجة بهذه الصدقة وذاك المعروف؟

نعم.. ما أجدرنا أن نعوّد ألسنتنا على الكلام الطيب في أول حياتنا الزوجية، ومما يتصل بالكلمة الطيبة طريقة إلقائها، فقد تزيد هذه الطريقة - إن كانت حلوة عذبة- من تأثيرها، وما أجدرنا أن نعوّد عضلات وجوهنا الابتسامة التي تبسط أكثر المسائل تركيباً وتعقيداً، وتمنحنا قوة في التغلب على كل المصاعب.

وقد أعجبني كلام سمعته من أستاذ من أساتذتي قاله لشاب يعظه، ولم أنسه أبداً. قال له: "إذا أردت أن تعرف ما يفعله العبوس فانظر وجهك في المرآة عندما تكون غضبان عابساً.. انظر وجهك كم هو منفر وقبيح!!

وانظر كم يجلب مثل هذا الوجه على صاحبه من السخط والأذى".

أيها الزوج العروس:

٥- لا تنشغل طويلاً عن أهلك. واعلم يا أخي أن الجلوس إلى عروسك ومحادثتها ليس وقتاً ضائعاً، لا سيما إن كانت المحادثة تسير في طريق هادف وتسعى نحو قصد محدود. إنّك بذلك تفهم زوجك، وتتيح لها أيضاً أن تفهمك. وهذا الفهم هو الخطوة الأولى للمعاشرة الحسنة، وكم رأينا في واقع الناس أزواجاً يقضون العشر والعشرين من السنين ولا يفهم أحدهما الآخر... وكان ذلك سبباً من أسباب النكد والشقاق.

إنك يا أخي بجلوسك إلى أهلك ومحادثتك تتيح لنفسك المجال لتقنعها بكثير

(١) انظر تخريجه ص٩٠.

(٢) انظر تخريجه ص٩٠.

من آرائك التي كانت تبدو غريبة عليها بادئ الأمر، والكلام أول مرة لا يترك الأثر المطلوب، ولا يلمس الإنسان نتيجته، ولكن حسن اختيار الوقت المناسب، والأسلوب المناسب في عرض الفكرة وضرب الأمثلة الكثيرة لا بد من أن يترك أثراً كبيراً في الإنسان.

إنّ الحديث الطويل الهادف غير الممل، والمؤانسة المهذبة الممتعة يمدان الحياة الزوجية بالقوة والنماء وأفضل الغذاء. واذكر يا أخي قصة أبي الدرداء مع سلمان رضي الله عنهما.

روى البخاري رحمه الله عن وهب بن عبد الله رضي الله عنه قال:

آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء. فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء مبتذلة (أي لابسة ثياب المهنة تاركة ثياب الزينة) فقال:

- ما شأنك؟

قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. [أي في النساء. وجاء في رواية الدارقطني: (في نساء الدنيا) وزاد في رواية ابن خزيمة: (يصوم النهار ويقوم الليل)].

فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً.

فقال له: كل، فإني صائم.

قال: ما أنا بآكل حتى تأكل. فأكل. فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم.

فقال له سلمان: نم. فنام. ثم ذهب يقوم. فقال له: نم. فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن. فصليا جميعاً.

فقال له سلمان:

"إن لربك عليك حقاً. وإن لنفسك عليك حقاً. وإن لأهلك عليك حقاً. فأعط كل ذي حق حقه".

فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال النبي ﷺ: «صدق سلمان»[1].

نعم إن لأهلك عليك حقاً. فللأهل حق، ولله حق، وللنفس حق، والمسلم مطالب أن يعطي كل ذي حق حقه. إنّ الموازنة بين هذه الحقوق أمر مطلوب، ولا يقوى عليه إلّا الواعون. والتفريط في هذه الموازنة تفريط في الحياة المتكاملة.

* هناك ناس يشغلون عن زوجاتهم بكسب المال، فترى الواحد منهم يكدح طوال النهار وطرفاً من الليل، ولا يعود إلى داره إلّا مكدود الجسم، مهدود القوى، قد استنفذ طاقته حتى لم يعد لديه استعداد لحديث ولا مؤانسة.. فيخلد إلى الفراش منهاراً مضعضعاً.. وقد يأتي فيجد أهله في نوم عميق بعد أن طال عليها الانتظار.

قد يكسب من وراء هذا السلوك المال.. ولكنه يعرض نفسه لخسران الحياة الزوجية.

* وهناك ناس يشغلون عن زوجاتهم بمعاشرة الأصدقاء، وحضور الحفلات والسهرات، والاشتراك في الرحلات. فترى الواحد منهم بعيداً عن بيته وأهله في معظم الأوقات.. وإن لم يذهب من الدار جاء هؤلاء الأصدقاء إليه وكان مكلفاً بقراهم وخدمتهم، وهو بطبيعة الحال سيدعو زوجته إلى إعداد ما سيقدم إلى ضيوفه من أنواع الطعام والشراب.

إن هذا الإنسان قد يكسب ودّ عدد من الأصدقاء، وقد يكسب سمعة اجتماعية جيدة ولكنه يعرّض نفسه إلى خسران السعادة البيتية.

* وهناك ناس يشغلون عن زوجاتهم بأمور محمودة كما شغل أبو الدرداء عن زوجته فتراهم في ذكر وعبادة، ونصح للناس ودعوة، وقراءة وكتابة.

---

(١) البخاري ٣/ ٣٤ (الفتح ٤/ ٢٠٩) و«سنن الدارقطني» ٢/ ١٧٦ و«صحيح ابن خزيمة» ٣/ ٣٠٩ برقم ٢١٤٤ و«الترمذي» ٣/ ٢٨٩-٢٩٠.

أقول: وقريب منه حديث عبد الله بن عمرو المتفق عليه انظره في «صحيح البخاري» ٣/ ٣٥ وصحيح مسلم برقم ١١٥٩.

إنّ هؤلاء فقدوا القدرة على الموازنة بين الحقوق المتعددة، وفقدان القدرة على هذه الموازنة يورث خللاً واضطراباً في الحياة الداخلية للفرد منهم. في حياته مع زوجه وأولاده. إن الأهل والذرية من أحق الناس بالعناية وبأن توجه الدعوة إليهم.

إن الواحد من هؤلاء الذين فقدوا القدرة على تلك الموازنة لا يلبث أن يستيقظ من غفلته، فإذا هو في واد، وزوجته وأولاده في واد آخر. أفكاره غير أفكارهم، ومواقفه تختلف عن مواقفهم، وسلوكه في الحياة بعيد عن سلوكهم؛ ذلك لأنه ترك أهله خاضعين لمؤثرات أخرى من وسائل الإعلام والصحافة ومن البيئة التي قد يسود فيها الانحراف، وترك أهله وأولاده يقيمون علاقات اجتماعية بالأقارب والجيران. وربما كان كثير منها لا يتفق مع اتجاهه في الحياة.

ومن أصعب الأمور على النفس أن يرى المرء زوجه وأولاده يسيرون في طريق الزيغ والانحراف والضلال.

إن هؤلاء الذين يشغلون عن أهليهم يجنون بعد حين الصاب والعلقم، ويتجرعون غصص العناء والشقاء. والحياة اليوم معقدة الجوانب، مترعة بأسباب التأثير.

أعرف رجلاً متديناً انصرف في أول حياته الزوجية إلى عمله فجد واجتهد، وكان لا يأتي إلى داره إلا للطعام والنوم، ثم يخرج ولا يعود إلا بعد منتصف الليل، فإذا جاءت الإجازة ترك زوجته مع أهلها وسافر إلى البلاد الأجنبية في تحقيق أمور تتصل بعمله.. فكان من جراء ذلك تدمير الأسرة وتشرد الأولاد وعانى هو من وراء ذلك أعظم الصعوبات.

إن الانشغال عن الأهل تفريط في حق الرجل والأسرة، هو ظلم بيّن، إذ كيف يسوغ للإنسان أن يحبس زوجه وينطلق هو في عمله وزياراته وقراءته وكتابته وعبادته، ويترك شريكة حياته نهباً للوساوس والخطرات، والوحشة والأزمات، أو

يتركها للانغماس في المجتمع الذي يسير في طريق آخر.

فاتق الله يا أخي ووازن بين الحقوق، ومنها حق الأهل، وليكن لك مع أهلك وقت تملؤه بالمؤانسة العذبة الهادفة والحديث المؤثر الجذاب. وفقك الله ورعاك.

***

٣- وصايا للزوجة:

سبق أن ذكرت بعض الوصايا للزوج العروس، وها أنذا أسوق وصايا خاصة بالزوجة العروس: أسأل الله أن ينفع بها وأن يجعلنا جميعاً ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

١- إن من أهم ما تذكّر به الزوجة العروس التزام أحكام الشرع، وتقوى الله في معاملة زوجها ومن يتصل به من الناس. فذلك يشمل الخير كله ويحقق السعادة الكاملة.

٢- احرصي يا عزيزتي على أن يجد زوجك بيتك روضة غناء في نظافته وترتيبه، فالبيت مملكتك التي تنتظر إبداعك واهتمامك. والنظافة والترتيب يجعلان من الأثاث المتواضع والأمتعة اليسيرة شيئاً رائعاً، فكيف الأمر إذا كان الأثاث ثميناً؟

وتذكري أيتها الأخت أن اليوم الذي يقضيه الرجل مملوء بمنغصات العمل وبما يثير الضيق والتبرم، فاحذري أن يجد عندك ما يسوءه من أوساخ أو بعثرة للأغراض والملابس، أو روائح كريهة. والنظافة من الإيمان، بل هي شطر الإيمان كما يقول سيدنا رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان»[1].

وقد تتيح لك الأوضاع المادية الحسنة أن تقتني أدوات التنظيف الحديثة من الغسالة والجلاية والكناسة الكهربائيات، فلا يحملنك وجودها على تجميع الملابس والصحون، وتأخير التنظيف بحجة أن هذه الأداة تنجز المطلوب بسرعة.. فقد

(١) صحيح مسلم ٢٢٣ والترمذي ٤/ ٢٦٤ والترغيب والترهيب ١/ ٨٩.

يكون هذا مما يورث البيت تشويشاً ويفسد أحواله. وذلك كأن تعمد المرأة الكسول إلى إلقاء ما يتسخ من الثياب في مكان، واستعمال الألبسة الجديدة والنظيفة، حتى لا يبقى منها شيء، ويتجمع بذلك عليها غسيل كثير. وقل مثل ذلك في الأدوات التي تستعمل في الطعام.. إذ تتحول كثرة الملابس والأواني إلى عبء ومشكلة.

إن تنظيف ما يتسخ من ثوب أو وعاء على الفور يوفر لك وقتك ويتيح لك الإفادة من أمتعتك.

٣- وعليك بتنظيم وقتك فالتنظيم دعامة الحياة السعيدة، إنك لو خصصت لكل عمل جزءاً من الوقت لم يتعبك العمل ولم تشعري بالملل. وخدمة المرأة في بيتها شرف ورياضة ومتعة. وهكذا كان نساء السلف الصالح من أمثال فاطمة رضي الله عنها وأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها وغيرهما.

٤- واحرصي على ما يرضيه في مطعمه، وعلى ما يبرز نظافته وأناقته في ملبسه. فاعرفي ما يحب من الطعام فأعديه.. وينبغي أن يكون إعداده في وقت مبكر.. حتى إذا جاء الزوج وجد الطعام جاهزاً.. فتأخير ذلك ربما يؤذيه ويفسد عليه عمله ومواعيده.. إن هذه الأمور تبدو هينة يسيرة ولكن التهاون فيها قد يجعل منها مشكلة، وينبغي أن تهتمي بملابسه التي يظهر فيها أمام الناس.. وعليك أن تتفقديها فتصلحي ما تستطيعين إصلاحه. وعليك أن تذكريه بتغيير ملابسه عند اللزوم، فقد تلهيه أعماله عن ذلك.

٥- قابليه في كل حين بالابتسامة العذبة ولا سيما عندما يعود من عمله متعباً مرهقاً. إن هذه الابتسامة تزيد من جمالك وإشراقك، وهي سبيل السعادة المشتركة.

٦- آثري رضاه على رضاك، واعلمي أن مسايرتك له ليس عدواناً على شخصيتك، ولكنه عربون المحبة والوفاء، وسيقابلك هو - بكل تأكيد - بالمثل، والله يقول: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]. والبيت الذي يسوده الشقاق والخصام والشجار والصياح أتون أول من يحترق فيه الزوجة.

٧- أطيعيه فيما لا معصية فيه، فالطاعة بالمعروف واجب شرعي على الزوجة، جعل الله ثوابه الجنة يقول ﷺ: «إذا صلت المرأة خمسها وحصنت فرجها، وأطاعت بعلها، دخلت من أي أبواب الجنة شاءت»[1].

والطاعة تابعة لقوامة لرجل التي قررها ربنا في كتابه ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤]. فإذا كانت إدارة البيت ورئاسته له فالطاعة نتيجة طبيعية.. إن رؤساء الشركات والمؤسسات والجامعات والمدارس يأمرون مرؤوسيهم بأوامر لمصلحة هذه المؤسسات، ولا بد لمن كانوا يعملون معهم من الطاعة وإلا فسدت الأمور وضاعت المصالح، ولا يشعر المرؤوسون بأي غضاضة في طاعة هؤلاء الرؤساء.

إن طاعتك لزوجك تحقق لك ثواب الله وجزاءه، وتوجد بينكما المحبة وترسخ الود، وتهيء لك الجو لتتحقق مطالبك التي تتوقف على رضى الزوج، وتساعدك على أن يطيعك أولادك، ذلك لأن المرأة الشريرة التي تعصي زوجها في كل ما يأمرها به ويرى ذلك أولادها منها ينشؤون على معصية الأوامر، فلا يستجيبون لآمر في البيت. أماً كان أو أباً.

والطاعة في الإسلام ليست طاعة عمياء.. لا.. بل هي طاعة في حدود المعروف، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق إنها طاعة محدودة بأحكام الشرع المطهر، وبحدود الطاقة، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

إن المرأة المسلمة عندما تطيع زوجها تكون في طاعة الله وهي بذلك مأجورة، ولا سيما عندما تكون الطاعة فيما لا توافق عليه. بل إن الطاعة لتتجلى في طاعته فيما تكره أكثر مما تتجلى في طاعته فيما تحب. إن طاعته في قبول الجواهر النفيسة ليست كطاعته في تنفيذ أمر لا تريده. وكمال الطاعة يتحقق في أن تؤدي الأمر بكل سرور ورضى،

---

(١) انظر صفحة ٩١.

أما إذا أدته متبرمة متأففة، يعلو وجهها العبوس وأمارات الكراهية والضيق، فإن هذه الطاعة كعدمها.

إن إظهارها الرضى والسرور وإشعار نفسها وزوجها بالقناعة مما يخفف عليها تنفيذ ما تكره. فاحذري أيتها العروس الفاضلة من أن تكوني من أولئك النساء المولعات بمخالفة أزواجهن، فلا تؤمر الواحدة منهن بشيء إلا سارعت إلى مخالفته حتى ولو كان في مصلحتها، فهؤلاء يقعن في سخط الله، ويعرضن حياتهن للدمار، وتدعو عليهن الحور العين.

عن معاذ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تؤذي امرأة زوجها إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا»[1].

إن الإصرار على مخالفته يوغر صدره، ويجرح كرامته، ويسيء إلى قوامته، فيبادلك ذلك ممانعة لما تحبين ومخالفة لما ترغبين.

عن أبي أوفى قال: لما قدم معاذ بن جبل من الشام قال: يا رسول الله قدمت الشام فوجدتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم فأردت أن أفعل ذلك بك. قال: «فلا تفعل فإني لو أمرت شيئاً أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها. والذي نفسي بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها»[2].

وقد فصلت القول بعض التفصيل في الطاعة لأن أفكاراً وافدة دخيلة علينا تسود في أوساط معينة من نحو قولهن: "إن في الطاعة غضاضة على المرأة وانتقاصاً لها" ومن نحو قولهن للعرائس: "لا تعوديه على إصدار الأوامر، وذلك بأن لا تطيعي أمره" إن ذلك كله هراء وباطل، فاربأي بنفسك يا أيتها الأخت الكريمة عن

(١) انظر تخريجه ص٩٣.

(٢) انظر تخريجه ص٩٢.

هذا المستوى المنحدر، واعلمي أن حق الله أحق أن يؤدى، وأن طاعة الزوجة لزوجها فيما لا معصية فيه سبب في استقرار الحياة الزوجية وسيادة التفاهم البناء.

وهذه كلمة إلى الزوجات المتدينات:

أيتها الأخت الكريمة ارفقي بزوجك المتدين فلا تجمعي عليه النكد والشقاء في البيت مع ما يلقى من أعداء الله في خارج البيت. واعلمي أن طاعتك لزوجك تعدل الجهاد في سبيل الله فهناك حديث غير قوي ولكن معناه صحيح، فيه أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله أنا وافدة النساء إليك. هذا الجهاد كتبه الله على الرجال فإن يصيبوا أجروا وإن قتلوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون. ونحن معاشر النساء نقوم عليهم فما لنا من ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ: «أبلغي من لقيت من النساء أن طاعة الزوج واعترافاً بحقه يعدل ذلك وقليل منكن من يفعله»[1].

إن هذه الصفات المهمة لها دورها الفعال في تحقيق المودة بين الزوجين وإقامة دعائم السعادة والسكن..

أيتها العروس الفاضلة:

٨- ينبغي أن تشعري زوجك أنه لا فرق بينك وبينه من الناحية المادية، وإياك أن تظهري الطمع في ماله، واحرصي على أن تتعففي إن أعطاك، فإذا قبلت هديته فاشكريه، إن ذلك مما يرفع قدرك في نفسه. ولا تكثري عليه بالمطالب التي تفوق إمكاناته، فذلك يزعجه ويؤلمه، لأنه لا يستطيع أن يحقق هذه المطالب ويعز عليه أن يظهر أمام زوجته بمظهر العاجز الذي لا يملك تنفيذ ما تطلب. واعلمي أن ذلك إذا تكرر منك يؤذيك أعظم الإيذاء. ليست الحياة الزوجية ميدان صراع ولا مجال نهب واكتساب.. بل هي تعاون على إنشاء بيت سعيد آمن مطمئن. حاولي - إذا خصك بشيء- أن تذكريه بأن يخص نفسه أيضاً بما تعلمين حاجته إليه، ولا تكن

(١) الترغيب والترهيب ٣/ ١٠. وانظر «مجمع الزوائد» ٤/ ٣٠٥ فقد ذكر أن في سنده رشدين بن كريب وهو ضعيف وانظر في رشدين كتاب الضعفاء والمتروكين للدارقطني. بتحقيقنا رقم ٢٢١.

الأنانية مستولية عليك إذا أحسست أنه يحرم نفسه من أجلك.

٩- قرري منذ الخطوة الأولى في طريق الزواج الموفق السعيد أن تكوني عوناً له على الأحداث والأزمات، وأن تمديه بالرأي والصبر وحسن التدبير. شاركيه مآسي الحياة وما أكثرها، فذلك كله مما يزيدك مكانة في قلبه. إن الرجل يبقى محتاجاً إلى امرأة تشاركه آلامه، فذلك يدخل عليه من السكينة والأمن ورباطة الجأش والرضى والسرور ما يخفف عنه هذه الآلام ويعينه على التغلب على الصعوبات.

إنك عندما تظهرين أمامه مادية قاسية القلب لا تهمك إلا مصالحك يتضاعف عليه المصاب ويعظم عليه الألم. إنك بذلك تحفرين لسعادتك القبر الذي تدفن فيه.

والمرأة التي تفقد السعادة مع زوجها يصعب أن تجد سعادة مع أحد من الخلق. إن الحياة في حقيقتها عواطف ومواقف، ومعان أكثر مما هي أمور مادية.

١٠- احترمي زوجك واحترمي أهله من أعماق قلبك بصدق وحماسة وإخلاص، واعلمي أنه يحب أهله أكثر من أهلك، كما أنك أنت أيضاً تحبين أهلك أكثر من أهله. فاحذري أن تطعنيه بازدراء أهله أو انتقاصهم، فإن ذلك يدعوه إلى النفرة منك.

١١- احرصي على الصدق معه ومع غيره، فالصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة[1].

صارحيه بالحقيقة في أمورك كلها، وأعلميه بالأحداث التي تتم في غيبته. فالكذب قد ينطلي عليه مرة، ولكنه لن ينطلي عليه في كل مرة، ولا بد من أن تتكشف له الحقائق.

فإذا وقر في صدره أنك كاذبة لم يصدقك في أمر. ومن أصعب الأمور على الإنسان أن يعيش مع من لا يصدقه في خبر. إن الكذب يا عزيزتي ينتزع الثقة بك

(١) وهذا قطعة من حديث انظر تخريجه ص١١٧.

من صدره، ويجعله مرتاباً في كل نبأ تنبئينه به. إن الكذب دليل على المكر والالتواء، وهو سبب النفرة بين الزوجين، وسبب إفساد الأولاد في البيت، وهو إثم يقود صاحبه إلى النار كما قال ﷺ: «وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار»[1].

١٢- لا تزهدي أيتها الأخت الكريمة بالكلمة الحلوة تقولينها لزوجك.. فما أعظم سحر الكلمة الحلوة، لا سيما عندما يشعر الزوج أنها منبعثة بصدق من قلب محب. إن الرجل يحب أن يرى زوجته مهتمة به، هكذا الرجال كلهم، فشجعيه بإبراز محاسنه وتكرارها على لسانك، فليس أحلى على قلب المرء من أن يسمع مدحه بصدق من زوجته، إنه يريد أن يكون ماجداً أمامك، صاحب سمعة، فلا ترددي في منحه ذلك. وإن رأيت ما يسوءك منه فلا تضخّمي الأمر في نفسك، بل اذكري مباشرة صفاته الطيبة. ليس هناك رجل قبيح من كل الجوانب، وليست هناك امرأة قبيحة من كل الجوانب، وليس في الدنيا إنسان كامل. بل إنك أنت لتعترفين - بينك وبين نفسك- بعدد من النقائص موجودة فيك، ولا ترغبين أن يعرفها الناس، فإذا كان ذلك كذلك فلماذا لا نقبل الواقع بذكر الجوانب المشرقة الموجودة حقاً.

يقول رسول الله ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر».

ومما يتصل بالكلمة الحلوة الطيبة أن تنتبهي للأمور الآتية:

لا تكثري الشكوى أمامه، ولا تعاتبيه دائماً في الأمور التي لم ترق لك، ولا تظهري انفعالك من أهله وأولاده أمامه.. لأن ذلك قد يعكر صفو العلاقة بينكما، وتذكري الصحابية الجليلة أم سليم التي كانت تحرص على رضى زوجها أبي طلحة حتى في أشد حالات انفعالات الأم الثكلى، فلقد مات ابنها فطلبت من أهل الدار

(١) البخاري ٨/ ٢١ ومسلم برقم ٢٦٠٧ وأبو داود ٤/ ٤٠٧ والترمذي ٣/ ١٣٧ وأحمد ١/ ٣٨٤ وفتح الباري ١٠/ ٥٠٧ والأدب المفرد ٥٧.

أن لا يخبر أحد منهم زوجها بهذا الخبر حتى تكون هي التي تخبره، وتزينت أحسن زينة، ومهدت لإخباره تمهيداً يجعل وقع الخبر عليه خفيفاً[1].

إن الكلمة الحلوة أمنية الرجل الكادح طوال اليوم في عمله، وهي لا تكلفك شيئاً من جهد أو مال.

وإليك أيتها الأخت صورة نقلها إلي إنسان عن تجربة مؤلمة يعانيها لتكوني على وعي من تصرفاتك ولتحاذري من الوقوع فيها.

حدثني مسكين من الأشقياء بزواجهم أنه لا يفتح عينه إلى على مظهر مفزع من زوجته النافشة شعرها، الرافعة صوتها، المزمجرة على أولادها.. فإذا ما استبد بها الغضب وزاد الانفعال أقبلت نحوه تحمله المسؤولية في الأوضاع التي تشكو من أولادها وتذكر تقصيره في مساعدتها.

هذا شأنه في أكثر الأيام.. لا يسمع الكلمة الحلوة، ولا يرى الوجه الباسم، ولا يستمتع برؤية الهندام المرتب.. ولا يسعد بقهوة الصباح يحملها وجه صبوح، ولا يشاهد العناية بطعامه وأموره.. فكان ذلك سبباً في قيام النفرة من البيت وزيادة كراهية الزوجة، وعزمه على الطلاق.

هناك مشكلات، ولكن حلها لا يكون على هذه الطريقة المزعجة المنفرة أبداً، وقد قدمنا الطريقة التي يمكن أن تحل بها المشكلات العائلية.

١٣- وتزيني له وأشعريه باهتمامك الكبير به، ولتكن القضايا التي تهمه هي القضايا الكبرى عندك، حتى ولو كانت ليست كذلك في نظرك.

حاولي أن تجعلي بيته جنة مادية ومعنوية تسعدي ويسعد أولادك وتقدمي لأمتك الشيء الكثير. والله يتولاك بالتوفيق والسداد.

***

(١) انظر الخبر مفصلاً في رسالة موجزة كتبتها عن (أم سليم).

أود أن أختم الوصايا بكلمة أرى أنها في غاية الأهمية وهي موجهة إلى الزوجين كليهما، وقد يكون نصيب الزوج منها أكبر. هذه الكلمة تدور حول علاقة كل من الزوجين بوالديه بعد الزواج.

يقول تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣_٢٤].

ويقول عز من قائل: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

إن هذه المرحلة دقيقة ويحدث فيها في كثير من الأحيان ألوان من الحساسية تستدعي نفوراً وتعكراً في العلاقات الأسرية، وربما تفاقم الوضع حتى ينتهي إلى مقاطعة الوالدين والدخول في غضب الله والعياذ بالله تعالى.

يا أخي الزوج العروس:

إن قوة شخصية الإنسان تبدو في القدرة على أن يوازن بين الحقوق والواجبات التي قد تتعارض أمام بعض الناس، وغالباً ما يكونون سطحيين تافهين ضعفاء.

إن قوة الشخصية تظهر في القدرة على أداء حق كل من أصحاب الحقوق، دون أن يلحق جوراً بواحد من الآخرين.

ومن عظمة هذه الشريعة أنها جاءت بأحكام توازن بين عوامل ودوافع وحوافز متعددة، فللوالدين حقوق، وللزوج حقوق، ولا تعارض بينهما في حقيقة الأمر، والمسلم الواعي قوي الشخصية يستطيع أن يعطي كل ذي حق حقه.

ويبدو أن الناس فيما مضى - ولعوامل متعددة - كانوا يرعون حق والدي الزوج رعاية مبالغاً فيها، وقد تدخل الجور على الزوجة في كثير من الأحيان عدواناً وظلماً،

ولكن الأمر - بعد اختلاطنا بالكفرة وتأثرنا بحضارتهم التي حُطّمت فيها الأسرة - اختلف حتى أصبح الظلم يصيب الوالدين، وهو إن وجد ينصبّ أكثر ما ينصب على الأم، لئن كنا في الماضي بحاجة إلى تذكير الزوج بحقوق الزوجة مع مراعاة بر الوالدين إننا اليوم بحاجة إلى تذكير شبابنا برعاية الموازنة بين حقوق الوالدين وحقوق الزوج، وإلى تحذيرهم من العقوق.

إن كثيراً من المآسي الاجتماعية والعائلية تقع بسبب الإخلال بهذا التوازن المطلوب. والخسارة الكبرى والإثم العظيم يقع على الزوج أولاً عندما يقع في غضب الجبار ويدخل النار.. ثم يعم الزوجة هذا السخط.

ذلك لأن عقوبة عقوق الوالدين من العقوبات التي قد تعجل في الدنيا قبل الآخرة، وهذا أمر مشاهد ينطق به الواقع العملي.

أيها الزوج العروس أنا لا أدعوك إلى ظلم زوجتك، فالظلم حرام بكل أنواعه ومظاهره، ولكنني أذكّرك بأن ظلم والديك وعقوقهما من أعظم الذنوب، كما قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟»

قلنا: بلى يا رسول الله.

قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» - وكان متكئاً فجلس فقال: «ألا وقول الزور وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[1].

فاعمل يا أخي على أن تنجي نفسك من عقوبة العقوق الدنيوية والأخروية، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤].

واحرص في الوقت ذاته على إنصاف زوجك، والإحسان إليها ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

---

(١) رواه البخاري ٣/ ١٥٠ ومسلم ١/ ٦٤ والترمذي ٣/ ٢٥٥ ومجمع الزوائد ١/ ١٠٣ والترغيب والترهيب ٣/ ١٤١.

إن ما تقدم من والديك من إكرام وعناية وإحسان إليك، يجب أن يقابل منك بالعرفان والمكافأة. لقد تعهداك بالرعاية والخدمة وأنت ضعيف لا تملك من أمر نفسك شيئاً، وأنفقا عليك وحَرَما أنفسهما من أجلك، وسهرا على شؤونك، وتعبا من أجل راحتك. أفلا يجدر بك إن كنت من أهل الخير والمروءة أن تقابل ذلك بعرفان وإحسان؟ و﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠] والأم ينبغي أن تقدم في البر، لضعفها ولذلك وصى بها رسول الله ﷺ مرات قبل الأب، ثم أوصى بالأب[1].

ومما يعينك على تحقيق البر في حياتك أن تضع نفسك في محل أبيك وأمك.. فهل يسرك غداً عندما يصيبك الكبر، ويهن العظم منك.. ويشتعل رأسك شيباً أن تلقى من ابنك المعاملة السيئة والإهمال القاسي والإهانة الجارحة؟ أو ما علمت يا أخي أن الأيام دول وأن الزمان لا يبقى على حالة واحدة ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. فلا تغتر بشبابك وقوتك ومالك، فسرعان ما يلقاك المشيب، ويعتريك الضعف، ويزول عنك المال.

وقد يكون مقدراً للإنسان أن يكون في آخر عمره مقعداً، فليتصور هذا الإنسان أنه - وهو في هذه الحالة من العجز- قوبل بالعقوق والجفوة من ابنه بسبب إيثاره زوجته؟

ماذا يكون شعوره في ذاك الوقت وهو على ما ذكرنا.

تصور هذا يا أخي وأنت تعامل والديك فهذا مما يعينك على تحقيق البر في حياتك. وكتب الله لك السداد والتوفيق وجنبك الزلل والعقوق والظلم، وهيأ لك حياة سعيدة بما يرضى الله.

ليس من شك في أن الزوجة الصالحة العاقلة، الخيرة الطيبة تكون عوناً لزوجها

(١) الحديث وهو متفق عليه [البخاري ٨/ ٣ ومسلم ٢٥٤٨].

على الخير.. على بر والديه، وتوصيه بالتزام حكم الشرع.

ذلك لأن الرجل الذي لا خير فيه لأبويه لا يمكن أن يكون فيه خير لزوجة ولا ولد ولا لأحد من الناس في هذا الوجود.

إن موقف الزوجة الصالحة في إعانته على البر كفيل في كثير من الأحيان في حل المشكلة وتسوية الأزمة، لأن الوالدين عندما يشهدان الحب الصادق والاحترام والحنان من زوجة ابنهما يعطفان عليها وعليه، ويسود الود والتفاهم والصفاء جو الأسرة كلها.

إن قليلاً من الحزم، وكثيراً من الانتباه، يعينك يا أيها الزوج على سلوك سبيل الاتزان في معاملة زوجك ووالديك، وعندما يكون ذلك منهجك تسعد في أسرتك، وفي أعماق نفسك، وتفوز بمرضاة الله.

إن وعيك لهذه الحقيقة في أول حياتك الزوجية يجنبك العثرات والمتاعب، ويعينك على أن تكون خطواتك في المستقبل خطوات سائرة على طريق الهدى والحق والخير والسعادة والاستقرار.

واعلم أيها الأخ الفاضل إن تصرفات الوالدين وتصرفاتك أنت أيضاً تتغير بعد الزواج.. إنهما في الغالب يصبحان شديدي الحساسية.. والأم أكثر حساسية من الأب، فلتكن في منتهى الحذر.. واعمل ما وسعك العمل على ألا يتغير قلبها نحوك.

ويساعدك في تحقيق ما تريد من المراعاة للوالدين والزوجة أمور أهمها:

١ - أن تلجأ إلى الله وتحسن صلتك به عبادة ودعاء والتزاماً لما شرع.

٢ - وأن تسكن منفرداً مستقلاً عن أهلك وأهل زوجك.

٣- وأن تصارح والديك مع الاحترام البالغ بما تنكره من أوضاع جديدة، وتبين لهم الواقع البعيد عن التأويلات، التي قد يوسوس الشيطان بها للإنسان للإيقاع بين الأهل والأحباب.

٤- وأن تزيد من برهما المادي والمعنوي، كالهدايا والزيارات والاتصال الدائم، والتكريم الكبير، وإشعار والدتك بأنها ما تزال عندك الأم التي لها حق عظيم.

٥- وأن تتفاهم مع زوجتك على السلوك الذي يحقق إرضاء الوالدين.

٦- هذا وأنصح الأخ الزوج ألا يلزم نفسه في أول الأمر بما لا يستطيع أن يستمر عليه، لأنه إذا بدأ به ثم قطعه فسر تفسيراً ليس في مصلحته، وجر عليه أسوأ العواقب. فالزيارة اليومية للوالدين مثلاً ربما لا تتيسر له يومياً، لا سيما إذا كانت المساكن متباعدة والمشاغل كثيرة.. فلا يلزم نفسه بها. ومن نعمة الله على عباده في هذه الأيام أن يسر لهم وسائل الاتصال المتعددة، كالسيارات والهواتف التي جعلت المواصلة ميسورة مهما تناءت الديار.

إن ذلك كله يضمن لك سعادة كاملة.

واحذر يا أخي أن تعطي والدتك - في تصرفاتك التي ربما لا تنتبه عليها - الأدلة التي تشعرها بأن فلذة كبدها قد صارت لغيرها وقد تحولت عنها.. إنها عندئذ ستكون شديدة التأثر واللوم، شديدة الإزعاج والإتعاب لك من حيث لا تشعر، وكلما كانت أكثر تعلقاً بك وحباً لك كان تأثرها ولومها أكبر وأضخم.

وأنا أعلم أن كثيراً من الأمهات الجاهلات بسبب ما تقدم يحرجن أبناءهن ويحرمنهم من السعادة، فإذا ابتلي إنسان بأم من هذا النوع كان عليه أن يقابل ذلك بالصبر والاسترضاء.. وهنا تظهر حقيقة البر وقوة الشخصية التي تقوى على الموازنة بين أصحاب الحقوق.

ويطيب لي أن أهمس في آذان الأمهات أن ينتبهن لأنفسهن، وأن يكنَّ عوناً لأولادهن على البر، وأن يعملن على تحقيق السعادة لهم.

ويبقى الحنان مفتاحاً في يد الولد العاقل، يجعل أمه سهلة الانقياد، سريعة التأثر، والأمهات أنواع، فقد ترضى الأم بكلمة حلوة، أو هدية متواضعة أو استرضاء مبلل بالعاطفة الوافرة. إن قلب الأم - إن لم يتحول بسبب العقوق - قريب المأخذ.

يا أخي إن ارتباطك بوالديك أمر محتوم لا خيار لك فيه، ولا فكاك لك منه بحال من الأحوال، وليس في يديك.. فلا تنس هذه الحقيقة.

ولقد جاء الشرع فقرر لهما من الحقوق ما لم يقرره لمخلوق من الناس إذ أوجب أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً ولو كانا كافرين يدعوانك للكفر.

يا أخي إن أعظم ما يميز مجتمعنا الإسلامي هو هذا الترابط العظيم في علاقاته الأسرية، فلا تتهاون فيه، فإن في بقاء هذا الترابط خيراً للناس الذين يعيشون معك.

ولا بد لي من أن أشير إلى علاقة الزوجة بوالديها.

اعلمي أيتها الأخت الفاضلة أنك بدأت مرحلة جديدة في حياتك، فلا يجوز أن تستمر أوضاعك السابقة مسيطرة على تصرفاتك.. إنك أصبحت ربة أسرة مسؤولة عن بيت وزوج وأولاد.. حاولي أن تندمجي في الجو الجديد الذي انتقلت إليه، وأن تتعاوني مع شريك حياتك ضمن حدود الشرع المطهر. احرصي على بر والديك بكل ما تستطيعين من أنواع الاسترضاء والبر، ولكن ذلك ينبغي أن يكون في حدود الموازنة التي شرعها الإسلام، بحيث لا يجور جانب على جانب، واحذري أن تدخلي في أمورك الخاصة والديك، بل حاولي أن تتصرفي التصرف الذي يقره الشرع مستقلة، إلا أن تكون هناك ضرورة ملحة، وإياك والعقوق فإنه كما ذكرنا من أكبر الكبائر.

اشعري زوجك بأنك مع احترامك لوالديك وحبك لهما حريصة على طاعته والتعاون معه، وأن حبك له لا يمكن أن ينافس حبك لهما، واستعيني بالله والاستقامة على شرعه والصدق.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

من أخطاء الموازنة

هناك نوع من الموازنة هو سبب من أسباب شقائنا في الحياة، وسبب من أسباب وقوعنا في غضب جبار السموات والأرض، فما أكثر ما نسمع مثل هذه الموازنات من بعض الناس:

فلان ثروته ضخمة وأنا أعيش الكفاف!! وفلان وزير كبير وأنا رجل عادي فقير!! وفلان زواجه ناجح وأنا إنسان متعثر الحظ!! وفلان له دار بل دور واسعة وأنا أعيش بالكراء!! وفلان أولاده متفوقون وأنا أعاني من تخلف أولادي وضياعهم!! إلى غير ذلك من هذه الموازنات..

وما أكثر ما نسمع من بعض النساء قولهن:

فلانة جميلة.. وأنا متوسطة الجمال!! فلانة يشتري لها زوجها النفائس وأنا لا أحظى بالضروري من الثياب! فلانة عندها خادم وأنا أتجرع غصص الألم من الخدمة!!

فلانة وُفّرت لها كل أسباب الرفاهية من المركب الفخم الجديد، والزينة الثمينة وروائع الحلي، وأنا محرومة من كل شيء!!

هذه الموازنة سر تصدع الحياة الاجتماعية عندنا، وسبب كثير من المشكلات التي تقوم في بيوتنا.. وكثيراً ما تنتهي بأصحابها إلى تعقيد وكآبة، يدمران الحياة ويأتيان على عوامل السرور، أو إلى حقد أسود، وحسد مقيت، تغلي مراجلهما في الصدور، أو إلى جريمة مروعة تنشر الفزع في المجتمع وتودي بصاحبها.

وكثير من هذه الموازنات مغلوطة؛ فمثلاً ما الذي أنبأني أن الوزارة سبب من أسباب السعادة والهناء؟ وما الذي أدراني أن زواج فلان ناجح؟ ومتى كان المال هو كل شيء في الوجود؟ وقد علمتنا الحياة أن المظاهر لا تنبئ عن الحقيقة دائماً، فكم

من الناس يبدون أغنياء فإذا ماتوا تبين أنهم كانوا مستورين!! وكم من الناس جر عليهم الثراء الشغل في البال، والخوف على النفس والعرض، والمرض الوبيل الخطر!!

وكم من الناس يظن فيهم مراقبوهم أنهم سعداء في حياتهم أو زواجهم وهم جد أشقياء!! وماذا يفيد المرأة أن تتلقى من زوجها النفائس إذا لم تجد منه الحنان الدافئ ولا القلب المتفتح، ولا الود الصادق؟

ولنفترض أن ظنّنا فيمن نوازن حياتنا بحياتهم في محله، وأنهم كما نظنهم من السعادة والسرور، فالموازنة غير مجدية، ولا تستطيع أن تصنع شيئاً.

إن السعادة الحقيقية في أن ترضى بما قسم الله لك.

* إن الموازنة المفيدة هي التي تكون بينك وبين من هم أقل مالاً منك؛ لأن مثل هذه الموازنة تبصرك بنعمة الله عليك وتقودك إلى شكره، وتغمر نفسك بالرضى عن الله وعن واقعك.

أما تلك فتجعل الحسد يأكل قلبك، دون أن تفيد في تغيير وضعك وزيادة كسبك.

إن الموازنة المفيدة هي التي تكون بينك وبين من هم أفضل منك في التقوى والبعد عن المحارم، لأن هذه الموازنة تحضك على الخير، وتحملك على مضاعفة العمل بما يقربك منهم منزلة.

ويرشدنا رسول الله ﷺ إلى هذه الموازنة البناءة فيقول فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة عنه ﷺ: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم» وفي رواية: «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه»[1].

---

(١) انظر «فتح الباري» ١١/ ٣٢٢. و«صحيح البخاري» برقم ٦٤٩٠ و«صحيح مسلم» ٨/ ٢١٣ برقم ٢٩٦٣ وانظر «اللؤلؤ والمرجان» ٣/ ٣١٧ و«رياض الصالحين» باب الزهد. و«مختصر المقاصد» رقم ١٧٩. =

قال ابن بطال: [هذا الحديث جامع لمعاني الخير، لأن المرء لا يكون بحال تتعلق بالدين من عبادة ربه مجتهداً فيها إلا وجد فيها من هو فوقه، فمتى طلبت نفسه اللحاق به استقصر حاله، فيكون أبداً في زيادة تقربه من ربه. ولا يكون على حال خسيسة من الدنيا إلّا وجد من أهلها من هو أخس حالاً منه، فإذا تفكر في ذلك علم أن نعمة الله وصلت إليه دون كثير ممن فُضّل عليه بذلك، من غير أمر أوجبه، فيلزم نفسه الشكر، فيعظم اغتباطه بذلك في معاده][1] وقال غيره: [في هذا الحديث دواء الداء، لأن الشخص إذا نظر إلى من هو فوقه لم يأمن أن يؤثر ذلك فيه حسداً، ودواؤه أن ينظر إلى من هو أسفل منه، ليكون ذلك داعياً إلى الشكر][2] وفي حديث عمروبن شعيب عن أبيه عن جده رفعه قال: «خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكراً صابراً: من نظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضله به عليه، ومن نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به» وأما من نظر في دنياه. إلى من هو فوقه فأسف على ما فاته، فإنه لا يكتب شاكراً ولا صابراً[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

ففي هذه الآية أعظم العبرة، يقول تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: لا تنظر إلى ما هؤلاء المترفون وأشباههم ونظراؤهم فيه من النعيم، فإنما هو زهرة زائلة، ونعمة حائلة لنختبرهم بذلك[3]، وقليل من عبادي الشكور، ورزق ربك خير وأبقى فلا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أصنافاً وأنواعاً من الناس.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا

هذا وأخرج ابن حبان عن أبي ذر قال: أوصاني خليلي ﷺ بخصال من الخير، أوصاني أن لا أنظر إلى من هو فوقي وأن أنظر إلى من هو دوني. انظر «موارد الظمآن» رقم ٢٠٤١.

(١) «فتح الباري» ١١/ ٣٢٣.

(٢) «فتح الباري» ١١/ ٣٢٣.

(٣) «تفسير ابن كثير» ٣/ ١٧٠.

﴿ ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[1] [النساء: ٣٢] في هذه الآية نهي عن التمني، وتبيان للنهج السليم، وهو أن يسأل الله من فضله، فخزائنه لا تنفد وعطاؤه لا حد له.

وقد قص علينا القرآن الكريم قصة قارون، وهي قصة مليئة بالمواعظ والدروس النافعات، ولن نستطيع أن نتبين الآن كل هاتيك العظات والدروس، ولكننا نود أن نقتصر فيها على موضع الإشارة إلى الآثار الخطيرة التي تترتب على الموازنة الخاطئة، قال تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [القصص: ٧٩-٨٢]

فلندع مثل هذه الموازنات الفارغة، ولنرض بما قسم الله لنا بعد أن نستفرغ الجهد ونبذل الطاقة في تحصيل ما كتب الله لنا من الرزق الحلال، ففي ذلك سعادتنا في الدنيا ونجاتنا في الآخرة يوم يقوم الناس لرب العالمين.

١٠/ ٤/ ١٣٩٨هـ.

١٩/ ٣/ ١٩٧٨م.

(١) انظر تفسير هذه الآية في تفسير ابن كثير.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

القناعة

إن القناعة هي السعادة كلها.. وهي سبب السرور والطمأنينة في النفس الإنسانية، وفي الأسرة والمجتمع بكامله. أعرف رجلاً رضي النفس، عالي المكانة، ميسور الحال، مبسوط اليد، كريم الخلق، صادق التدين.. يرى في كل جانب من جوانب حياته نعمة الله عليه.

تزوج هذا الرجل من امرأة من وسطه، على تدين جيد، وجمال رائع، تؤدي صلاتها، وتحسن ما ينبغي أن تحسنه ربة البيت الناجحة، وقد رزق منها بالبنات والبنين.

ولكن صاحبنا حدثني أنه كان من أتعس الناس حياة بيتية، لا يهدأ الشجار في بيته يوماً حتى يشتعل شهراً، ولا تعرف السعادة إلى نفسه المعذبة طريقاً.

وبحث عن سر هذا الشقاء وسبب هذا العذاب، وعلة هذا الجحيم في بيته فوجده متركزاً حول أمر واحد هو فقدان خلق القناعة في هذه الزوجة الطيبة التعيسة والمتعسة.. إن قدّم لها مالاً سارعت إلى إظهار سخطها، وإبداء حزنها، وندب حظها لأنها تراه قليلاً، وتوازن بينه وبين ما يقدم لنظيراتها، فتجده هزيلاً تافهاً لا يليق أن يقدم لها، وربما كان المبلغ قد اقتطعه زوجها من نفقته أو من حصته التي ادخرها لنفسه.

وإن جاء لها بهدية احتقرت الهدية، واستصغرت شأنها، وقابلت ذلك بالكآبة والحزن والحسرة والاستهانة، وتألمت بدل أن تسرّ، فتدخل عليه وعلى نفسها من الغم ما يعكر صفاء حياتهما المشتركة.

وإن جاء لبيته بمتاع يتمنى كثير من الناس أن يكون لهم مثله قابلته بشراسة

منكرة، وأظهرت العيوب كلها فيه، وقالت: كيف يكون حالي إذا ما رأى الناس هذا المتاع في بيتنا. ونغصت عليه حياته، وجرعته من الألم كؤوساً وكؤوساً.

وإذا ما بيّن لها خطأها في هذه النظرة، خالفته ومنعته من إبداء وجهة نظره بصلافة وعناد وتجهم.. فإن أصر على رأيه ملأت البيت صراخاً وعويلاً، وبكاء ودموعاً.. فيتحول المعروف إلى منكر والإحسان إلى إساءة.

وقد يحمله هذا الوضع المثير المزعج على الامتناع عن جلب ما يراه ضرورياً، لئلا يوقد نيران الخصومة في داره، فتقوم المطالبة الملحة بإحضار ذلك الشيء بشراسة وعنف وإلحاح.

قال: وقد صبرت على هذا الذي أعانيه أمداً طويلاً آملاً أن تعتدل، ولكنها مستمرة في هذا الطريق وأنا أخشى أن يجر ذلك عليها وعلى أولادنا الدمار والشقاء.

* * *

مسكينة هذه المرأة.. لأنها لم تعرف طريق السعادة.. فأشعلت في بيتها نيران الشحناء والبغضاء.. إنها تعمل على تقويض البيت الذي يؤويها.. إنها حزينة وتدخل الحزن على زوجها وأولادها، فلا تسمع إلا جلبة الشجار والخصام، ولا تسعد بالابتسامة تلقاها من زوجها.. إنها تحرم نفسها من الاستمتاع بلذائذ النعم الوفيرة الكثيرة التي غمرها الله بها. ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ الآية..

* * *

إن القناعة سبب السعادة.. فالغنى غنى النفس..وإذا ترك المرء نفسه على سجيتها لا يشبعها شيء. كما قال الهذلي:

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

وكما قال البوصيري:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

يقول سيدنا رسول الله ﷺ:

«لو أن لابن آدم وادياً من ذهب لتمنى أن يكون له اثنان، ولن يملأ عينه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»[1].

ومن هنا أشار رسول الله ﷺ إلى أن الإنسان الذي ينظر إلى من كان فوقه في الدنيا يزدري نعمة الله عليه.

كم من معارفنا من الناس الذين يملكون من الإمكانات والطاقات مثل ما نملك أو أكثر مما نملك ومع ذلك فلا يتمتعون بما نتمتع به من النعم الوفيرة والخيرات الكثيرة.

ارضَ بما قسم الله لك تكن أسعد الناس.

ومما قرأت من روائع الحكم قول بعض العارفين:

يا ابن آدم إذا سلكت سبيل القناعة فأقل شيء يكفيك، وإلا فإن الدنيا وما فيها لا تكفيك.

إن القناعة تضفي على النفس الرضى والسعادة والطمأنينة، وتورث صاحبها عزة فلا يقبل الهوان، ولا ركوب الحرام للاستكثار من المنافع المادية.

إننا نسمع أن بعض الناس الذين تضعف نفوسهم أمام الإغراء المادي، يقبلون الرشوة وأكل الحرام من أجل الاستكثار من المال. وقد يقدم بعضهم على أشد من ذلك من نحو التفريط بالعرض والسمعة.

ورحم الله أبا العتاهية الذي يقول:

يكفيك مما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت

إن فقدان القناعة قد يحمل المرء الوضيع على قبول الصدقات التي تغض من شأنه، ليترك مالاً كثيراً لورثته. قيل لابن عباس: إن فلاناً ترك كذا وكذا ألفاً. قال:

---

(١) البخاري (الفتح ١١/ ٢٥٣) ومسلم ١٠٤٩ وأحمد ١/ ٣٧٠ ومجمع الزوائد ١٠/ ٢٤٣.

ولكنها والله لا تتركه.

إن المال الكثير، والمتاع الفاخر، ليس نعمة دائماً، بل قد يكون فتنة، فليقنع المرء بما آتاه الله وليرغب في الآخرة.

وليست تعني القناعة الخمول وترك الطموح.. كلا إن طلب الرزق والتطلع إلى التوسعة على الأهل والعيال وطلبة العلم والمجاهدين في سبيل الله أمر طيب. لكن الذي نعنيه ألا تحمله الرغبة في كسب المال على المهانة أو الوقوع في الحرام أو التفريط في كرامته.

أعرف رجلاً كان مستور الحال، دخله يفيض عنه، وهو قليل العيال ليس له إلا ولد واحد، وابنه في غنى ويسر، وكان مع ذلك يطلب الصدقات، والعطاء.. وكان رحمه الله شديد التقتير على نفسه.. ويعطي كل ما يجمع وما تجود به أيدي الناس لابنه هذا.. ولو كان قانعاً بما أعطاه الله لوفر كرامته وحاز احترام الناس.

ألا فلنعلّم أبنائنا القناعة العزيزة الكريمة مع الطموح الإيجابي الذي يكون في حدود الشريعة والكرامة الإنسانية، ولنحذر أنفسنا وأبنائنا من الحسد والحقد والأثرة، ولنعرف نعم الله علينا حتى نندفع للقيام بشكرها.

وقولوا للناس حُسْناً

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

لقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل على أمور أساسية في العقيدة والعبادة والسلوك والحياة، من توحيد الله، وإفراده بالعبادة، وبر الوالدين، والإحسان إلى ذي القرى واليتامى، ومساعدة المساكين والقول الحسن للناس، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ولكنهم تولوا إلا قليلاً منهم، فكان عاقبة ذلك أن حاقت بهم لعنة الله وصاروا إلى ما صاروا إليه.

جاء في تفسير القرطبي[1].

[..وهذا كله حض على مكارم الأخلاق، فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس ليناً، ووجهه منبسطاً طلقاً مع البر والفاجر والسني والمبتدع، من غير مداهنة ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضى مذهبه، لأن الله تعالى قال لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]. فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون، والفاجر ليس بأخبث من فرعون وقد أمرهما الله تعالى باللين معه.

وقال طلحة بن عمر: قلت لعطاء: إنك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة وأنا رجل في حدة فأقول لهم بعض القول الغليظ. فقال: لا تفعل. يقول الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ فدخل في الآية اليهود والنصارى فكيف بالحنيفي؟].

---

(١) تفسير القرطبي ٢/ ١٦.

***

الكلمة الطيبة غذاء للروح.. وشفاء لأمراض النفس. والكلمة الحلوة لها فعل السحر.. ولها تأثير قد يغير حياة إنسان أو أمة!! من أجل ذلك كان قرن القول الحسن مع هذه الأمور الأساسية في العقيدة والعبادة والسلوك.. فتوحيد الله وإقامة الصلاة وبر الوالدين من أهم ما دعت الشريعة إلى تحقيقه وإقامته، وها نحن أولاء نجد في الآية قرناً للقول الحسن بهذه الأمور. ونود أن نعيش لحظات في ظلال قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ نطل من خلالها على حياتنا الاجتماعية والأسرية (العائلية).

كم تضيع علينا في حياتنا (العائلية) والاجتماعية فرص سعادة وغنى وأُنس كنا على مقربة منها لو قلنا كلمة حلوة.. ولكنا أضعناها عندما لم نلق بالكلمة الطيبة.

إن كلمة واحدة تستطيع أن تفعل شيئاً كبيراً.. فبسبب كلمة قامت حروب، وبسبب كلمة تآلفت قلوب.

إن الكلمة الطيبة أساس متين تبنى عليه علاقات الحب والمودة والرحمة والإنتاج والتربية.

إن الكلمة الطيبة تهيئ المناخ المناسب لنمو هذه العلاقات ولتثمر الثمرة المرجوة سعادة وفرحاً وابتهاجاً وانطلاقاً وتحقيقاً لكثير من معاني الخير.

إننا نستطيع بالكلمة الطيبة أن نأسو جراح المصابين، وأن نخفف كثيراً من آلام البائسين، فإن كانوا أقارب كان عملنا عائداً علينا بالنفع القريب في الدنيا، إذ يحول جو البيت إلى جو تعشش في أركانه وزواياه أسباب السعادة والهناء، ولثواب الآخرة أعظم.

إننا لا نستطيع أن نحقق آمال الناس وأمنياتهم، ولا أن نستجيب إلى كل مطالبهم ورغباتهم، ولكننا قادرون على أن نوجه إليهم الكلمة الحلوة التي ترضيهم وتملأ نفوسهم بالأمل والرضى.

وفي نطاق الأسرة قد يهمل الزوجان هذه الناحية إهمالاً شنيعاً، بحجة زوال الكلفة بين الزوجين وقيام الانسجام الكامل بينهما.

كلا.. إن الزوجين من أشد الناس حاجة إلى سماع كل واحد منهما الكلمة الطيبة من صاحبه. إن كلمة عذبة تقولها يا عزيزي الزوج وأنت مبتسم مشرق الوجه، تدفع عنك متاعب جمة في حياتك الزوجية.

وإن كلمة حلوة تقولينها يا عزيزتي الزوجة تحقق لك سعادة زوجية، وحياة كريمة وادعة هانئة. إن الكلمة الطيبة أهم عند الزوج من الرغيف السخن اللذيذ، والطعام الشهي الطيب.

وإن الكلمة الطيبة أغلى عند الزوجة في كثير من الأحيان من الحلي الثمين، والثوب الفاخر الجديد، ذلك لأن العاطفة المحببة التي تبثها الكلمة الطيبة غذاء الروح. فكما أنه لا حياة للبدن بلا طعام، فكذلك لا حياة للروح بلا كلام حلو لطيف.

لماذا نهمل الكلمة الطيبة في نطاق الأسرة وهي لا تكلفنا شيئاً؟ إن السعادة كلها ربما كانت كامنة في كلمة فيها مجاملة ومؤانسة يقولها أحد الزوجين لصاحبه أو الوالد لابنه.

أجل.. إن علينا أن تكون ألسنتنا رطبة بذكر الله وبالكلام المعسول الجميل لا سيما عندما نخاطب أزواجنا.. إن المرأة الشرقية عاطفية إلى أبعد الحدود.

إن الخطأ الذي يقوم في حياتنا الزوجية مبني على فهم خاطئ لفكرة رفع الكلفة.. حتى إن كثيراً من الناس ليقع في الأغلاط المدمرة لحياته الأسرية بحجة رفع الكلفة. يقول أحدهم: إن زوجتي ولدت ولدين أو ثلاثة أو أربعة.. فلم نعد عروسين نحتاج إلى الملاطفة والمجاملة أو الكلمة المأنوسة.. قد مضى وقت ذلك. إن هذا خطأ فادح يجرّ ذيول التعاسة والشقاء على عش الزوجية، وقد يدمر بناء الأسرة ويقضي على نفسية الأولاد.

لماذا لا تكون الملاطفة مع من نعايش؟ لماذا لا تكون الكلمة الطيبة مع الأزواج والأولاد؟ ألسنا بشراً سواء أكنا عرساناً أم كنا قد تقدمت بنا الأيام والسنون، وسواء أأنجبنا أم لم ننجب؟

ولو أننا نظرنا إلى حياة رسول الله ﷺ مع أزواجه لرأينا أنها مثال الملاطفة والمؤانسة. فلقد كان يؤانسهن ويمازحهن ويعمر نفوسهن بالكلمة الحلوة، والنظرة الحانية، والتصرف الودود، ويحتمل منهن أخطاءهن.

ويحسب فريق من الناس اليوم أن انتظام الحياة الزوجية هي أن الفرد منا يأكل ويشرب، ويغدو إلى عمله ويروح، وينجب أطفالاً، ويزور الناس ويزورونه، وأن يسمع الإذاعة ويقرأ الصحف ويشاهد التلفزيون، وإن كان من رجال الفكر أن يكتب ويقرأ. ثم لا شيء بعد ذلك.. إنه ينسى تماماً الجانب العاطفي من حياته الزوجية. وربما قال: وهل ينقص زوجتي شيء؟ ماذا تريد بعد البيت الواسع، والخدم والسيارة وأدوات الرفاهية المنزلية؟ ألا تأكل وتشرب وتنجب؟ ألا تشتري الثياب التي تحلو لها؟ ألا تركب السيارة تتنزه وتروح وتجيء وتزور وتزار؟ ثم ماذا بعد هذا؟ كلا.. مرة أخرى..هناك العاطفة العذبة المتجددة التي تحتاج إليها المرأة والرجل أيضاً.. إنها تحتاج إلى هاتيك العاطفة ولو حرمت كثيراً مما ذكرت.

إن هناك زوجات ينغمسن في السعادة ولم يتح لهن إلا قليل من وسائل الرفاهية في العيش.

إن تجاهل حاجة الزوجة إلى العاطفة العذبة التي تفيض بها الكلمة الطيبة، يجعلها تحمل بين جوانبها حجراً مكان القلب.. وهذا يعكر على الزوج حياته.. لأننا نعيش بالمعاني لا بالأجساد فقط.. وليس في الحجارة من المعاني شيء.

إن ربتة كتف حانية من الزوج مع ابتسامة مشرقة مقرونة بكلمة طيبة تذيب تعب الزوجة، وتنعش فؤادها المشرئب للعطف والحنان. فهل لك يا أخي أن تنتبه على نفسك وتتأسى بسيدنا رسول الله ﷺ الذي يقول تبارك وتعالى فيه ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي

﴿رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

اشكر زوجتك على صحن الطعام اللذيذ الذي قد أعدته لك بيديها.. اشكرها بابتسامة ونظرة عطف وحنان.. أثنِ عليها وتحدث عن محاسنها وجمالها، والنساء يعجبهن الثناء ويؤثر فيهن.. وإذا كان الكذب محظوراً فقد أباح لك الإسلام طرفاً منه في علاقتك الزوجية عندما يكون ذلك سبباً لتعميق المودة وتحقيق التفاهم.

اذكر لها يا أخي امتنانك لرعايتها وخدمتها لك ولبيتك وأولادك، وإن كان هذا من اختصاصاتها، وإن كانت لا تقدم إلا ما تقدمه النساء عادة.. لكن ذلك من قبيل الكلمة الطيبة التي تؤكد أسباب المودة والرحمة.. قل لها الكلمة الطيبة ولو نقصتها شيئاً من الطعام والمال والكساء.. إنها حينئذ ستسعد وستحس بدفء الحنان والعطف والمودة في أعماق قلبها.. وإذا أصبح قلبها مترعاً بهذه المعاني دفع دماءها حارة مغردة في عروقها.. وستندفع في خدمتك وتعيش معك العمر آمنة مطمئنة، وسوف ترى أنت بريقاً يتراقص في عينيها، وابتسامة مشرقة على شفتيها وسينطلق لسانها بالحديث عنك وإليك بالكلمة الطيبة.

وربما قالت بعض الزوجات: وماذا يريد الزوج مني؟ ألا يجد طعامه مطهياً، وثوبه مكوياً، وبيته نظيفاً، وأولاده لابسين آكلين، وحاجاته مهيأة؟

إنه لا يطلب مني طلباً إلا حققته، ولا يريد حاجة إلا سارعت في تنفيذها.

ماذا يريد الزوج مني أكثر من ذلك.

كلا يا سيدتي:

إنه بحاجة إلى العاطفة التي أنت مصدرها.. إنه بحاجة إلى الابتسامة المشرقة من فيك التي تبدد ظلمات الكآبة التي تعترضه في الحياة.

إنه يريد أن يرى الإنسانة التي تعنى به وتظهر له الاهتمام الكبير، وتشعره أنه - بالنسبة إليها- قطب الرحى، وأساس السعادة.

إنه يريد أن يسمع باللحن المريح كلمة الشوق والشكر والحب والرغبة في الأنس

به واللقاء.

إن ذلك كله مفتاح باب السعادة التي يحويها معنى الزواج.

إن كلمة شكر وامتنان من الزوجة مع ابتسامة عذبة تسديها إلى الزوج بمناسبة شرائه متاعاً إلى البيت، أو ثوباً لها، تدخل عليه من السرور الشيء الكثير، قولي له الكلمة الطيبة ولو كان نصيب المجاملة فيها كبيراً، لتجدي منه الود والرحمة والتفاهم، مما يحقق لك الجو المنعش الجميل.

رددي بين الفينة والفينة عبارات الإعجاب بمزاياه، واذكري له اعتزازك بالزواج منه وأنك ذات حظ عظيم.. فإن ذلك يرضي رجولته ويزيد تعلقه بك.

قابليه ساعة دخوله بالكلمة الحلوة العذبة، وتناولي منه ما يحمل بيديه وأنت تلهجين بذكره وانتظارك إياه.

فذلك كله من الكلمة الطيبة التي تأتي بالسعادة، ولا تكلفك شيئاً وتعود عليك بالنفع العظيم.

إن الذي يزهد في هذا كله مخطئ دون شك. وما أجمل قول رسول الله ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة»[١] وقوله: «الكلمة الطيبة صدقة»[٢] وقوله: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق»[٣].

إن مما يتصل بالقول الحسن والكلمة الطيبة أن نعرف آداب إلقاء هاتيك الكلمة الطيبة. والحق أن هناك أموراً كثيرة وهي يسيرة علينا نتجاهلها في حياتنا الزوجية، فتضيع على أنفسنا سعادة كبيرة، ونصلى من وراء ذلك نار الخلاف والشجار والشحناء والبغضاء مدة العيش المشترك بين الزوجين طالت هذه المدة أم قصرت.

أجل.. هناك أمور يسيرة على من ينتبه إليها، عظيمة الجدوى والنفع على من

---

(١) متفق عليه من حديث عدي. البخاري ٨/ ٩٥ ومسلم ١٠١٦.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة. وانظر تخريجه ص٩٠.

(٣) رواه مسلم من حديث أبي ذر وانظر ص٩٠.

يأخذ بها ويحققها. وهي واردة بالنسبة إلى الزوجين، وإن كانت ظروف حياتنا تجعل هذه الأمور مطلوبة من الزوجة بصورة آكد.

وأعظم الناس حماقة من يفوّت على نفسه السعادة من تجاهله أمراً لا يكلفه شيئاً وإهماله أدباً نصحه الناصحون به.

ومن هذه الأمور الهينة الميسورة أدب الحديث..

أدب الحديث:

إن للحديث آداباً تتصل بإلقائه. وآداباً تتصل بسماعه، إن روعيت عادت على أصحابها بالنفع الجليل، وحققت أطيب الثمرات المرجوة.

وإن مما يؤسف له حقاً أن كثيراً من الأزواج والزوجات يخالفونها معتذرين بأعذار واهية عدة، كدعوى زوال الكلفة، أو دعوى الرغبة في البساطة، أو دعوى الميل إلى المرح، وكل أولئك أعذار باطلة مردودة لا تصح ولا تصدق.

وهذه المخالفة -كما رأينا في الحياة الواقعية- تؤدي في كثير من الأحيان إلى مشكلات اجتماعية يستصرخ منها الأزواج والزوجات ويوسطون الناس لحلها، وقد ييأسون من العلاج فينتهي الأمر في بعض الحالات إلى الفراق والطلاق.

ولقد كانوا قادرين على تلافي تلك المشكلات لو أنهم انتبهوا على هذه الأمور اليسيرة الهينة، بل لقد كانوا قادرين على إحلال السعادة والتفاهم والرضى والسرور محلّها.

وأود أن أذكر - اليوم- آداب إلقاء الحديث، لأنّ من رعاية القول الحسن الاهتمام بهذه الآداب، لا سيما عندما يكون الحديث بين الزوجين.

- فمن أهم هذه الآداب أن يراعي المتحدّث حالة المخاطب، فلا يحدثه بقصد التودد وهو يراه متوجعاً متألماً، أو مشغولاً بكتابة أو محادثة هاتفية، أو منتظراً أمراً ذا بال وهو يفكر فيه، أو نعسان يغالبه النوم، أو متضايقاً يدافع الأخبثين ويريد دخول الخلاء، أو مستعجلاً يريد الخروج وإدراك موعد له، أو ما إلى ذلك من الحالات.

إن الحديث -ومُخاطبُك في مثل هذه الأوضاع- خطأ؛ لأنه لن يستطيع أن يُقبِل عليك، ولا أن يستجيب إليك. بل ربما عرضت نفسك إلى موقف منه يسيئك، ولا تعتذر يا أخي بأن الحديث بين زوجين، فالزوجان إنسانان يخضعان للظروف التي يخضع لها الناس ومقيدان بالطاقة البشرية.

وإن احتملك مخاطبك مرة فلن يقوى على احتمالك كل مرة.

أيها الزوج إن مراعاتك لحالة زوجتك عندما تريد أن تحدثها يوفر عليك توقيرها إياك ومزيد تعلقها بك وبحديثك وإقبالها عليك والاهتمام بك ويوفر عليك هدوء أعصابك.

أيتها الزوجة إن للحديث لذة عند السيدات لا أنكرها، ولكن ألا توافقينني أنّ مما يحقق الاستمتاع بهذه اللذة أن تنتبهي إلى أحوال زوجك؟ ألا فترفقي به يا سيدتي ليكون إقباله على حديثك جيداً واستماعه لك حسناً.

إن هذا الأمر الميسور في غاية الأهمية وهو لا يكلفنا نفقةً ولا يطلب منا جهداً.. والتساهل فيه قد يؤدي إلى أمور لا تحمد عقباها.

• ومن آداب إلقاء الحديث أن يراعي المتحدث ألا ينفرد بالحديث وألا يكون آخذاً دائماً صفة الذي يلقي ويطلب من سامعه دائماً أن يكون مصغياً لا يفتح فمه. إن المتحدث الناجح هو الذي يشرك سامعه في حديثه عن طريق الحوار والسؤال والجواب، فالحديث مشاركة ومواهبة وليس استئثاراً ولا مناهبة. ولقد كان صلوات الله وسلامه عليه حريصاً على إثارة الحوار مع الذين يخاطبهم[1].

إنّ الانفراد في الحديث بصورة مستمرة ثقيل على السامع، فهو لا يقع منه الموقع الحسن ولا يجد فيه الارتياح، ويحسّ من محدثه أنه يعده طالباً أو شبيهاً به، ليس عليه إلا الاستماع وهز الرأس بالموافقة، وإلقاء كلمات الاستحسان بين آونة وأخرى.

(١) انظر الفصل الذي كتبته عن الحوار في كتابي «الحديث النبوي» ص٨٢-٨٩ من الطبعة الخامسة.

ومن كثر كلامه كثر غلطه، وثقل ظله، وضاقت به وبحديثه صدور الناس.

• ومن هذه الآداب في إلقاء الحديث أن يجتنب المتحدث إعادة الحديث وتكراره فليس أثقل على النفس من الحديث المعاد.

وأنا أعلم أنه من الصعب علينا ألا نكرر أحاديثنا وأفكارنا.. فإذا كان كذلك فعلينا أن نتغلب على هذه المشكلة بأمرين: أولهما الأسلوب الذي يعرض فيه الكلام، وثانيهما جعل فوارق زمنية بين أوقات إلقاء الحديث الواحد.

قد يصغي المرء إلى زوجته وهي تلقي إليه الحديث الذي سمعه منها مرات.. وقد يملك القدرة التي تجعله يصغي وكأنه يسمعه لأول مرة.. ولكن مثل هذا الأدب الكريم لا يمكن للمرء أن ينجح في التحلي به طويلاً وبصورة دائمة.

• ومن هذه الآداب أن يحرص المتحدث على الإيجاز وأن يحذر الإطالة، فحمل السامع على متابعتك لمدة طويلة مرهق ومنفر، وذلك لأن متابعة الحديث تتطلب من المخاطب أن يشد أعصابه ويحصر اهتمامه، وهذا أمر في غاية الصعوبة والعسر. إن الحديث مهما كان حلواً فالإكثار منه يقلل من قيمته ويضجر المخاطب. وربما كانت الإطالة ثرثرة مكروهة فلننتبه إلى الوقت الذي يستغرقه كلامنا مع أهلينا وقد قيل (الكلام الطويل ينسي آخره أوله) وقالوا: البلاغة الإيجاز.

• ومن آداب إلقاء الحديث أن يتنبه المتحدث إلى صفة التواضع، فليس حسناً أن يفرط في الفخر بمزاياه العظيمة، وليعلم أنّ هذا ثقيل على السامع حتى ولو كان زوجاً أو إنساناً من أقرب الناس إليه. وقد عرفت بعض الأفاضل الذين إذا اضطر أحدهم إلى ذكر حادثة فيها عبرة وكانت متعلقة به رواها على أنّها تتصل بصديق أو رجل.

إن التواضع خلق كريم ولا سيما في معاملة الأقرباء ومحادثتهم وكذلك مع الذين نتصل بهم دائماً ونحتك بهم كثيراً.

أجل.. لا يجوز أن يلقي المتحدث حديثه بأستاذية وتعالٍ وتكبّر مهما يكن الفرق

بينه وبين مخاطبه في المستوى العلمي والاجتماعي. وربما كان التكبر ممن هو أقل منزلة وأخفض مستوى من المخاطبين!! إن هذا التعالي لن يسد الثغرة، ولن يجبر النقص.. بل يجلب له مزيداً من الاحتقار والازدراء ويربي في السامع الحقد عليه وكراهيته.

وكثيراً ما تغرُّ الشهادات العلمية بعض التافهين الذين قدر لهم أن يحملوا شهادات!! وقد يكون الأمي العاميّ أدقّ في النظرة، وأعمق في الفكرة من خريج الجامعة ومن الكاتب في الصحف.. ذلك أن مدرسة الحياة تعلم المرء أضعاف ما تعلم المدارس والجامعات إذا صادفت من الإنسان الفطرة السليمة والذهن الحادّ والملاحظة المتوقدة. إن التواضع في الحديث - يا أخي- يجعل لحديثك أثر السحر في نفس من تكلم.

- ومن هذه الآداب أن يحرص المتحدث على أن يلقي حديثه بتقدير عميق لمن يكلمه لا سيما إن كان زوجة، فهي قرينته في حياته وشريكته في عمره وهي أم أولاده.

إن أحق إنسان بالتقدير بعد الوالدين هو الزوج أو الزوجة، وإن هذا التقدير من طرف يحمل الطرف الثاني على أن يبادله التقدير.

وأكبر السخف تعالي أحد الزوجين على الآخر وازدراؤه له واحتقاره إياه.

- ومن آداب إلقاء الحديث أن يتخير المتحدث من الأحاديث ما يعلم اهتمام المخاطب به، وعليه أن يجتنب ما يعلم يقيناً أن سامعه يضيق صدره منه. ومعرفة هذا ميسورة للزوجين بحكم الخلطة المستمرة، واللقاء الدائم والحياة المشتركة.

فإذا كان الزوج في أزمة مالية فمن الغلط أن تحدثه زوجته بحاجة البيت أو أفراد الأسرة إلى بعض المطالب التي لا يقوى على تحقيقها. وكذلك من الخطأ أن يحدث الرجل زوجته عن مزايا الزوجة الممتازة وهي لا توجد فيها من نحو كون المرأة على مستوى جيد من الثقافة العالية. ليس كل كلام صحيح صالحاً لأن يلقى على

الناس.. وهذا الأدب مطلوب منا تحقيقه في حياتنا العامة أيضاً، فلقد أخرج البخاري تعليقاً عن علي رضي الله عنه أنه قال: حدثوا الناس بما يعرفون. أتحبون أن يُكذّب الله ورسوله[1].

وروى مسلم في مقدمة صحيحة أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما أنت محدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة[2].

• ومن هذه الآداب أن يمزج المتحدث كلامه بالنكتة المهذبة الرائعة، والبسمة المرحة المبهجة، والحركة المعبرة، فالنكتة تجلو صدأ القلوب، وتبعث المرح، وتجدّد همة السامع ونشاطه، والبسمة المشرقة تملأ نفس السامع والمتحدث بالأمل والرضى، وتوثق المودّة.

ولا بأس من أن يتخلل حديثه ثناء مقتصد عن زوجته يسلك مسلك الجدّ، لأن المبالغة في ذلك لا تؤدي الغرض المطلوب بل ربما أدت إلى عكسه.

وعليه أن يجتنب الإكثار من الوعظ والعتاب والتوجيهات والتقريعات، فهذه الأمور يجب أن تكون بقدر محدود، وفي ظرف يساعد على قبولها، وأنا أعلم أنه لا بد من بعضها، ولكنها إذا كثرت أضحت معولاً يهدم كيان السعادة الزوجية، فهناك أزواج لا يكون كلامهم إلا لوماً أو عتاباً أو توجيهاً أو موعظة، ولله درّ القائل:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً ... صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحداً أو صل أخاك فإنه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ... ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه
ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها ... كفى المرء نبلاً أن تعدّ معايبه

* ومن آداب إلقاء الحديث أن يفرق الإنسان بين الحديث الخاص بين الزوجين،

(١) البخاري ١/ ٣١.

(٢) مسلم ١/ ٩ وانظر «تحذير الخواص» بتحقيقنا ٢٣٢ من الطبعة الثانية.

وفي خلوتهما وبين حديثهما أمام أهليهما أو الأولاد أو الضيوف.

فلكل لون.. فأما الحديث في خلوتهما فله طابع معين سبق أن أشرنا إليه في هذه الكلمة، وأما الحديث أمام الآخرين فينبغي أن يكون في منتهى الدقة والحذر والرصانة.

* ومن أهم هذه الآداب أن يراعي أحكام الشرع: فلا يكذب ولا يغتاب ولا يرمي أحداً بما ليس فيه. فاحرص يا أخي على أن يكون كلامك مع أهلك ومع الناس نظيفاً خيّراً، وتذكر قول رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[1].

هذه أهم آداب إلقاء الحديث ذكرت ما حضرني ولم أقصد الاستقصاء، فلنراع هذه الآداب، ولنلتزم بها، وليذكر بعضنا بعضاً بها إن غفلنا عنها أو نسيناها، حتى تصبح من أخلاقنا الشخصية، وقد جاء في الأثر: "العلم بالتعلم والحلم بالتحلم".

وأود أن أذكر أدباً مهماً يتصل بالعناية بمخارج الحروف وإبلاغ السامع أو السامعين الصوت جلياً: فهناك أفرادٌ لا يهتمّون بهذه الناحية حتى تتشابه الكلمات في حديثهم، وربما وصلت الكلمة إلى أذن السامع على نحو يناقض قصد المتكلم. من هنا كان الوضوح في الكلام أدباً مطلوباً، ويعين على ذلك أن يتكلم المرء بفمه كله، وأن يتعوّد على هذا، وأن يراعي ما يألف السامعون من الحروف، وأن يمرن لسانه على المخارج الصحيحة. وكذلك فإنّ عليه أن يسمع المخاطبين، فقد يحمل تكلف اللطف وتصنّع الرزانة إنساناً على أن يتكلم بصوت منخفض جداً، حتى إن السامع لا يستطيع أن يدرك مقصوده، وقد يريد الإسماع فيرفع صوته حتى يصدع رؤوس الناس. والتوسط في هذا هو المطلوب. وما بين ذلك قوام إن شاء الله.

***

(١) انظر ص٨٦.

أدب الاستماع:

أما أدب الاستماع فهو من الأهمية بمكان لا يقل عن الإلقاء بل يزيد عليه، لأنّ الانتباه إليه أمر مضيّع قلّ من يراعيه من الناس.

وحسن الاستماع يزيد في حبّ الإنسان لصاحبه، ويجعله أكثر إقبالاً على الحديث، والانسجام مع قرينه. وسوء الاستماع يحدث انكساراً في نفس المتكلم، وألماً في القلب، ونفرة من المخاطب، وقد تنتهي إلى الكراهية المقيتة، ولذلك فقد رغبت أن أذكر بين يدي هذه الآداب بعض الحقائق التي تبيّن أهمية حسن الاستماع:

- إن المنطلق في حسن الاستماع هو الحبّ، فالمرء المحبّ يستحسن كل ما يصدر عن حبيبه، نلمس هذا واضحاً عند الوالدين في موقفهما من أولادهما، فقد يتكلم الطفل بالكلمة السخيفة السمجة، فتهزّ هذه الكلمة أعماق نفس أبيه استحساناً، فيتلقفها بإصغاء ويعجب بها بصدق. وهكذا شأن المحبين يستحسنون الكلام العادي ممن يحبون، ويرون الملامح العادية فيهم سمات جمال بارعة، ولذا كانت كلمة ذاك المحبّ العاشق عندما عاب أحد الخلفاء محبوبته: (هلّا نظرت إليها من خلال عينيّ) إنها في نظره ملكة جمال الكون كما يقولون. وقديماً قيل: حُبُّك الشيء يعمي ويصم[1]. وقيل:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... ولكنّ عين السخط تبدي المساويا[2]

المساويا[2]

فمن هذا المنطلق ينبغي أن يحرص المرء على أن يثبت لمحدثه أنه يحبه لا سيما إن كان زوجاً، ففي ذلك توكيد لأسباب المودة والرحمة، وتوثيق لعرى الزوجية السعيدة، إنّ عليه أن يقبل على سماع حديث صاحبه، وأن يتلمّس النواحي المشرقة

---

(١) وهذا حديث ضعيف أخرجه أبو داود في سننه ٤/ ٤٥٤ وانظر مختصر المقاصد بتحقيقي رقم ٣٥٦.

(٢) نسب صاحب العقد الفريد هذا البيت لعبد الله بن معاوية بن جعفر في أبيات جميلة انظر «العقد الفريد» الفريد» طبعة قديمة ١/ ١٩٧. وانظر أقوال مأثورة ص١٨٠.

في حديثه، ويقنع نفسه بضرورة الإصغاء له بعناية تامّة.. إنّ ذلك سبيل من سبل إرساء الودّ والحب، وإننا لنجد ناساً يبذلون المال الكثير من أجل تحقيق ذاك الودّ والحب، فلماذا لا نفعل هذا وهو لا يكلفنا جهداً ولا مالاً؟

• إن الإقبال على المتحدث والإصغاء له دليل على تقديره واحترامه والاهتمام به ورعاية كرامته، وهذا مطلوب من الإنسان المسلم نحو أي مسلم آخر، ولو كان لا يجمع بينهما إلا المرافقة في طريق.. فما بالك بشريكة العمر؟

إن من حق المتحدث الذي يقابل بالإعراض والإهمال أن يتألم، لأن كرامته قد مُسَّت، وتوالي ذلك وتتابعه يولد نفوراً وكراهية.

• إن حسن الاستماع يهيئ للمتكلم الارتياح والسرور، مما يجعله ينطلق في عرض آرائه ببيان يجعل السامع يستمتع بحديث مفروض عليه. فهو يحسن إلى نفسه أولاً ثم يحسن إلى صاحبه ثانياً.

هذه أهمية حسن الاستماع فما آدابه؟

١- من آدابه ألّا يتشاغل السامع عن الإصغاء بقراءة أو خياطة أو كنس أو مداعبة لولد أو نحو ذلك.

إن تخصيص جزء من الوقت للحديث المشترك بين الزوجين يقبل فيه كلّ منهما على صاحبه كفيل بأن يزيل كثيراً من أسباب الخلاف، ويُحلّ محلها أسس الود والرحمة.

٢- ومن آدابه ألا يقاطع السامع صاحبه، بل ينتظره حتى يتم حديثه، لأن مخالفة هذا الأدب سبب لكثير من المشكلات الزوجية. وكثيراً ما تكون المقاطعة نتيجة لخوف من أحد الزوجين أن يخسر موضوع الحديث. وهذا خطأ فادح، لماذا لا نسمع ونناقش بهدوء؟ وإذا كنا على خطأ لماذا لا يكون عندنا الاستعداد للتراجع عن الخطأ؟

٣- ومن آداب حسن الاستماع أن يبدي المرء استحسانه لما يسمع، وأن يكون

هذا الاستحسان في حدود المعروف المقبول لا يبالغ فيه، إذ أن المبالغة قد تعني التهكم والمداراة، وكل ذلك مسيء للمتحدث. وقد قيل: إذا زاد الأمر عن حده انقلب إلى ضده.

٤- ومن آدابه ألّا ينتقل في تعقيبه على حديث المتكلم إلى موضوع آخر حتى يشعر بأن المتكلم قال كل ما يريد.

٥- ومن آداب حسن الاستماع أن يقبل السامع على الإصغاء لحديث صاحبه حتى ولو كان في أمر يعرفه أدق المعرفة. قال ابن المقفع: [إذا رأيت الرجل يحدث حديثاً قد علمته، ويخبر خبراً قد سمعته، فلا تشاركه فيه، ولا تفتح عليه، حرصاً على أن تُعلم الناس أنك قد علمته، فإن ذلك خفة وسوء أدب][1] ولله درّ أبي تمام:

من لي بإنسان إذا أغضبته ... وجهلتُ كان الحلم ردّ جوابه

وتراه يصغي للحديث بقلبه ... وبسمعه ولعله أدرى به

٦- ومن آداب حسن الاستماع أن ينصت سواء أكان الحديث دسماً عميقاً أم كان تافهاً غثّاً، وألا يظهر لصاحبه ضيقه من ذلك، لأن أي إنسان مهما أوتي من الموهبة لن يستطيع أن يجعل حديث التسلية دائماً حديثاً عميقاً دسماً. وقد قيل:

إذا جالست الجهال فأنصت لهم، وإذا جالست العلماء فأنصت لهم؛ فإن في إنصاتك للجهال زيادة في الحلم، وفي إنصاتك للعلماء زيادة في العلم[2].

٧- وإذا كان الحديث بين زوجين فمن آداب حسن الاستماع ألّا يسارع أحدهما إلى الردّ على صاحبه فيما إذا قرر أمراً لا يراه، ما لم يكن إثماً أو زيغاً.. إنّ عليه ما دام الأمر لم يصل إلى دائرة المنكر أن يلوذ بالصمت الملاطف الرفيق، ولا بأس بأن يثني على جانب من الكلام تمهيداً للتعقيب المناسب في الوقت المناسب. ذلك لأنّ المبادرة

(١) انظر كتابي «أقوال مأثورة» ص١٢٩.

(٢) انظر أدب الدنيا والدين ٢٥١.

إلى إبطال قوله قد تترك أثراً سيئاً في نفس صاحبه. ولا يزهدنّ أحدٌ في المجاملة، فما أكثر ما تكون المجاملة نافعة في الدنيا!!! وليس يعني هذا أن ينسلخ المرء عن رأيه ولا أن يتخلى عن فكره.. لا.. ولكن يسعه الصمت في بادئ الأمر ثم يتخير الوقت المناسب ليقول فيه ما يرى.

٨- ومن آدابه أن يجاري أحد الزوجين صاحبه فيما يسمع.. فإن كان الحديث نكتة ضحك، وإن كان خبراً يثير التعجب تعجب.. إن مثل هذه المجاراة والتجاوب يجعل المرء يحسّ بلذة الحديث، وأنه يتحدث مع حيّ يشاركه الرأي لا مع جماد ميت، ولا مع مشاكس معاند، وليحاول أن يجعل ذلك كله طبيعياً لا أثر للتكلف فيه.

* * *

كان حديثنا عن الكلمة الحسنة وأثرها في الأسرة التي هي لبنة المجتمع الأولى، ونودّ أن نتحدث الآن عن هذه الكلمة الحسنة وضرورتها وأثرها في المجتمع انطلاقاً من تأملاتنا في قوله سبحانه: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.

إن الإنسان في هذه الدنيا مضطر أن يعايش الناس ويخالطهم، ليس له بدٌّ من ذلك، لأنّ الطبيعة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها تحمل المرء على مخالطة الناس والعيش في وسطهم، ولا يقوى على الحياة بعيداً عنهم، ولذلك فهو ملزم -إن أراد لنفسه السعادة والسرور- أن يسلك في معاشرة الناس مسلكاً قائماً على الرغبة في التعارف والتآلف وحسن العشرة والمودة.

إن الغاية التي جعلنا الله من أجلها شعوباً وقبائل هي التعارف، كما قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

والتآلف بين أفراد الأمة يجعلها صفاً واحداً كأنه بنيان مرصوص، صفاً متعاوناً على البر والتقوى، متضامناً في الخير والصلاح، ولن يكون ذلك إلا بالخلق الذكي،

والقول الرضيّ، والمعاملة الحسنة، والمعاشرة اللطيفة، وإننا لنقرأ في كتاب الله عز وجل خطابه حبيبه وخيرته من خلقه محمداً ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].. فلو كان رسول الله المؤيد بالعصمة والحكمة، والمعزز بالتسديد والتأييد، لو كان ﷺ فظاً غليظ القلب لانفضّ أصحابه من حوله وبقي وحيداً.. فإذا كان هذا بالنسبة إلى رسول الله ﷺ فما القول بالناس الآخرين الذين لم يؤيدوا بما أُيّد به، ولم يؤتوا ما أوتيه من الخلق العظيم الذي أثنى به عليه ربه تبارك وتعالى فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. إنّ لين الجانب، ورقة المعاملة أساس لاجتماع القلوب، وليس هناك وسيلة تحقق ذاك اللين وتلك الرقة أهمّ من الكلمة الحسنة.. وهي ترضي الله وتدخل صاحبها الجنة.

عن المقدام بن شريح عن أبيه عن جده قال: قلت: يا رسول الله حدثني بشيء يوجب لي الجنة. قال ﷺ: «يوجب الجنة إطعام الطعام، وإفشاء السلام، وحسن الكلام»[1].

لقد ذكر رسول الله ﷺ في هذا الحديث أموراً ثلاثة لو نظرنا إليها لوجدنا أنها أهم أسباب ائتلاف القلوب، وهي بعد ذلك توطد الأمن على الأرواح والأموال، وقد رغّب بها رسول الله ﷺ أعظم الترغيب عندما جعلها موجبة للجنة.

وعن أنس قال قال رجل للنبي ﷺ: علّمني عملاً يدخلني الجنة. قال ﷺ: «أطعم الطعام، وأفش السلام، وأطب الكلام، وصلّ بالليل والناس نيام»[2].

وحديث أنس يزيد أمراً رابعاً يوجب الجنة وهو صلاة الليل.

ويصف حديث ابن عمر الغرفة التي سينزلها من يتصف بهذه الصفات في الجنة.

---

(١) الترغيب والترهيب ٣/ ١٨٣. مجمع الزوائد ٥/ ١٧ وقال المنذري والهيثمي: رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما ثقات.

(٢) الترغيب والترهيب ٣/ ١٨٣ وانظر مجمع الزوائد ٥/ ١٧ وقد روى قريباً منه الترمذي عن عبد الله بن سلام ٣/ ٣١٣ وروى نحوه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة ٤/ ١٢٩.

قال ابن عمر قال رسول الله ﷺ: «إنّ في الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها» فقال أبو مالك الأشعريّ: لمن هي يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وبات قائماً والناس نيام»[١].

ليس من شك في أن اللسان يترجم عما في النفس، فإن كان المرء فاضلاً طيباً فاض لسانه بالكلام المعسول والقول الحسن، وإن كان خبيثاً انطلق لسانه بالشر والفحش.

إن إطابة الكلام من الخلق الحسن الذي دعا إليه الإسلام.

فعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٢].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: لم يكن رسول الله فاحشاً ولا متفحشاً، وكان يقول: «إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً»[٣].

وعن أسامة قال: قال ﷺ: «إن الله لا يحب كل فاحش متفحش»[٤].

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يحب الفحش ويبغض الفاحش المتفحش»[٥] ومعنى الفاحش -كما قال ابن الأثير- هو: [ذو الفحش في كلامه وفعاله المتفحش الذي يتكلف ذلك ويتعمّده] قال: [وقد تكرّر ذكر الفحش والفاحشة والفواحش في الحديث، وهو كل ما يشتدّ قبحه من الذنوب والمعاصي،

---

(١) انظر صحيح الجامع الصغير الحديث برقم ٢٣٤٥ ورقم ٢٨٣٠ وانظر الدرر بتحقيقنا رقم ١٥١ والمستدرك ١/ ٣٢١ ومجمع الزوائد ٢/ ٢٥٤ و٥/ ١٦ وقال المنذري: رواه الطبراني والحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

(٢) انظر تخريجه ص٨٧.

(٣) الترغيب والترهيب ٣/ ١٧٤. وصحيح البخاري (الفتح ١٠/ ٤٥٢) ومسلم ٢٣٢١ ومسند أحمد ٢/ ١٦١ و١٨٩ و١٩٣ والترمذي ٣/ ١٣٨.

(٤) مسند أحمد ٥/ ٢٠٢. والمستدرك ١/ ٧٥. ومجمع الزوائد ٨/ ٦٤. وصحيح الجامع الصغير ١٨٥٠.

(٥) مسند أحمد ٢/ ١٦٢. ومجمع الزوائد ٧/ ٢٨٤.

وكثيراً ما ترد الفاحشة بمعنى الزنا، وكل خصلة قبيحة فهي فاحشة من الأقوال والأفعال][1].

وعن عائشة قالت: استأذن رجل على النبي ﷺ فقال: بئس ابن العشيرة [أو قال: بئس رجل العشيرة، أو قال: بئس أخو العشيرة].

ثم قال: ائذنوا له. فلما دخل ألان له القول. فقالت عائشة: يا رسول الله ألنتَ له القولَ، وقد قلتَ ما قلت؟ قال ﷺ: «إن شرّ الناس عند الله منزلة من ودعه – أو تركه- الناسُ لاتقاء فحشه».

أخرجه البخاري[2] ومسلم والترمذي وأبو داود[3] وفي رواية أخرى لأبي داود أنه قال: «يا عائشة إنّ الله لا يحب الفاحش المتفحش».

وعن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة لو كان الحياءُ رجلاً كان رجلاً صالحاً، ولو كان الفحش رجلاً كان رجل سوء»[4].

هذا درس لنا فيه الكثير من المواعظ.. ماذا يضيرنا أن نلين القول للناس أجمعين.. سواء أكانوا صالحين أم كانوا فاسدين.. إن إلانة القول لهم تقربهم منّا وتعطيهم مثلاً حياً على خلق المسلم الزكي، وهي غير الحكم عليهم.

إنّ المسلم كالوردة تفوح منها روائح العطر للناس جميعاً لا تفرق بين إنسان وإنسان، إنها لا تحجب رائحتها الزكية عمّن لا يستحقها، فكل من اقترب منها سعد بالشذى العطر، وكذلك المسلم فإنه لا يستطيع إلا أن يكون حسن المعاملة لطيف العشرة وهذا اللطف لا يؤثر على موقفه الصلب من الحوادث التي تخالف الدين فلا

---

(١) النهاية لابن الأثير: مادة فحش.

(٢) صحيح البخاري ٨/ ١٢ و٢٦ وصحيح مسلم فؤاد عبد الباقي ٤/ ٢٠٠٢ كتاب البر ٤٥ –باب مداراة من يتقى فحشه ٢٢- رقم الحديث ٧٣ (٢٥٩١) [وفي ط استانبول ٨/ ٢١].

(٣) انظر أبو داود ٤/ ٣٤٧. جامع الترمذي ٣/ ١٤٣.

(٤) الترغيب والترهيب ٣/ ١٧٣. وقال المنذري: رواه الطبراني في الصغير والأوسط وأبو الشيخ أيضاً وفي إسناده ابن لهيعة وبقية رواه الطبراني محتج بهم في الصحيح. وانظر مجمع الزوائد ٨/ ٢٧.

يجعله لطفه هذا يقول الباطل أو يؤيده.

وإذا كانت الكلمة الطيبة موجهة لعامل من قبل صاحب العمل، أو لولد من قبل والده، كانت ذات أثر كبير في الإنتاج؛ لأنها تدفع من قيلت له إلى مضاعفة جهده وزيادة عمله.

إن الكلمة الطيبة تجعل روح المرء الموجهة له روحاً مشرقة بناءة نامية، وتولد فيه همة لا تكل ولا تمل ولا تتوانى، وتسهل عليه مجاوزة العقبات وتخطي الصعوبات حتى لا يرى أمامه شيئاً مستحيلاً ولا صعباً.

ألا فلتنطلق ألسنتكم يا أيها السادة بالكلمة الطيبة والقول الحلو تسعدوا أنفسكم ومن تعاشرون، وترضوا ربكم وتفوزوا بما وعد به عباده الصالحين.

خراب البيوت وعمرانها

كنا نفهم من خراب البيوت فقدان رب الأسرة، ومن عمرانها وجوده معافىً مكفياً. إذ بوجوده تكثر الخيرات، وتؤمن الطلبات، ولا يحتاج أهل البيت إلى أحد من المخلوقات، وهذا وإن كان صحيحاً إلّا أنه لا يتجاوز الجانب المادي البيّن.

وهناك خراب أشد منه، خراب حقيقي..

والخراب الحقيقي أن تفقد المحبة والتعاون بين أفراد الأسرة، وأن تكون الكراهية والتواكل سائدين في البيت.

ويتحمل مسؤولية هذا الخراب الرهيب الأبوان دون الأولاد؛ فإذا كان أحدهما أو كلاهما أنانياً، معقداً، كسولاً، جاهلاً، لا مبالياً، ضيّق الأفق، لا يبصر أبعد من أنفه، فهناك ستكون الطامة الكبرى.. وسيكون الخراب الذي يدمر النفوس، ويستأصل السعادة ويقضي على كل أسباب السرور.. وعندئذ لا يستطيع هذا البيت أن يقدم للأمة ما تنتظره من الخير، وما ترجوه من رجال ونساء يسهمون في تحقيق رسالة هذه الأمة. من أجل ذلك فإنه يجب على كل من أراد أن يكون سعيداً مسعداً أن يحذر هذه العلل.. وأن يأخذ نفسه وزوجه بما يستطيع من العلاج والاهتمام.. ليجنب بيته الخراب.

ومما يسبب خراب البيوت انشغال الأبوين عن رعاية أولادهما وتربيتهما والعناية بشؤونهما.

فقد ينشغل الأب مع أصدقائه وزملائه، أو ينشغل في أعماله التجارية فلا يرى أولاده إلا نياماً، ولا يكون معه وقت لمحادثة زوجته والتفاهم معها على تربية الأولاد، وإدارة شؤون الأسرة، فيكون هو في واد وأهله وأولاده في واد آخر، ويترك

للتلفاز ورفاق السوء تربية الأولاد.

وقد تنشغل الأم مع صديقاتها في الاستقبالات والزيارات وتترك أولادها للخدم ورفاق السوء.

ليست السعادة في الطعام الشهي ولا في الملبس البهي، ولا في العيش الطريّ، وإنما السعادة في الحب والتعاون.

وإن بيتاً يقوم على الكراهية والنزاع والخصام بيت خرب، أشبه ما يكون بأتون يحرق كل من يقترب منه بَلْهَ من يسكنه.

ومن هنا كان الإسلام في دعوته العامة إلى الأخلاق الكريمة عاملاً على بناء البيوت وعمارتها.

• فالأثرة ليست من أخلاق المسلمين، بل الذي عرفناه عنهم -كما نطقت بذلك الأخبار الصحيحة الثابتة- إيثار بلغ حدّ المثالية.. فلقد كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

نعم إن الإيثار صفة الصفوة من المسلمين مع الناس عامة، فكيف يكون الأمر مع أم الأولاد، وفلذات الأكباد؟

• والكسل خصلة ممقوتة من الخصال التي لا تنسجم أبداً مع منهج الإسلام الجادّ، ولا يمكن أن تكون في المسلم الحيّ الفعال، ولا محلّ للكسول في المجتمع الإسلامي، فكل إنسان مطالب بالعمل، والله يكره العبد البطال. وإن الله يحب من أحدنا إذا عمل عملاً أن يتقنه، وهذا يقتضي العمل الجادّ الذي لا يعرف الكسل. يقول رسول الله ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»[1].

• والشعور بالمسؤولية أمر يعيش في قلب المسلم، وأعصابه، وشعوره،

(١) صحيح الجامع الصغير رقم ١٨٨٠.

ووجوده، زوجاً وأباً وأماً «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[١].

• والتعاون بين المسلمين أمر واجب لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]. وهو بين الزوجين أولى وأوجب.

• والإيمان العميق يبسط موضوع الحياة المشتركة الهادفة، وينفي عنه كل ظل للتعقيد.

• والحب هو النتيجة الطبيعية للحياة الإسلامية والتخلق بالأخلاق الإسلامية القائمة على حسن الظنّ بالناس والإحسان إليهم، والاعتذار عنهم.

وهذا رسول الله ﷺ يقول: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر»[٢].

فلنرب أنفسنا وأزواجنا على هذا كله بالقدوة، والحوار، والكلمة المضمخة بعطر الودّ.

لنحافظ على عمارة بيوتنا، ولنبعد عنها الخراب.

(١) انظر تخريجه ص٣٦.

(٢) رواه مسلم ١٤٦٧-١٤٦٩ وأحمد ٢/ ٣٢٩ عن أبي هريرة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

من حياة الرسول الزوجيّة

لقد عمد القرآن إلى بناء الإنسان بناءً متكاملاً يحقق له السعادة، ولأمته التماسك والإنتاج، وللإنسانية كلها التقدم والخير والفلاح.

ومن هنا كان التدين هو الحياة، فالإنسان السويّ هو المتديّن؛ لأنه بالتزامه أحكام الإسلام يستجيب لنداء الفطرة، ويلبي دعوة الروح... إن الدين هو الذي يضبط تصرفات المرء، ويعقل أحواله وأفعاله، ويجعله عنصراً فعّالاً، وأداة خيّرة، وإنساناً إيجابياً، تحلو معه الحياة لأنّ الحياة في عينه حلوة، ويطيب العيش معه لأن العيش في واقعه طيب... إن التدين هو اللطف والدماثة، وهو الذوق والرقة.. إنه الابتسامة العذبة والعيشة الراضية... إن التدين لا يجتمع مع الظلم والطغيان، ولا يكون أبداً قرين الهوان ولا العدوان. وإننا لنلمس ذلك في أحوال المرء كلها صغيرها وكبيرها خاصّها وعامّها. أما أولئك الغلاظ الأكباد، القساة في التصرف والكلام، والذين يتظاهرون بمظهر التدين فهم قومٌ منفرون مسيئون.. لم يفهموا الدين على الوجه الصحيح.

وكلما قرأت خبراً يتصل بحياة الرسول ﷺ الخاصة والعامة، في بيته وفي أصحابه، تجلّى أمام عيني هذا المعنى بكل وضوح.

إنّ حياة رسول الله ﷺ الداخلية في أهله وزوجاته مثل أعلى ينبغي أن يتذكره المتدينون، وهي نموذج عالٍ في الرقة واللطف وحسن المعاملة... رقة في موضع الرقة، وحزم في موضع الحزم.. والحزم لا يؤتي أكله إلا إذا كان إلى جانبه الحب الصادق، والود العميق، والإعجاب المتبادل.

والحياة الزوجية حياة مشتركة لا بد من أن تبنى على الحب والود والتعاون في

دائرة الشرع المطهر الحنيف، وإليكم يا أيها السادة هذه القصة التي حدثت في بيت النبي ﷺ في عيد الأضحى:

الناسُ في العيد يلهون ويلعبون - والمراد من الناس هنا فئة يدخل في عدادها الأولاد والشباب والنساء - ولا يحسّون بمعنى العيد إلا إذا كان الغناء واللعب، بل إن الكبار لا تكمل صورة العيد عندهم إلا إذا رأوا في شوارع مدنهم وساحاتها مظاهر اللعب قائمة، وسمعوا أصوات الأولاد مدوية، يهزجون ويمرحون، ويغنون ويرقصون.

ويأتي عيد الأضحى على المسلمين في عصر النبوة، وتحتفل به زوج النبي ﷺ عائشة، وتدخل عليها جاريتان - أي صبيتان- من الأنصار تغنيان بما قالت العرب يوم بعاث، وهو يوم كان بين الأوس والخزرج قبل أن يؤلف الله بينهم بالإسلام، وكان معهما دُفٌ يضربان به ويرددان على إيقاعه ما يحفظان من الشعر الذي قيل في ذاك اليوم... ويدخل رسول الله ﷺ بيته فيراهما ويسمعهما ولا ينكر عليهما ولا يمنعهما، ولكنّه - فداه أبي وأمي- يضطجع في الفراش، ويحوّل وجهه، ويلف رأسه بثوبه، ويترك النسوة فيما هنّ فيه من المرح والغناء والضرب على الدفّ.. وخليق بالناس الأجلاء أن يترفعوا عن الأمور المباحة إذا كانت لا تليق بهم.

ويدخل أبو بكر إلى بيت عائشة فيرى ويسمع، فينتهر بنته أم المؤمنين والجاريتين أما الجاريتان فلفعلهما، وأما بنته فلإقرارها صنيعهما، ينكر عليهن ويقول: مزمارة الشيطان عند النبي ﷺ؟ أو: أمزامير الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟ فأقبل عليه رسول الله ﷺ وكشف عن وجهه الشريف وقال: «دعهما يا أبا بكر! إنّ لكل قوم عيداً، وهذا عيدنا»[1].

ثم أعرض عنهنّ وتركهنّ وشأنهنّ، فلما غفل غمزت السيدة عائشة الجاريتين فخرجتا مراعاة لخاطر أبيها، وخشية من غضبه عليها، فعلت ذلك مع علمها

(١) البخاري برقم ٩٥٢ وانظر (الفتح ٢/ ٤٤٥) ومسلم ٨٩٢ وانظر كتابنا الحديث النبوي ص١٣٩.

بترخيص النبي ﷺ وهذا كمال الأدب مع الآباء والكبار.

وكان الأحباش يحتفلون في العيد باللعب بالحراب والتروس، ويبدو أنّ هذه اللعبة استمرت في عدد من البلاد العربية إلى أمد قريب[١]. تقول السيدة عائشة: فإمّا سألت النبي ﷺ وإمّا قال: «تشتهين تنظرين؟».

فقلت: نعم.

فأقامني وراءه، خدّي على خدّه وهو يقول: «دونكم يا بني أرفدة» يحرضهم على اللعب.

وفي رواية النسائي من طريق أبي سلمة عنها: دخل الحبشة يلعبون فقال لي النبي ﷺ: «يا حميراء! أتحبين أن تنظري إليهم؟» فقلت: نعم[٢].

تقول السيدة عائشة في رواية: حتى إذا مللت قال: «حسبك؟» قلت: نعم. قال: «فاذهبي».

وفي رواية يزيد بن مروان عند النسائي: «أما شبعت؟ أما شبعت» فجعلتُ أقول: لا. لأنظر منزلتي عنده.

وله من رواية أبي سلمة عنها قالت: يا رسول الله لا تعجل. فقام لي (أي ظل قائماً لأجلي) ثم قال: «حسبك؟» قلت: لا تعجل. قالت: وما بي حب النظر إليهم ولكن أحببت أن يبلغ النساء مقامه لي ومكاني منه[٣].

وفي رواية مسلم[٤] قالت عائشة: حتى أكون أنا التي أنصرف، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن حريصة على اللهو.

إنّ في هذا الخبر الصحيح جانباً من جوانب حياة الرسول ﷺ يتبين لنا من خلاله

---

(١) وهذه العادة في بلاد الشام معروفة. كانت تسمى هناك لعبة (السيف والترس).

(٢) قال ابن حجر: ولم يصح حديث فيه كلمة الحميراء غير هذا الحديث (انظر ٢/ ٤٤٤ من الفتح).

(٣) الفتح ٢/ ٤٤٤-٤٤٥.

(٤) مسلم ٣/ ٢٢.

كيف كان ﷺ يراعي المرأة والعامة والجواري، فيتيح لهؤلاء ما يدخل عليهم السرور، وينهى صاحبه أبا بكر عن إنكاره الغناء والضرب على الدف، ويعلل ذلك بأن هذا اليوم يوم عيد.

وفي ذلك إشارة إلى أنّ الأمة الجادة لا يجوز أن يكون ديدنها وشأنها العبث واللهو. أما في الأعياد التي تلتمس فيها البهجة فلا بأس إن تركنا هؤلاء وأولئك يمرحون بألوان من اللهو البريء واللعب الذي ينمي الرجولة ويدرب على استخدام السلاح.. حتى نجد أبناء الأمة يوم الملمات رجالاً أشداء، يستطيعون الدفاع عن الأمة، والجهاد لنشر دينها الحق في أصقاع الأرض.

إنّ في هذا الخبر الصحيح درساً للأزواج والدعاة.

إن على الأزواج أن يتلطفوا لإدخال السرور على زوجاتهم بما أباح الشرع.

وإذا كان الرجل يترفع هو عن أن يمارس لوناً من ألون المتعة المباحة لأنها لا تليق بمن كان مثله فلا عليه أن يترك زوجته وما تحب لتسر وتسعد.

إنه بذلك وأمثاله يستطيع أن يملك قلبها.. وإذا ملك قلبها لم تخالفه في الأمور التي أوجبها الله وجعلها من حدوده.

إن على الدعاة إلى الله أن يؤثروا الرفق إلا فيما حرّم الله.

لنحسن إلى أنفسنا بمخالقة الناس المخالقة الطيبة ولا سيما أهلنا، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

الحياة الزوجية عند السلف

تتأرجح الحياة الزوجية في معظم أسر المسلمين بين طرفين متقابلين لا تعرف اعتدالاً ولا توسطاً. إنها - عند فريق من الناس- تتمثل في قسوة من الزوج تنشر في أرجاء الدار عواصف من الرهبة والفزع، وتتمثل في عبوس هذا الزوج لا يزيحه استعطاف ولا حوار، وفي جوّ عسكري ليس فيه إلا أمر وتنفيذ دون مناقشة ولا تردد.

وهي - عند فريق آخر- تتمثل في ميوعة يفقد البيت فيها قوامة الرجل، وفي فوضى مريعة في إدارة شؤون الأسرة الأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية.

وعندما يُسْلَبُ الرجل رجولته وتتخلى المرأة عن أنوثتها، ذهبت متعة الحياة، وفسد البيت، وساءت التربية، وعمّ الاضطراب. تلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

الحياة الزوجية تعاون بنّاء بين الزوجين يتولى القوامة فيه الرجل، ولا يمكن أن يتم مثل هذا التعاون إلا إذا كان قائماً على التفاهم والود والمحبة والتعاطف والتقدير. وكل تطرف عن هذا السبيل القاصد انحراف يودي بالسعادة ويجلب الشقاء.

وأود أن أسوق إليكم قصة تنبئ عن طبيعة الحياة الأسرية الفاضلة التي كانت تقوم في العهد الإسلامي الأول في عهد النبوة في بيتين من أكرم البيوت التي عرفتها الدنيا في عصورها كلها: في بيت رسول الله ﷺ وفي بيت صاحبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

روى البخاري في صحيحه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إني كنت

وجارٌ لي من الأنصار في حيّ بني أمية بن زيد، وهو حيّ يقع في عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على النبي ﷺ، فينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته من خبر ذلك اليوم من الأمر وغيره، وإذا نزل فعل مثله.

وكنا - معشر قريش- نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذ هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار. فصحتُ على امرأتي (مرة) فراجعتني، فأنكرت أن تراجعني. فقالت: ولم تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وإنّ إحداهنّ لتهجره اليوم حتى الليل. فأفزعني من ذلك. فقلت لها: قد خاب من فعل ذلك منهن. ثم جمعتُ عليّ ثيابي، فدخلت على حفصة (وهي بنت عمر وزوج رسول الله ﷺ) فقلت:

- أي حفصة أتغاضب إحداكنّ رسول الله ﷺ اليوم حتى الليل؟

- فقالت: نعم.

- فقلت: قد خبتِ وخسرت. أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسوله فتهلكين؟ لا تستكثري[1] رسول الله ولا تراجعيه في شيء، ولا تهجريه، وسليني ما بدا لكِ.

ولا يغرنك أن كانت جارتك (يريد عائشة). هي أوضأ منك وأحبّ إلى رسول الله ﷺ.

يقول عمر: وكنا تحدثنا أن غسّان تنعل النعال لغزونا. فنزل صاحبي يوم نوبته، فرجع عشاء، فضرب بابي ضرباً شديداً. وقال: أثمّ هو؟ ففزعت فخرجت إليه وقال: حدث أمر عظيم.

قلت: ما هو؟ أجاءت غسّان؟

قال: لا، بل هو أعظم منه وأهول. طلّق رسول الله ﷺ نساءه.

قال عمر: قد خابت حفصة وخسرت. كنت أظن أن هذا يوشك أن يكون. فجمعت عليّ ثيابي، فصليت صلاة الفجر مع النبي ﷺ، فدخل مشربة (غرفة) له،

(١) أي لا تطلبي منه الكثير.

فاعتزل فيها. فدخلت على حفصة، فإذا هي تبكي.

قلت: ما يبكيك؟ أولم أكن حذرتك؟ أطلقكن رسول الله ﷺ؟

قالت: لا أدري. هو ذا في المشربة (الغرفة).

فخرجت فجئت المنبر، فإذا حوله رهط يبكي بعضهم، فجلست معهم قليلاً ثم غلبني ما أجد فجئت المشربة (الغرفة) التي هو فيها. فقلت لغلام له أسود: استأذن لعمر. فدخل، فكلم النبي ﷺ ثم خرج فقال: ذكرتك له فصمت. فانصرفت حتى جلست مع الرهط الذي عند المنبر، ثم غلبني ما أجد، فجئت - فذكر مثله- فجلست مع الرهط الذي عند المنبر، ثم غلبني ما أجد، فجئت الغلام فقلت: استأذن لعمر - فذكر مثله- فلما وليت منصرفاً فإذا الغلام يدعوني قال: أذن لك رسول الله ﷺ. فدخلتُ عليه فإذا هو مضطجع على رمال حصير[1]، ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرمال بجنبه، متكئ على وسادة من أدم حشوها ليف. فسلمت عليه، ثم قلت وأنا قائم: أطلقت نساءك؟ فرفع بصره إليّ فقال: لا. ثم قلت وأنا قائم: استأنس يا رسول الله لو رأيتني وكنا - معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على قوم تغلبهم نساؤهم.. فذكره [أي ذكر قصته التي وردت في أول الحديث وكيف صاح على زوجته وراجعته] فتبسم النبي ﷺ ثم قلت: لو رأيتني ودخلت على حفصة فقلت: لا يغرنك أن كانت جارتك يريد عائشة، هي أوضأ منك وأحب إلى النبي ﷺ. فتبسم أخرى، فجلست حين رأيته تبسم. ثم رفعت بصري في بيته فوالله ما رأيت فيه شيئاً يرد البصر غير أهبَةٍ ثلاث (جلود)

فقلت: ادع الله فليوسع على أمتك، فإنّ فارس والروم وسع عليهم وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله. فجلس النبي ﷺ وكان متكئاً.

فقال: «أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة

---

(١) قال الخطابي: رمال الحصير: ضلوعه المتداخلة بمنزلة الخيوط في الثوب.

الدنيا».

فقلت: يا رسول الله استغفر لي[1].

إن علينا أن نأخذ درساً من هذه القصة.. إنّ الحياة الزوجية لا بد أن يعتريها شيء من الخلاف، ولكن هذا لا ينبغي أن يحملنا على التطرف في مواجهة هذا الخلاف، لا يجوز أن نتحول إلى طرف القسوة ولا إلى طرف الميوعة، لا نبطل الحوار ولا نستسلم لداعي التسلط، ففي ذلك إفساد وأي إفساد، والخير كل الخير في أن نكون متوسطين، نستمر في حياتنا الزوجية المتعاونة على البر والتقوى. ولنا في حياة رسول الله ﷺ وصحابته القدوة الحسنة والأسوة المثلى.

وعلينا أن نحذر أشدّ الحذر من أن تتسلل إلينا عادات الفرنجة التي لا تعترف للرجل بالقوامة والتي لا ترى للأسرة المكانة السامية التي لها في الإسلام.

سدد الله خطانا على طريق الحق ووفقنا إلى الخير والحمد لله رب العالمين.

(١) الحديث متفق عليه وانظر صحيح البخاري ٧/ ٢٥ برقم ٢٤٦٨ و٤٩١٣ و٤٩١٤ و٥١٩١ و٥٨٤٣ ومسلم ٢/ برقم ١٤٧٩ (رقم الحديث ٣٤) بروايات عدة و«مسند أحمد» ١/ ٣٣ وانظر شرح هذا الحديث في «فتح الباري» ٩/ ٢٧٨.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الآباء والأبناء في القرآن

إنّ حب الأولاد، والرغبة في الاستكثار منهم، أمر مغروس في النفس البشرية، فترى الإنسان يبتهج لقدوم الولد، ويسعد لسعادته، ويحسّ بوجوده بمعنى الحياة[1]، ويتقوى بالولد ويعتزّ ويمنّي نفسه بالمستقبل الزاهر، والعزّ الضخم والجاه العريض.

قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [آل عمران: ١٤] فالأولاد من متاع الحياة الدنيا، وهم زينة الحياة الدنيا ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٤٦] ويدعو بعض الباحثين حبّ البنين والرغبة في الاستكثار منهم يدعوها بـ (غريزة الامتداد في الذراري والأحفاد)، ذلك لأنّ آمال الإنسان تضيق عنها الستون أو السبعون من السنين، فيتطلع المرء إلى أن يخلفه ابن ينسب إليه فيحيي ذكره، ويمتد بالحياة بسببه ولو كان في عالم الأموات. وهذه الغريزة يستوي فيها الناس جميعاً فقيرهم وغنيهم.

والأولاد نعمة امتنَّ الله بها على عباده فقال عزّ وجلّ: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ [النحل: ٧٢] وامتنّ بها على عاد فقال على لسان هود: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الشعراء: ١٣١-١٣٤] وامتنّ بها على بني إسرائيل فقال: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم

(١) انظر كلام الأستاذ أحمد حسن الزيات في ذلك في مقاله الرائع الذي كتبه عن ولده وجاء بعنوان (ولدي) في وحي الرسالة ١/ ٢٨٨-٢٩١.

﴿بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٦].

والإسلام دين الفطرة، يحرص على إبقائها نقية خالصة، لا تشوبها شائبة، ولا يعكر صفوها دخيل، وهو في الوقت ذاته لم يصادم الغرائز، ولكنه يصعدها ويوظفها لتكون في خدمة المثل، ومن أجل بناء الفرد الصالح والبيت الصالح والمجتمع الصالح.

وقد دعا إلى الوفاء والبرّ عامة، وخصّ الوالدين بمزيد من الأمر بالوفاء لهما والبر بهما، رعاية لهما في حالة شيخوختهما وضعفهما.

هذا الموضوع يتجلّى فيه بوضوح الإحكام الرائع الذي تميزت به شريعة القرآن فلم يهمل جانباً ولم يسرف في جانب. ولننظر بإيجاز إلى معالم هذا الموقف الرباني العظيم: طالب الإسلام المكلف الذي سيكون أباً بتقدير الأبوة حق قدرها قبل أن يتزوج ورغب إليه أن يتخيّر الزوجة الصالحة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك» رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي. ورواه أحمد عن أبي سعيد الخدري بلفظ: «تنكح المرأة على إحدى خصال: لجمالها ومالها وخلقها ودينها فعليك بذات الدين والخلق تربت يمينك»[1].

وقد أثبتت البحوث العلمية أن الجنين تنحدر إليه بعض الصفات الخلقية والنفسية من ناحية الأبوين وأنه ينطوي عليها اضطرارياً، وقد يبلغ الجدّ الرابع، فالعرق دساس، والوراثة أمر محقق علمياً.

ومن طريف ما سمعت أن رجلاً كان يشكو لصديقه عقوق ولده وسوء معاملته ودناءة طبعه فقال: لا تَلُمْ أحداً.. ولكن توجَّهْ باللوم إلى نفسك لأنك لم تتخير

(١) انظر ص٦١.

أمه[١]. وقديماً قيل: كادت المرأة أن تلد أخاها.

وهنا تأتي الاستشارة والاستخارة بعد البحث والتخيّر. ولا يجوز أن يغامر الفتى في هذا الأمر بسرعة دون أن يستشير أهله ذوي المعرفة ويستخير الله تعالى.

وإذا كان ذلك مطلوباً في الماضي فإن طلبه الآن أشدّ تأكداً، ذلك لأنّ ممارسة المرء لحقه في الطلاق كانت في الإطار الإسلامي المشروع.. أما بعد تأثرنا بالنصارى فقد أضحى الأمر مختلفاً.. وغدا التسرع في الإقدام على هذه الخطوة دون بحث واختيار، واستشارة واستخارة، ورطة قد تجلب الشقاء والتعاسة، وتوجب الندم ولات ساعة مندم.

ثم بعد أن يُولد أوجب الشرع على والده المحافظة على حياته ذكراً كان أو أنثى، وحرم قتله[٢] فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١] فحرّم القتل من الفقر القائم، أو خشية الفقر المتوقع، وتكفل جلّ وعزّ برزقهم ورزق الآباء.

وقد روى البخاري عن عروة: أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ

---

(١) ومن ذلك قصة عمر مع الرجل الذي جاء يشكو عقوق ابنه فأحضر عمر الوالد وابنه. فقال الولد: أليس للولد حقوق على أبيه؟ قال: بلى. قال: فما هي يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: أن ينتقي أمه ويحسن اسمه ويعلمه القرآن. قال الولد: يا أمير المؤمنين إن أبي لم يفعل شيئاً من ذلك فأما أمي فإنها زنجية لمجوسي وقد سمّاني جعلاً ولم يعلمني من القرآن حرفاً واحداً. فالتفت عمر إلى الرجل وقال له: جئت تشكو عقوق ابنك وقد عققته قبل أن يعقك وأسأت إليه قبل أن يسيء إليك.

أقول: الله أعلم بصحة هذه القصة، وفيها على كل حال عظة وعبرة ولكنني أريد أن أنبه إلى أن تصرف الأب الذي ليس حسناً لا يسوغ للولد العقوق، بل عليه البر والطاعة في كل حال، إلا أن يطلب منه الكفر أو المعصية، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

(٢) وكذا قتله وهو في بطن أمه غير جائز.

﴿يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢] قال عروة: قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتك» كلاماً، ولا والله ما مست يده يد امرأة في المبايعة قط، ما يبايعهن إلا بقوله: «قد بايعتك على ذلك»[1].

قررنا أن حّب الولد والذرية مغروس في النفس البشرية، وأنّ الإسلام لم يصادم الغرائز بل جعلها في خدمة المثل العليا، وذكرنا أنه أوصى المكلف بتخير الزوجة الصالحة، وفي ذلك إحسان إلى أولاده وأنه أوجب عليه أن يحافظ على حياة ولده بعد أن يولد.

ثم أمره أن يُحسن تسميته وأوجب عليه رعايته والقيام بشؤونه من إرضاع وكسوة وكل ما يحتاج إليه قال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] ثم أوجب عليه الشرع أن يربيه التربية الفاضلة فيعلمه ما يجب عليه من أمور دينه ويأمره بالصلاة لسبع، ويضربه عليها لعشر، ويفرق بينه وبين إخوته في المضاجع، ويحذره من التهاون في حقه ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول»[2] رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد، ورواه أبو داود والنسائي.

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله سائل كل راعٍ عما

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٦٥ وفتح الباري ٥/ ٣١٢.

(٢) انظر ص٨٩.

استرعاه حفظ أم ضيع، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته». رواه ابن حبان[١].

وعن ابن عمر أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته: الإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وكلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته» رواه البخاري ومسلم وغيرهما[٢].

وقد يتعارض الحب والحنان مع المسؤولية والتربية، وهنا يأتي التحذير من الضعف أمام الواجب، والاستسلام للعاطفة ونسيان المصلحة الكبرى. إنّ الدواء قد يكون مرّاً، فإن غلبت النظرة السطحية، وامتنع عن تناوله تفاقم المرض وصعب الشفاء، وقد ينتهي إلى الهلاك. وكذلك إجراء العملية الجراحية لاستئصال عضو مؤلمة أشدّ الإيلام ولكن يتحمل العاقل آلامها لينعم بالراحة والشفاء فيما بعد.

والأنبياء فطروا على حب الأولاد وابتغاء الخير لهم، شأنهم في ذلك كشأن الناس، فهذا نوح عليه السلام وقد عقّه ابنه بالكفر، وعانده ولم يستجب لدعوته، وركب رأسه متحيزاً إلى فئة الكفر، لكنه عندما أراد عليه السلام أن يركب السفينة تحركت في نفسه عاطفة الأبوة قائلاً كما يذكر القرآن: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢ - ٤٣].

ويبدو أنّ الحزن خامر قلب الوالد الرؤوف الرحيم على فلذة كبده، وهو يراه من الهلكى والمغرقين ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ

(١) موارد الظمآن ١٥٦٢ وانظر «الترغيب والترهيب» ٣/ ١٧.

(٢) انظر ص٣٦.

أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٥-٤٦] وسرعان ما آب إلى الحق مستغفراً ولجأ إلى الله تائباً ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] لا يجوز أن تغير العاطفة حقيقة العلاقة بين المسلمين، فابن نوح ليس من أهله، لأنه عمل عملاً غير صالح. [فالأهل – عند الله وفي دينه وميزانه – ليسوا قرابة الدم، إنما هم قرابة العقيدة. وهذا الولد لم يكن مؤمناً فليس إذن من أهله وهو النبي المؤمن].

وهذا إبراهيم عليه السلام عندما سمع إكرام الله وتبشيره إياه بإمامة الناس، أراد أن تكون هذه الإمامة في ذريته، فجاءه التقرير الرباني على نحو ما نقرأ في كتاب الله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وكذلك فإن سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما كان يدعو ربه كان يشرك أولاده معه في هذا الدعاء ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

إزاء هذا الفيض من العاطفة، والسيل المتدفق من الحنان، والميل الشديد لاسترضاء الأولاد، وإدخال السرور عليهم، وقف الإسلام وقفة المذكر المنبه الكابح.. إذ أن هذا الحنان وهاتيك العاطفة قد تنسيان الأب مهمته في التوجيه والتربية، فينقلب عندئذٍ إلى منفذ لأوامر أطفال صغار، ومسارع في تحقيق رغبات هؤلاء الذين لا يعرفون من الحياة شيئاً، ولا يدرون ما ينفعهم ولا ما يضرهم.

وإن كثيراً من أجيال المسلمين اليوم في عدد من بلاد الإسلام لم يجدوا في والديهم إلا الحنان المحض.. ومن أجل ذلك تجد في صفات كثير من مسلمي اليوم الميوعة

والضعف والانهزامية واللامبالاة[1].

وعندما كان الرجل في سابق الأيام مسيطراً على البيت، كانت شدته وصلابته تخففان من لين الوالدة، وتكفكفان من تدليلها الأولاد.. أما بعد أن استنوق الجمل في كثير من الأوساط، وأصبح الرجل في بيوت هذه الأوساط لا مهمة له إلا القيام بالخدمات، وجلب الأغراض والحاجيات، ودفع الفلوس والنفقات، ولم يعد يملك من أمر بيته إلا اليسير التافه كان هذا الجيل المائع المنهار.

كان الإسلام في أحكامه وتشريعاته محذراً الآباء ومنبهاً إياهم إلى أمور:

منها أن البنين وإن كانوا هم زينة الحياة الدنيا إلا أن هناك ما هو خير منهم.. هناك الباقيات الصالحات قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

وتشرح آية أخرى هذا الأمر على النحو الآتي: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤-١٥].

فالجنات والأزواج المطهرة والرضوان من الله خير من كل تلك الشهوات التي

---

(١) سمعت من الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله أنّ رجلاً جاء يسترشده لتربية ابن له أو بنت ولدت حديثاً. فسأله: كم عمرها؟ قال: شهر. قال: فاتك القطار، وقال: كنت أظن في بادئ الأمر أني مبالغ، ثم عندما نظرت وجدت أن ما قلته الحق، وذلك أن الولد يبكي فتعطيه أمه الثدي. فينطبع في نفسه أنّ الصراخ هو الوسيلة إلى الوصول إلى ما يريد. ويكبر على هذا.. فإذا ضربه اليهود بكى في مجلس الأمن.. يظن أن البكاء والصراخ يوصله إلى حقه.

كان منها شهوة البنين.

وجاء في كتاب الله التنبيه على يوم القيامة بالخصوص، ذاك اليوم الذي لا ينفع هؤلاء الأولاد آباءهم شيئاً ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

إن الأولاد لا يقربون إلى الله زلفى إن لم يكن هناك عمل صالح ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ [سبأ: ٣٧].

إن الميزان يوم القيامة ميزان لا يعبأ بها تعارف عليه الناس في دنياهم من روابط وعلاقات وقيم، إن المرء لا ينفعه في ذاك اليوم الرهيب إلا ما قدم من الأعمال الصالحة ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ۚ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة: ٣].

وهكذا يتبين لنا أن في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تهديداً لمن يقدم حب الأولاد على حب الله ورسوله والجهاد، وتحذيراً من الفتنة بالأولاد وترغيباً في تربيتهم.

١- ففي الكتاب هذا التهديد الشديد والوعيد المخيف لمن يقدم أولاده في المحبة على الله ورسوله والجهاد في سبيله قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٣-٢٤].

وإنه لتهديد يخلع القلوب ويذهب بالألباب.

٢- وفيه التحذير من فتنة المال والأولاد، والتحذير من أن تلهي المرء أمواله وأولاده عن ذكر الله، فلقد ينتهي المرء أحياناً إلى الكفر بسبب ولده.. وقد ينتهي إلى

المعصية والتقصير والتقاعس عن القيام بالواجب.

فلقد رأينا في واقعنا ناساً كانوا طيبين، حملتهم عاطفة المسايرة لأولادهم على تأييد الباطل ضد الحق، ونصرة الكفرة على المسلمين؛ لأن أولادهم قد ضلوا عن سواء السبيل، وانحازوا إلى جانب الانحراف.

وقد قص الله تبارك وتعالى علينا في قصة موسى مع العبد الصالح فقال عز من قائل: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨٠- ٨١].

لقد حذرنا الله من الانسياق وراء الأولاد متخطين حدود الله، فذكر أن منهم أعداء فقال: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤-١٥]. [فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله، كما أنهم قد يكونون دافعاً للتقصير في تبعات الإيمان اتقاء للمتاعب التي تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه فلقي ما يلقاه المجاهد في سبيل الله. والمجاهد في سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير وتضحية الكثير، كما يتعرض هو وأهله للعنت، وقد يتحمل العنت في نفسه ولا يحتمله في زوجه وولده، فيبخل ويجبن ليوفر لهم الأمن والقرار أو المتاع والمال، فيكونون عدواً له، لأنهم صدوه عن الخير، وعوقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنساني العليا][1] وقد اعترف بعض المتقدمين بأن الذي له القعود عن الجهاد والحرب بناته الضعيفات فقال:

لقد زاد الحياة إليّ حباً ... بناتي أنهن من الضعاف

أحاذر أن يرين الفقر بعدي ... وأن يشربن رنقاً بعد صاف

(١) في ظلال القرآن ٢٨/ ١٢٩.

وأن يعـرين إن كسـي الجـواري فتنبـو العـين عـن كـرم عجـاف
أبانـا مـن لنـا إن غبـت عنـا وصار الحي بعدك في اختلاف[١]
ولـولا ذاك قـد سـومت مهـري وللـرحمن في الضـعفاء كـاف[٢]

وحذرنا جل جلاله من أن تلهينا أموالنا وأولادنا عن ذكر الله، وعدّ من يفعل ذلك خاسراً فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

وإننا لنبصر في واقعنا حال كثير من هؤلاء الآباء الذين تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله، كيف يخسرون الهدوء والطمأنينة، والراحة والسعادة، يخسرون ذلك في سن الشباب والكهولة.. ثم هم بعد أن تتقدم بهم السن لا يستطيعون أن يتنعموا بالأموال التي جمعوها، وقد ينساهم أبناؤهم ولا يلتفتون إليهم.

سمعت أن واحداً من هؤلاء الساقطين من الأبناء حمل أباه إلى مأوى العجزة لكيلا يضايقه أو يزعج زوجته. وأعرف آخر أرسله أبوه إلى ديار الغرب ليدرس ويعود وكان يؤثره بالمبلغ الذي يطلبه يؤثره على نفسه ودوائه وطعامه.. فلما تخرج تزوج من تلك البلاد واستقر هناك.. ولم يأت ليرى أباه على فراش المرض يودع الحياة.

أي خسران أكبر من هذا.. أما في الآخرة فإنهم صائرون إلى عالم الغيب والشهادة شديد العقاب. ولعذاب الآخرة أشد لو كانوا يعلمون.

٣- وفيه الترغيب في تربيتهم تربية إسلامية حتى يكونوا ناساً صالحين، وإنهم عندئذ سيتذكرون آباءهم بالدعوة الصالحة ويمتثلون أمر الله ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء ٢٤]. ويقول ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من

(١) وهذا معنى غير طيّب. فإنّ الله هو الرزاق ذو القوة المتين وهو لا ينسى أحداً من خلقه.
(٢) الكامل للمبرد ٣/ ١٠٨٢ ط مؤسسة الرسالة. ورغبة الأمل في كتاب الكامل ٧/ ٨١.

ثلاث صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[١].

كما جاء عنه ﷺ أن من تعهد بناته بالتربية والإنفاق كن له وقاية من النار.

عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: دخلت عليّ امرأة ومعها بنتان لها تسأل، فلم تجد عندي شيئاً غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها شيئاً، ثم قامت، فخرجت، فدخل النبي ﷺ علينا فأخبرته، فقال: «من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار»[٢].

***

وهنا أود أن ألفت النظر إلى خطأ شائع في تربية الأولاد: وهو أن الناس يظنون أن حسن التربية يقتصر على الطعام الطيب، والشراب الهنيء، والكسوة الفخمة، والدراسة المتفوقة، والظهور أمام الناس بالمظهر الحسن.. ولا يدخل في مفهوم التربية عندهم تنشئة الولد على التدين الصادق والخلق الكريم.. إن هذا لخطأ جسيم. والله لو آلت إلى هذا الولد أموال الدنيا ثم كان من أهل النار إنه لشقي.

وهكذا فإن الإسلام لم يترك الإنسان يسير وراء عاطفته سيراً غبياً.. وإنما نبهه على أنه ينبغي أن يكون اعتماده على عمله وتقواه، وحذره من أن يفتن عن دينه بسبب الأولاد، وأمره في الوقت ذاته بإعداد أولاده إعداداً إسلامياً، وجعله مسؤولاً عن ذلك.

(١) صحيح مسلم ١٦٣١ وأبو داود ٢٨٨٠ والنسائي ٦/ ٢٥١ والترمذي ٢/ ٢٩٨ وتلخيص الحبير ٣/ ٦٨ و٩٤ والأدب المفرد للبخاري.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٩٤ برقم ١٤١٨ وصحيح مسلم ٢٦٢٩ وأحمد ٣/ ١٢٠ والترمذي ٣/ ١٢٠ والترغيب والترهيب ٣/ ١٧-١٨ والنسائي.

في التربية

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

نداء علوي كريم ينادي المؤمنين آمراً لهم بأن ينهجوا سبيل الوقاية.. وقاية أنفسهم وأهليهم من النار الرهيبة الفظيعة.

وهذا النداء الذي يبدو قريباً من التهديد يفيض بالرحمة والرأفة، يأمر الله فيه المؤمنين بأن يحولوا بين أنفسهم وأهليهم وبين النار، ويصف النار وصفاً موجزاً مخيفاً.. وفي ذلك تحذير تتراءى من خلاله الرحمة الحانية التي لا تقرب منها رحمة.. إنها رحمة الله الرحمن الرحيم الرؤوف جل جلاله.

إن على المؤمنين أن يأخذوا أنفسهم بالحزم لسلوك السبيل الأقوم الذي يحقق لهم الفوز بالجنة، والنجاة من النار الموقدة بالناس والحجارة. إننا مدعون إلى أن نربي أنفسنا وذوينا، وتربية النفس لا بد لها من المراقبة والمحاسبة والنقد الذاتي الصارم كل يوم وكل أسبوع وكل شهر وكل وقت. ما أكثر تقصيرنا.. وما أحوجنا إلى الاستغفار والتوبة والمحاسبة والمراقبة.

وهذا الرسول الأعظم ﷺ يتوب إلى الله ويستغفره في اليوم مائة مرة، كما جاء في الحديث الصحيح. والتربية الناجحة هي التي تنبع من الذات، وتكون عن اقتناع تام بمضمون النهج المراد سلوكه وحملُ الآخرين عليه.

وتقديم الأنفس على الأهلين يدل على أن التربية الناجحة هي ما كانت على أساس من القدوة الصالحة.. أما الازدواج في الحياة والسلوك فهو منفّر ومدمّر لأي تربية أو مثل أعلى يدعو إليه داع.

إنّ هذه النار التي حذرنا الله منها تكاد تلتهم وجودنا الآن.. لكثرة ما نرى من المعاصي المعلنة في البيوت والأسواق، والانحراف المتعاظم في كثير من المدارس والجامعات في العالم الإسلامي ووسائل إعلامه ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

إن هذا الواقع المؤلم يضعنا وجهاً لوجه أمام هذا الأمر الإلهي الملزم، والنصح الرباني الرحيم، والتحذير العلوي المخيف ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ وتقدم نداء الذين آمنوا على هذا الأمر يوحي بأن المؤمن جدير بالأخذ بهذه الوصية ليكون مؤمناً صالحاً صادقاً.

والربط بين الإيمان والتربية من أقوى الوسائل التي تجعل التربية عميقة الجذور، عظيمة التأثير.

إنّ من أهم ما يواجه مجتمعنا الإسلاميّ اليوم المشكلة التربوية.. لأننا لم نصدر في بلادنا كلها عن تربية خاصة بنا متميزة عن غيرنا، ترتبط بالكتاب والسنة أوثق الارتباط، ولكننا نقلد غيرنا من أمم الكفر الغالبة المسيطرة.. فنسهم عن غير وعي بتضييع كياننا وتدمير مقوماتنا.

إن كل أمة من أمم الأرض لها شأن وقيمة تختص بتربية متميزة تميزها عن الأمم الأخرى، فإذا فقدت الأمة التربية الخاصة بها أضاعت هويتها وخصائصها، وقضت على مقوماتها الذاتية، وأصبحت مسخاً تقلد غيرها، لا تعبّر عن أصالة، ولا تقدم للدنيا زاداً ثميناً.

وأمة الإسلام أمة متميزة، وليس من شك في أن أجيالها التي تعاقبت على مرّ القرون كانت تُصنع على تربية ربانية ملتزمة بعقيدة الإسلام ومصادره، ذات أهداف ووسائل وأصول.

ومهمة علماء التربية اليوم الكشف عن هذه الأصول، والوسائل، والأهداف، بلغة العصر.. وإنهم عندئذٍ خليقون أن يقدموا للدنيا اليوم (نظرية) في التربية تستطيع أن تقوم بدور المنقذ في هذا العالم القلق المضطرب المشرف على الانهيار

والدمار.

ولكن هذا يحتاج إلى اعتزاز بالإسلام وعلم به وثقافة بعلوم العصر ولا سيما ما يتصل منها بالتربية وعلم النفس وعلم الاجتماع وأصالة ذاتية، وموهبة فذة، وطاقات قادرة على النهوض بهذا الأمر. إن تربية الغرب التي أثرت على أجيال المسلمين عبر القرنين الماضيين الثالث عشر والرابع عشر لم تستطع أن تعالج التأخر، والضعف والتخلف..

لقد آن لنا أن ندرك أن مناهج التربية التي تلقيناها عن الغرب مناهج غريبة عن جسم أمتنا، لا تصلح لنا، ولا تنسجم مع نظرتنا إلى الكون والحياة والإنسان.

إنّ الواقع المؤلم للمسلمين يوجب على قادة الفكر أن يراجعوا أسس التربية التي تقوم في بلادهم، وأن ينظروا نظرة ناقدة في تطور نظم التربية والتعليم عندهم. لقد سيطرت علينا في عصور التخلف في مجال التربية أمور نذكر أهمها فيما يأتي:

١- سيادة التقليد وتوقف الاجتهاد.

٢- انتشار الخرافة وأباطيل التصوف.

٣- الاهتمام بالناحية اللفظية في التعليم.

٤- الاهتمام بذكر تفاصيل أمور غيبية لا يمكن أن تعرف بالعقل.

٥- إهمال جوانب البحث التجريبي التي تلقاها الغرب عنا.

٦- التأثر الكبير بالفقر والضعف السياسي للأمة.

ثم تمّ الاتصال بالغرب ونحن على الحالة التي ذكرنا، فرأينا أمماً متقدمة في العلوم التجريبية تملك من وسائل الترفيه والتدمير ما جعلنا ننبهر ونكون قابلين لما تفرضه علينا من وسائل. لا سيما ونفوذ الغرب بدأ يتعاظم علينا منذ إجبار دولة الخلافة بالامتيازات.. ثم عندما احتل الكفار بلادنا.

لن أستطيع في هذه الكلمة أن أذكر أصول التربية الإسلامية وأهدافها ووسائلها، لأن هذا المجال له علماؤه المختصون، ولست منهم، ولأن بحثنا في الأسرة، ومعالمه

تضيق عن الاتساع للتفصيل في أصول التربية وأهدافها ووسائلها، ولكنني سأشير إلى أنّ من أهم أهدافها ابتغاء رضوان الله، وإقامة الحياة بجوانبها المختلفة على وفق شرع الله، وإلى أن من أهم أصولها العقيدة والعبادة والتشريع، وتتعاون هذه الأصول على صياغة الفرد الصالح والأسرة الفاضلة والمجتمع الأمثل.

ولهذه التربية وسائل عدة لا يمكن لإنسان واحد أن يحصرها، من أهمها البيت وجو الأسرة، والمسجد وروحه، والمدرسة وتعاليمها.

وأود أن أقف قليلاً عند كل واحد من هذه العوامل الثلاثة:

* أما البيت فهو اللبنة الأولى التي يتكون من أمثالها بناء المجتمع، وفي الأسرة الكريمة الراشدة التي تقوم على أساس حماية حدود الله وحفظ شريعته وعلى دعائم المحبة والمودة والرحمة والإيثار والتعاون على البر والتقوى.. ينشأ رجال الأمة ونساؤها.. وإن البيت المسلم في عدد من البقاع ما يزال حتى الآن القلعة المتماسكة على الرغم من كل عوامل الهدم التي يستخدمها الكفار ويتفننون في إبداعها.

* وأما المسجد فإنه أداة مهمة تساعد في صياغة الإنسان، والمسلم الصادق يكون قلبه دائماً معلقاً بالمسجد، ويستحضر روح المسجد أينما كان. ولقد كان المسجد في تاريخنا دار العبادة، ودار العلم فأعظم جامعات الدنيا كانت في المساجد، ودار الشورى ودار القضاء، ودار التحرر فأعظم حركات الفتوح التي عرفها التاريخ انطلقت من المسجد حيث كانت تجيش الجيوش، وكل حركات التحرر ضد الاستعمار والطغيان في عصرنا الحاضر كذلك انطلقت من المسجد، واسألوا إن شئتم ربوع الجزائر ومدن الشام ومصر وجبال الأفغان.

وقد أدرك أعداء الإسلام خطر المسجد فحاربوه بطرق:

من أهمها: نشر الخرافة فيه وإلباسها لباس الدين.

ومنها منع الحكام الظلمة أن تعلن فيه كلمة الحق.

ومنها منع الحلقات العلمية التي تعلم الناس العلم.

ومنها منع التوجيه السليم.

ومنها محاولة احتوائه لمصالح الحكام.

* وأما المدرسة فإنها الوسيلة العظيمة التأثير، وربما كانت - في الوقت الحاضر - أضخم وسائل التربية، وهي بحاجة إلى الاهتمام من قبل المفكرين والمصلحين المسلمين اليوم، لأن واقعها في كثير من بلدان المسلمين لا يتفق ومصلحتهم الدينية. لقد كانت الكتاتيب في تاريخنا تصوغ أبناءنا صياغة متميزة.. نعم لقد ظلت أجيال المسلمين حتى زمن قريب تتخرج بالقرآن. ولكن ذلك كله قد تغير، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

إن الإسلام العظيم جاء بالتربية الناجحة التي تبدأ من أعماق النفس.. وتبقى مستمرة للإنسان في كل مراحل عمره، توجهه وترشده في أحواله كلها وتهديه إلى سواء السبيل، وهي التربية المتكاملة التي تعالج الجوانب المختلفة. إنها التربية الرشيدة التي تصنع الأجيال المقتدرة على حمل المهمة العظمى وتسهم في بناء المجتمع الفاضل الرفيع الذي تعلو فيه كلمة الله وتسود في أنحائه الفضيلة وتتحقق فيه العدالة.

في تربية الأولاد

هذا موضوع ألفت فيه المؤلفات، وأعدت فيه كتب ضخمة، وأضحى جزءاً من علم.. ولست أذكر هنا إلّا خطرات فكرت فيها.

• إن واقعنا الذي نعيش فيه واقع مؤلم، يتطلع العلماء والغُيُرُ إلى إصلاح الخلل في جوانبه العديدة وما أكثرها، ولعلّ من أهمها تربية الأولاد.

• إن تربية الأولاد واجب لا يفهمه كثير من الناس.. وربما لا يعلم أحدهم أن عليه واجباً. وما أكثر الأشخاص الذين نراهم في دنيانا قد تنازلوا عن إنسانيتهم التي تضعهم في محل حمل المسؤولية، ورضوا أن يكونوا ناساً لا يؤثرون فيمن حولهم.. يتزوج الواحد منهم، ويأتي بعدد من الأولاد، ولا يشعر نحوهم بأية مسؤولية، ولا يعرف عنهم الشيء الكثير.

• وقد يرتقي نفر من الناس إلى مستوى أفضل من هذا فيذهب إلى أن المدرسة هي المكلفة بحمل هذه المسؤولية وحدها، ولا يعترف بأن عليه واجباً في هذا الصدد بعد أن وضعهم في المدرسة.

ولا يدري بأن عدداً من المدرسين هدامون، وبأن أكثر المناهج إنما وضعها أعداء الإسلام ليفسدوا علينا أبناءنا، وبأن عدداً من الطلبة منحرفون.. و.. و..

• نحن أفراد في أمة حمّلها الله رسالة الإسلام ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. فمن العقوق لأمتنا أن نهمل تربية أولادنا، وأن نقصر في

إعدادهم ليستطيعوا متابعة الطريق وأداء الأمانة وحمل رسالة الإسلام العظيم وخلافة سلفهم الصالح.

• وكل واحد منا يبغي الخير لنفسه في حياته، ويرجو أن يتاح له من الظروف ما يمكنه من قضاء شيخوخته بسرور واكتفاء، وأن لا يحتاج التصدق عليه، وهذا لا يتحقق للمرء في حالة كبره وفقره إلا من أبناء بررة، ولن يكون الأولاد بررة إلا بالتربية الدينية الكريمة، ومن هنا كان إهمالنا لتربية أولادنا إساءة لأنفسنا في الدنيا عندما نكون في أشد الحاجة إلى برهم ومساعدتهم ومواساتهم.

• وكل واحد منا يبغي الخير لنفسه بعد مماته، ولن يتحقق هذا إلا بأمور ثلاثة، ذكرها المربي الأعظم سيدنا رسول الله ﷺ وهي: - علم ينتفع به - وصدقة جارية - وولد صالح يدعو له[1]. فما أعظم إساءتنا لأنفسنا إن نحن قصرنا في تربيتهم وضيعنا على أنفسنا مصدراً من مصادر العمل لا ينقطع حتى بعد الوفاة.

• وينبغي أن نحذر من كل تربية دخيلة علينا. بل لا بُدّ أن تكون التربية منسجمة مع رسالة أمتنا ودينها ومثلها العليا.

وإهمال هذا كله وعدم الاهتمام به يشكل خطراً وبيلاً ماحقاً. ذلك لأن أعداءنا يهاجموننا من هذه النقطة، يريدون أن يفتنونا عن ديننا.

وعندما نضمن تربية فاضلة نضمن جيلاً مجاهداً يمسح آثار الذل والهزيمة والضعف للجيل القائم اليوم.

• إن تربية الدواجن والحيوانات أمر يعهد به إلى مختصين يعرفون واجبهم.. فكيف نفرط في حق أعظم مخلوق على هذه الأرض وهو الإنسان؟ لا بد من أن يعي كل أب وكل أم مسؤوليتهم الضخمة فيما استخلفهم الله فيه.

• الأب والأم مسؤولان عن تربية أولادهما بين يدي الله سبحانه، فقد أخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) انظر تخريجه ص١٧٤.

«كلكم راع ومسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، الرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته»[1].

فهل بعد تقرير رسول الله ﷺ تقرير؟

لنكن يا عباد الله على وعي من هذه المسؤولية فإنها بين يدي أحكم الحاكمين، ومن لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

• ومن الأمور المهمة أن يغتنم الأبوان مرحلة الصغر والتأثر لأنّ الولد في هذه السن صفحة بيضاء، ولأن كل مولود يولد على الفطرة، ثم يأتي دور الأبوين فإما أن يكون دوراً مجيداً مشرفاً شاعراً بالمسؤولية، وإما أن يكون دوراً مخرباً مفسداً لا مبالياً.

ويصعب عليهما فيما بعد أن يتداركا الأمر قال صالح بن عبد القدوس:

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولا يلين إذا قومته الخشب

وقال أيضاً:

وإن من أدبته في الصبا كالعود يُسقى الماء في غرسه
حتى تراه ناضراً مورقاً بعد الذي قد كان من يبسه

وقال عبد الله بن المخارق:

إنّ الغلام مطيع من يؤدبه ولا يطيعك ذو سنٍ لتأديب

• والأب عندما يهمل تربية ابنه وهو صغير يسيء لنفسه، لأنه عندما يهمل ولده ويتركه دون رقابة ولا توجيه فإنه يكبر على الانحراف والفساد، ويأتي بما يشين السمعة، فيجر على نفسه سوء الذكر.

بل قد يجرّ له الشتم والسبّ، كما ورد في الحديث الصحيح: «من الكبائر شتم

(١) انظر تخريجه ص٣٦.

الرجل والديه» قالوا: يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «نعم يسبّ أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»[١].

• ومن أسس تربية الأولاد أن يكون التفاهم قائماً بين الزوجين، وأن يتعاونا على التربية الفاضلة، فلا يجوز أن يتلقى الطفل أوامر متناقضة لا يدري أيها ينفذ؟ ويجد لنفسه النصير إن عصى أمر أحد والديه، بحجة طاعته أمر الآخر، لا بدّ من التنسيق والتعاون والتفاهم بين الوالدين.

• ومن أسس تربية الأولاد ألا يرى الطفل في سلوك أبويه ما يخالف النصائح التي سمعها منهما.. حتى تكون ثمرة التربية مجدية نافعة.

أما الازدواج الذي يقوم بين ما يقوله الآباء وبين ما يسلكون فهو من أكبر أسباب الانحراف التي تفسد الناشئة وتجعلهم يشكون في القيم والمثل العليا كلها.

• ومن أسس تربية الأولاد غرس الروح الدينية في نفوسهم، وتنشئتهم على المخافة من الله تعالى، فإن ذلك سبب لاستقامتهم على السبيل السويّ الفاضل. وعلى الوالدين أن يشربا الأولاد حبّ الله وحب رسوله، وأن يعلماهم قراءة القرآن، وأحكام الصلاة بصورة عملية لا قولية، وأن يبسطا لهم كل صعب في شؤون العقيدة بالمستوى الذي تدركه أفهامهم.

وموضوع الصلاة والتعود عليها أمر مهم جداً، أوجب الإسلام على الأبوين أن يأمرا الأولاد بها عندما يبلغ أحدهم سبع سنين وأن يضربوهم عليها لعشر.

• ومن الأسس الهامة في تربية الأولاد العدل بينهم، فلا يجوز تفضيل الذكر على الأنثى أو الأنثى على الذكر، ولا تفضيل واحد على واحد. وهذا رسول الله ﷺ يسأل من أراد أن يشهده على عطية أراد أن يعطيها ولده قائلاً: «أكل ولدك أعطيتهم مثل هذا؟» قال: لا. فقال: «أشهد على هذا غيري فإني لا أشهد على جور اتقوا الله

(١) صحيح البخاري ٨/ ٣ وصحيح مسلم ٩٠ ومسند أحمد ٢/ ١٦٤.

واعدلوا في أولادكم»[1].

- ومن الأسس الهامة في تربية الأولاد اختيار الرفقاء الصالحين لهم، فالرفيق ذو تأثير كبير. فعلى الأبوين مراقبة الأولاد في أصدقائهم.
- ومن أسس تربية الأولاد تعويدهم على الشجاعة والإقدام، وعلى الإيثار والإحسان، وعلى الصبر، وعلى الأخلاق الإسلامية الأخرى.
- ومن أسس تربية الأولاد مراقبتهم داخل البيت، والتفريق بين الذكور والإناث في المضاجع، والنظر في أوراقهم وجيوبهم من حيث لا يشعرون. والتصرف بحكمة وروية.
- ومن أسس تربية الأولاد تعداد الوسائل في تقويمهم، فالضرب في سنّ وعند الضرورة وبعد زوال الحدّة، ولا يجوز أن يستمر الوالد في الضرب، لأنّ ذلك مؤذ وقد يعرضه إلى إحراجات.

ومن أهم الملاحظات في هذا المجال أن يتفهم الوالد عقلية أولاده عندما يكبرون ويناقشهم، ويحترم شخصياتهم، ولا يستمر في نظرته إليهم على أنهم ما يزالون صغاراً.

وليس من شك في أن الزوجة الصالحة المثقفة تكون عوناً لزوجها على تربية الأولاد.

إن العقد النفسية تمزق صدور كثير من الشباب والشابات بسبب تصرف سيئ يقوم به أحد الأبوين، فلنتق الله في أبنائنا ولنعلم أنهم أكبادنا يمشون على الأرض.

وإن هناك واجباً على مؤسسات تكوين الرأي العام في الأمة وهي الإذاعة والصحافة والتلفزيون أن تسهم في توضيح هذه الأمور الخطيرة في تربية الأولاد،

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٣٨ وصحيح مسلم ١٦٢٣-١٦٢٤ والموطأ ٢/ ٧٥١ وأبو داود ٣٥٤٢ و٣٥٤٣ و٣٥٤٤ و٣٥٤٥ والنسائي ٦/ ٢٥٨-٢٦٢.

وتدربهم على سلوك السبيل القويم فيه.

وهناك واجب على حملة الأقلام وهو الإكثار من الكتابة في هذا الموضوع.

إن أمتنا في محنة وقد أفلس الجيل الحاضر، فهل نعمل على تربية جيل مجاهد يواجه المسؤولية ويحملها ويكتب لنا سطوراً في سجل الخلود كما فعل أسلافنا؟

إن تربية الأولاد مهمة شاقة وعظيمة، وعليها تتكون صياغة المجتمع المقبل، وكلما فسد الزمان زادت المصاعب أمام المربي الذي يرغب في التربية الصالحة.

وأهم حقوق الأبناء التي ينبغي مراعاتها في التربية هي:

١- رعاية دينهم.

٢- رعاية أخلاقهم وعاداتهم.

٣- رعاية نفوسهم.

٤- رعاية أبدانهم.

٥- رعاية عقولهم ومعارفهم.

وهذه كليات خمس في غاية الخطورة.

وإن المسؤولية كبيرة عظمى على الآباء، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] والزمان اليوم في كثير من جوانبه فاسد، ومؤسسات التوجيه في معظم بلاد المسلمين قائمة على أساس اللامبالاة أو العلمانية أو الكفر والإباحية، ومناهج التعليم في معظم بلاد المسلمين في أيدي قوم لا يعيرون هذه الكليات الخمس ما تستحق من الاهتمام.

وإن أول من يبتلى بهذه النكبة نكبة انحراف الولد عن الجادة أبوه إذ أنه سَيَعُقُّهُ.

وأود هنا أن أنبه إلى أمر غاية في الأهمية وهو:

إن كثيراً من الصالحين يشغلون عن أولادهم بأمور عامة تتصل بالدعوة، ويحسبون أنهم بذلك يقومون بخدمة جليلة، وذلك لعمر الله تقصير كبير. إن أحق الناس بتوجيهك أولادك وزوجك الذين معهم تعيش، وبهم تعرف، وشرّهم

وخيرهم مقرون بك. وقد تضطرك الأيام إلى أن تكون بحاجة إلى برهم ورعايتهم، وقد يفيدك أن تحظى بدعوة من أحدهم تخفف عنك ما أنت فيه من الضيق والكرب بعد موتك، أو تزيدك من الخير في آخرتك. من أجل ذلك أقترح ما يأتي:

١- لا بد من أن تخصهم بجلسة أسبوعية على أقل تقدير، وإن استطعت أن تكون في مدة أقل كان أحسن.

٢- إقامة حلقات للأولاد يتولاها ناس ظلهم خفيف، ودينهم جيد، وبيانهم مشرق، وإن كانت مستوياتهم مختلفة وأفردت حلقات خاصة لكل من المستوى الابتدائي والمتوسط والثانوي والجامعي فهو أفضل، «فالمرء على دين خليله»[1].

(١) وهو حديث أخرجه أبو داود ٤/ ٣٥٩ والترمذي ٣/ ٢٧٨ وأحمد ٢/ ٣٠٣ و٣٣٤ والحاكم ٤/ ١٧١.

الدعاء على الأولاد

هناك مشكلة يومية، لها أثر كبير في تربية الطفل ونشأته، وربما لا يعيرها كثير من الناس ما تستحق من الاهتمام.. إنها مشكلة الدعاء على الأولاد وتقريعهم وشتمهم، وقد يتجاوز الدعاءُ الأولادَ إلى كل من تضيق به الوالدة ذرعاً، حتى يبلغ الأمر بكثير من السيدات أن تدعو على نفسها كلما تألمت أو غضبت.

ويبدو أن هذه العادة أكثر وجوداً وأجلى وضوحاً عند النساء منها عند الرجال، وقد يشهد لذلك ما ذكره رسول الله ﷺ عندما علّل كثرة النساء في النار، فيما رواه البخاري ومسلم:

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر النساء تصدقن، فإني أريتكنّ أكثر أهل النار» فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: «تكثرن اللعن وتكفرن العشير»[1].

وقد تفننت نساء بعض البلاد العربية في اللعن تفنناً غريباً، فتسمع الدعاء الفظيع ينهال على الولد البريء الذي تصرّف تصرفاً صبيانياً لم يوافق هوى أمه ورضاها، إنها تدعو عليه أحياناً بأن يرسل الله عليه الحمّى والأوجاع المتعددة، وتدعو عليه أحياناً أن يقتل بالرصاص، أو أن تذهب به داهية الدهس، أو أن يصيبه العمى، تدعو عليه بذلك وغيره، وهو ابنها وفلذة كبدها. وهي لا تدري أنه قد توافق دعواتها ساعة الإجابة، فتندم ولات ساعة مندم، وقد قيل إن الدعوات كالحجارة التي يرمى بها هدف، فمنها ما يصيب ومنها ما يخطئ.

أيتها الأخت الفاضلة:

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٥٧ برقم ٣٠٤ وصحيح مسلم برقم ٧٩ وانظر رياض الصالحين ١٨٨٧.

ألا تعلمين أنّ هناك لحظات يستجاب فيها الدعاء؟ أفيسرك أن تتحقق دعواتك القاسية في ولدك؟ فقد جاء في الحديث الصحيح عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يُسأل فيها عطاء فيستجيب لكم»[١].

وجاء في الحديث الصحيح:

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده»[٢].

أليس الأفضل لك والأجدر بك - وقد آمنت بالإسلام- أن تترفعي عن هذا الخلق الذي كان سبباً في زيادة نسبة عدد النساء في النار كما يخبر النبي ﷺ؟

إن هذه العادة تفسد تربية الولد، وتؤذي تكوينه النفسي، وهي ليست عادة كريمة سواء كان المستهدف الطفل الصغير، أو الجارة الثقيلة، أو الزميلة المسيئة، أو أي مخلوق كان، وقد يكون من آثار هذه العادة ضعضعة البيت المسلم الذي هو اللبنة الأولى في بناء المجتمع الإسلامي المنشود.

اتقي الله أيتها الأخت الفاضلة في لسانك وصونيه، واحذري أن تعوديه الشتم واللعن والدعاء السيئ. واذكري أن رسول الله ﷺ يقول: «... وإنّ العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم»[٣].

لنعود أنفسنا جميعاً الحلم والاحتمال، والصبر والعفو، لأن الانفعال والسباب

---

(١) صحيح مسلم ٨/ ٢٣٣ برقم ٣٠٠٩ وأبو داود ١٥٣٢ وابن حبان انظر موارد الظمآن ٢٤١١.

(٢) أبو داود ١٥٣٦ والترمذي ٣/ ١١٨ وابن ماجه ٣٨٦٢ وموارد الظمآن ٤٠٦، ومسند أحمد ٢/ ٢٥٨ والترغيب والترهيب ٢/ ٢١٨-٢١٩ ورياض الصالحين ٩٨٦ وصحيح الجامع الصغير ٣٠٣١. وليس في رواية أبي داود: (على ولده).

(٣) رواه البخاري ٨/ ٨٥ ومسلم ٢٩٨٨ ومالك في الموطأ ٢/ ٩٨٥ وأحمد ٢/ ٣٣٤ و٣/ ٤٦٩ والترمذي ٣/ ٢٦١ وابن ماجه ٣٩٧٠ والفتح ١١/ ٣٠٨ ورياض الصالحين ١٥٢١.

والدعاء لا يغير من الواقع شيئاً، بل إنه قد يوغر صدور هؤلاء الأطفال علينا، وقد نخسر ودّهم وبرّهم واستقامتهم.

أيتها الأخت المسلمة.

أيها الأخ المسلم:

عودوا ألسنتكم الدعاء لمن يخالفكم من أولادكم وغيرهم بالصلاح والهداية، عودوا ألسنتكم الكلمة الطيبة، واللفظ السمح، والقول اللين، ولا بدّ لمن يريد الخير والفضيلة من أن يترفع عن تيار التقليد والسطحية والواقع السيئ.

إن الامتناع عن السب والشتم والدعاء بالشر ليخفف من الانفعال، ويصون الأعصاب من التوتر، ويدفع كثيراً من الأمراض والمتاعب، وإن البسمة الحلوة مع الكلمة الطيبة، والدعاء بالخير، إن ذلك كله أكثر تأثيراً، وأقرب إلى قلوب أولادنا الذين نريد تقويمهم، وأرجى للاستجابة.

وما أعظم قوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[1].

(١) متفق عليه وانظره في ص٨٦.

نصيحة الأولاد

إنّ من الواجب على الآباء وأرباب البيوت أن يقدموا خبرتهم وتجاربهم لأبنائهم وبناتهم، وأن يحرصوا على تقديم النصح والإرشاد لهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. ومن النافع أن تكون هذه النصائح مكتوبة موجزة.. يتأنّون في التفكير فيها.. ويحسنون التأتّي في إبلاغهم إيّاها، ولن تنفع تلك الوصايا إن لم تكن مقرونة بالسلوك العملي الذي يحياه الولد ويحسّ به ويراه بعينيه قبل أن يسمع مضمونه بأذنيه.

ومن النصائح الجميلة التي وقفت عليها نصيحة ابن الجوزيّ رحمه الله لولده، وسأختار مقتطفات منها؛ فقد قال[1]:

[اعلم يا بنيّ وفقك الله للصواب أنه لم يتميز الآدميّ بالعقل إلا ليعمل بمقتضاه، فاستحضر عقلك، واعمل فكرك، واخلُ بنفسك، تعلم بالدليل أنّك مخلوق مكلّف، وأنّ عليك فرائض أنت مطالب بها، وأنّ الملكين يُحصيان ألفاظك ونظراتك، وأنّ أنفاس الحيّ خُطاه إلى أجله؛ ومقدار اللبث في الدنيا قليل، والحبسُ في القبور طويل، والعذاب على موافقة الهوى وبيل.

فأين لذة أمس؟ رحلت وأبقت ندماً!!

وأين شهوة النفس؟ كم نكست رأساً وأزلت قدماً!!

وما سَعِد من سَعِد إلا بخلاف هواه، ولا شقي من شقي إلّا بإيثار دنياه. فاعتبر بمن مضى من الملوك والزهاد: أين لذة هؤلاء؟ وأين تعب أولئك؟ بقي الثواب الجزيل، والذكر الجميل للصالحين، والقالة القبيحة والعقاب الوبيل للعاصين.

(١) انظر "لفتة الكبد إلى نصيحة الولد". لابن الجوزي بتحقيق د. مروان قباني، طبع المكتب الإسلامي.

وكأنه ما جاع من جاع ولا شبع من شبع.

والكسل عن الفضائل بئس الرفيق. وحبّ الراحة يورث من الندم ما يربي على كل لذة فانتبه واتعب لنفسك.

واعلم أن أداء الفرائض واجتناب المحارم لازم، فمتى تعدّى الإنسان فالنار النار].

أقول: والعجب العجاب أن كثيراً من الآباء يقلقون أشدّ القلق إذا أصابت الحمّى واحداً من أولادهم، أو اعتراه اصفرار في اللون، أو جُرح عضو منه، ولا يبالون وهم يرون هؤلاء الأولاد موغلين في المعاصي التي تنتهي بهم إلى النار والعياذ بالله.

إن مرض الروح عواقبه وخيمة، لأن آلامه لا تنتهي بمدة يرزح فيها المرء تحت وطأة المرض.. بل يقضي عليه مرض الروح بالخلود في نار جهنم أو البقاء فيها آماداً.. يعانون العذاب المميت ولا موت، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها. ومن هنا كان تحذير هذا الإمام لولده من النار دليلاً على صدق إيمانه ووعيه ومحبته لابنه.

وربما يصل الأمر ببعض الآباء الحمقى أن يسهلوا لأولادهم سبيل الفجور والانحراف، والوقوع في شباك الشيطان.. نسأل الله لنا ولكم العافية، والبصيرة المستنيرة، والوعي المدرك، ثم قال ابن الجوزي مخاطباً ابنه:

[ثم اعلم أن طلب الفضائل نهاية مراد المجتهدين، ثم الفضائل تتفاوت، فمن الناس من يرى الفضائل الزهد في الدنيا.

ومنهم من يراها التشاغل بالتعبّد.

وعلى الحقيقة فليست الفضائل الكاملة إلّا الجمع بين العلم والعمل، فإذا حصلا رفعا صاحبهما إلى تحقيق معرفة الخالق سبحانه وتعالى، وحرّكاه إلى محبته وخشيته والشوق إليه، فتلك الغاية المقصودة.

وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم[1]، وليس كل مريد مراداً، ولا كل طالب واجداً، ولكن على العبد الاجتهاد، وكل ميسر لما خلق له].

أقول: وهذا أمر مشاهد ملموس، فالخير كل الخير في العلم والعمل، والانحراف والضلال في الجهل والتقصير.

وداء الجهل بالدين وأحكامه داء زاد خطره في كثير من ديار المسلمين، عندما تخلّى العلم عن الدين، وانتشرت العلمانية المجرمة في معظم أصقاعهم، ولا قوة إلا بالله فترى المثقف الحامل للشهادات العالية جاهلاً بأحكام الدين جهلاً مطبقاً، ويحسب نفسه أنه فاهم عالم... إنّ الغلاة والمتهاونين يلتقون في هذه الصفة الذميمة: وهي صفة الجهل بحقيقة هذا الدين وأحكامه.

إنّ العلم يعصم صاحبه من الزيغ، ولكنه ينبغي أن يتبعه العمل، ورحم الله سفيان الذي قال: "العلم إن لم ينفعك ضرك" ونفعه بالعمل بمقتضاه، وضرره بعقوبة تاركه ومقت الله له ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣].

إن العناية بالعقيدة، والتزام المرء بمبادئ الدين عن اقتناع ووعي، وتصوّر المسؤولية بين يدي الله تبارك وتعالى، وإدراك الدنيا ولذاتها على حقيقتها كل ذلك مما يقي العبد الزلات، ويجنبه العاقبة السيئة، ويصونه من عذاب النار.

ثم يلي ذلك العلم المقرون بالعمل.

---

(١) هذا شطر بيت للمتنبي. وهو:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وبعده:

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

وانظر القصيدة في ديوان المتنبي تحقيق عزام ص٣٧٤.

أيها الآباء:

إن مسؤوليتكم لعظيمة، فلقد وضع الله هؤلاء الأولاد تحت أيديكم ورعايتكم واعلموا أنّ مما يفيد المرء بعد وفاته الولد الصالح يدعو له.

إن على الآباء النصيحة لأبنائهم، ولقد قال رسول الله ﷺ:

«الدين النصيحة» قلنا: لمن يا رسول الله؟.

قال: «لله ورسوله وكتابه وأئمة المسلمين وعامتهم»[1].

ومن أعظم ما يوصي به الآباء أبناءهم الحرص على الوقت. فالوقت هو الحياة، والحياة رأس مال المسلم، فإمّا أن يكون رابحاً وإما أن يكون خاسراً. إن الذي يبدّد رأس ماله دون تخطيط ولا إفادة مشرف على الخسران والإفلاس المحقق، وكذلك شأن المسلم الذي يضيع أوقاته دون أن يستفيد منها في أمر دينه ولا يعمل للآخرة.

ومن الوصايا الحسنة أن يُنبّه الأولاد إلى علوّ الهمة، وإلى السيطرة على النفس، والرجل حقاً هو من استطاع أن يتغلب على نفسه وهواه.. من الخطوة الأولى، ذلك لأنّ هذه النفس إذا سيطرت على صاحبها لم يستطع بعد ذلك أن يقودها إلى خير أبداً. ولله درّ القائل:

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

ورحم الله القائل:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

إن النفس طوع يدك وأنت في مقتبل عمرك، تكيفها حسب ما شئت، ولكنك إن أهملتها شبت على الدعة والاسترخاء، والراحة واللامبالاة.

ولتكون الوصايا مؤثرة آخذة طريقها إلى التطبيق والتحقيق، لا بدّ من أن تعاون الوالدة الوالد في عملية الإقناع والتأثير. أما إذا كانت الأم لسوء طويتها أو لحماقة

---

(١) صحيح مسلم ٥٥ والترمذي ٣/ ١٢٣ وأبو داود ٤٩٤٤ ومجمع الزوائد ١/ ٨٧ وانظر «الدرر» بتحقيقنا ٢٣١ ومختصر المقاصد بتحقيقنا ٤٧٠ ورياض الصالحين رقم ١٨٦.

متأصلة فيها، تخالف الرجل كلما سمعته يوصي أولاده، وتسفه رأيه وتردّ عليه بأن هذه المعاني مُثُلٌ خيالية لا وجود لها في عالم الواقع، وبأن الزمان جاوزها وجعلها أساليب عتيقة متروكة، إذا كانت الأم كذلك فلا فائدة ترجى من النصيحة. وتبرز هنا قيمة المرأة الصالحة، وتقع المسؤولية أيضاً على الرجل في اختياره السيئ لشريكة عمره وقرينته.

إنّ تعاون الزوجين وانطلاقهما بحماسة إلى تأصيل المعاني الإسلامية، وصياغة نفوس أبنائهما على الوجه الإيجابيّ البناء، هو الذي يمكن للنصيحة من أن تؤتي أكلها وتحقق المقصود.

ومن الأمور التي لا بدّ من تأكيدها للأولاد اللجوء إلى الله تبارك وتعالى. قال ابن الجوزي:

[وقد عرفت.. أنّ الهمة مولودة مع الآدمي، وإنما تقصّر بعض الهمم في بعض الأوقات، فإذا حُثّت سارت.

ومتى رأيت في نفسك عجزاً فسل المُنعم، أو كسلاً فالجأ إلى الموفّق، فلن تنال خيراً إلا بطاعته، ولا يفوتك خير إلا بمعصيته.

فمن الذي أقبل عليه فلم ير كل مراد؟

ومن الذي أعرض عنه فمضى بفائدة أو حظي بغرض من أغراضه؟].

وقال:

[وينبغي أن تسمو همتك إلى الكمال، فإنّ خلقاً وقفوا مع الزهد، وخلقاً تشاغلوا بالعلم، وندر أقوام جمعوا بين العلم الكامل والعمل الكامل]..

[وإياك أن تقف مع صورة العلم دون العمل به، فإنّ المقبلين على أهل الدنيا قد أعرضوا عن العمل بالعلم فمنعوا البركة والنفع به.

وإياك أن تتشاغل بالتعبد من غير علم، فإن خلقاً كثيراً من المتزهدين والمتصوفة ضلوا طريق الهدى إذ عملوا بغير علم].

وقال:

[واستر نفسك بثوبين جميلين، لا يشهرانك بين أهل الدنيا برفعتهما، ولا بين المتزهدين بضعتهما].

أقول: وهذا أمر مهم جداً فإنّ الناس في اللباس بين مفرط ومفرّط، فهناك من يتبذل في ملابسه رغبة منه في أن يثني عليه الناس المتدينون، ويظنوا به فقراً فيعطوه من العطايا ما يعطونه الفقراء والمساكين، وهناك من يسرف في التأنق في اللباس، واختيار ما يلفت النظر ويثير الإعجاب، وكلا الفريقين مخطئ. وأدب الإسلام في اللباس يقتضي أن يكون موافقاً السنة، مجانباً لما نُهي عنه، ولا يبتغي صاحبه شهرة بين أهل الدنيا ولا بين المتزهدين.

ومن الوصايا النافعة أن نجعل أولادنا يشعرون بمسؤوليتهم، ولقد أوصى سيدنا عمر أن نحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب. وفي ذلك يقول ابن الجوزي: (وحاسب نفسك عند كل نظرة وكلمة وخطوة، فإنك مسؤول عن ذلك)

إننا عندما نستطيع أن نربي في الفتى والفتاة هذا الخلق، وهو محاسبة النفس والشعور بالمسؤولية، نكون قد نجحنا في التربية أوسع النجاح وأقصاه.

إن من أعظم أسباب تدهور المستوى الأخلاقي في كثير من شبابنا، غياب معنى المحاسبة، وفقدان الشعور بالمسؤولية، وسيطرة اللامبالاة على فكرهم وتصرفاتهم.

وإذا كان أحد أبنائنا متطلعاً إلى الدعوة والتأثير في الناس، فلندعُه أولاً إلى تطبيق ما يدعو الناس إليه. وفي ذلك يقول ابن الجوزي:

(وعلى قدر انتفاعك بالعلم ينتفع السامعون، ومتى لم يعمل الواعظ بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل الماء عن الحجر).

إنّ من أهم ما ينصح به الأولاد معرفة قيمة الوقت. لا سيما في هذا الزمان الذي كثرت فيه مبيدات الوقت، من وسائل الترفيه والعبث. تمرّ الأيام سريعاً دون أن نحسّ بمرورها، وحصيلة ما قدمنا فيها شيء تافه أو لا شيء.

فلنحذر أبناءنا من إضاعة أوقاتهم دون فائدة تعود عليهم في دينهم أو دنياهم.

إنّ الوقت يتسع لأمور كثيرة إن صدقنا في العمل وأحسنّا الاستفادة منه وتوزيعه، ما أكثر أعمال البرّ، وما أوفر القربات التي يمكن أن نملأ بها أوقاتنا.

ويعجبني قول ابن الجوزي رحمه الله لابنه:

(يا بني انتبه لنفسك، واندم على ما مضى من تفريطك، واجتهد في لحاق الكاملين ما دام في الوقت سعة.

واسق غصنك ما دامت فيه رطوبة.

واذكر ساعتك التي ضاعت، فكفى بها موعظة. ذهبت لذة الكسل فيها، وفاتت مراتب الفضائل. وقد كان السلف الصالح رحمهم الله يحبون جمع كل فضيلة، ويبكون على فوات واحدة منها.

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: دخلنا على عابد مريض وهو ينظر إلى رجليه ويبكي. فقلنا: مالك تبكي؟ فقال: ما اغبرّتا في سبيل الله.

وبكى آخر، فقالوا: ما يبكيك؟ فقال: على يوم. مضى ما صمته، وعلى ليلة ذهبت ما قمتها.

واعلم يا بني أن الأيام تبسط ساعات. والساعات تبسط أنفاساً، وكل نفس خزانة. فاحذر أن يذهب نفس بغير شيء، فترى في القيامة خزانة فارغة فتندم).

وأشدّ الناس حاجة إلى الوقت الشباب والفتيان: الذكور والإناث، لأنهم يكوّنون أنفسهم، ويستكملون ثقافتهم ومعرفتهم، ويبنون شخصياتهم وعقلياتهم، ولو أراد الواحد منهم أن يصرف كل لحظات يقظته في عمل هو بحاجة إليه لما كفتهم الساعات الأربع والعشرون في اليوم.

إن هذا الإطراق والاستغراق في أحلام اليقظة، والمشاركة في العبث والثرثرة، كل ذلك مما يهدد مستقبل الشباب والشابات بأكبر نذر الخطر. ولسنا نريد حرمانهم من المتعة.. ولكن الخطر أن تكون الحياة كلها مقضية في المتع. وقد كان السلف

يغتنمون اللحظات والدقائق فلا يضيعون منها شيئاً.. لقد كانوا فرسان النهار رهبان الليل.

لقد كان بعضهم يختم القرآن كل سبعة أيام مرة، وبعضهم يختمه في ثلاثة، وكان بعضهم ينصرف إلى التأليف والكتابة والمطالعة والبحث، وكان بعضهم يصلون الليل كله وما استطاعوا من النهار.

قال ابن الجوزي:

(قال رجل لعامر بن عبد قيس: قف أكلمك فقال: امسك الشمس).

وفي الحديث: «من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له بها نخلة في الجنة»[1]

فانظر إلى مضيع الساعات كم يفوته من النخيل.

وللأوقات خصائص فعليك يا بني أن تستفيد من الأوقات وفق خصائصها، فأول النهار وقت نشاط وحيوية وإبداع فلا تضيعه بالنوم أو العبث، عوّد نفسك على الاستيقاظ في هذا الوقت المبكر، فإنك إن تعودت ذلك في شبابك سهل عليك القيام إلى الصلاة في حياتك كلها، ثم كنت قادراً على أن تفيد من هذا الوقت أعظم الفائدة.

وتنظيم الوقت يتيح لك التكامل في جوانب الحياة، فللنوم وقت، وللزيارة وقت، وللمتعة وقت، وللعمل الجادّ وقت، وللعبادة وقت.

إنّ أكبر ثروة يمكن أن يمتلكها إنسان موهوب هي استفادته من وقته وتنظيمه له.

يا أخي المسلم ويا أختي المسلمة لا يكن لليأس إلى قلوبكما سبيل إن كنتما ممن لا يبالون بالوقت ولا يرعونه حق الرعاية.. فلنبدأ من اليوم نلزم أنفسنا بالاهتمام

---

(١) الترمذي ٤/ ٢٤٩ وموارد الظمآن ٢٣٣٥ والمستدرك ١/ ٥٠١ ومسند أحمد ٣/ ٤٤٠ ومجمع الزوائد ١٠/ ٩٤ والترغيب والترهيب ٢/ ١٨١ ورياض الصالحين ١٤٤٦ وصحيح الجامع الصغير ٦٤٢٩.

بالوقت ونحمل أبناءنا على ذلك حملاً.

ولنحذر من علة التأجيل والتسويف والتأخير، إنّ ذلك يرهقنا ويفسد أعمالنا: يعلم الطالب من أول العام موعد الامتحان فلماذا لا يستعدّ للقائه من أول يوم من العام الدراسي.. إنه لو فعل كان متقناً مجيداً، ودخل الامتحان هادئ الأعصاب مستريحاً، بل إنه ليكون سعيداً مسروراً.. أما الذي أجّل الدراسة والمذاكرة إلى ما قبل الامتحان فإنه يشقى ويتألم ويسهر ويتعب، ثم لا يكون قادراً على الاستيعاب، فتتداخل المواد في ذهنه، ولا يستطيع النجاح.

وتعلم سيدة المنزل أن موعد الغداء في الساعة الثانية.. فلماذا تتلهى وتتقاعس حتى إذا ما رأت الساعة اقتربت من الثانية قامت إلى إعداد الطعام.. فتشقى وتتعب وتتأخر، وتؤخر مصالح أفراد الأسرة وقد يفسد ما تعده فلا يصلح.

إن الوقت هو الحياة.. وهو رأس مال المسلم، فالسعيد من ينجي نفسه بأن يفيد من هذه الحياة.

يقول رسول الله ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[1].

وقال ابن الجوزي: (وأدّ إلى كل ذي حق حقه من زوجة وولد وقرابة، وانظر كل ساعة من ساعاتك بماذا تذهب؟ فلا تودعها إلا أشرف ما يمكن، ولا تهمك نفسك، وعوّدها أشرف ما يكون من العمل وأحسنه، وابعث إلى صندوق القبر ما يسرك يوم الوصول إليه كما قيل:

يا من بدنياه اشتغل وغرّه طول الأمل
الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل

(١) وهذا الحديث قطعة من حديث سبق تخريجه ص١١١ وأوله «الطهور شطر الإيمان» فانظره هناك.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

صلة الأرحام

إن مما يميز المجتمع الإسلامي الفاضل عن غيره من المجتمعات تماسكه وبناءه المتين، وكان ذلك بتماسك الأسرة، وترابط الأفراد، وتعاونهم على البرّ والتقوى، وتناصحهم في الخير، ولقد أدرك أعداء الإسلام ذلك، وعرفوا أنّه لا سبيل إلى السيطرة على بلاد المسلمين ما لم يزعزعوا هذا البنيان المتماسك، فراحوا يخططون لإفساده عن طريق الشهوات والمعاصي، وعن طريق الثقافة ومناهج التعليم، وعن طريق الغزو العسكري، والغزو التبشيري.

ولكن الأسرة المسلمة في عدد من الأصقاع ما زالت - بفضل الله- حصناً منيعاً وقلعة صامدة في وجه هذا التخطيط والغزو، وما زالت هذه الأسرة تُمدّ المسلمين بالقادة والموجهين والمفكرين والمعلمين، والدعاة المصلحين، يحملون مشاعل الهداية، ومصابيح النور إلى أبناء أمتهم وإلى الناس أجمعين.

والإلحاح من الكفار على إفساد الأسرة والتركيز على ذلك كبير، ولكن قوة الروابط وعمقها في داخل النفوس، على مرّ الأجيال، وتأثير الحنان والودّ والعاطفة المتوقدة.. كل ذلك عطل من جدوى هذا الإلحاح وذاك التركيز.. إلى أن ظهرت وسائل الإعلام والترفيه، فبدأت - مع الأسف الشديد- تحرز محاولاتهم نصيباً من التقدم، وأعانهم على ذلك قيام نفر من أبناء المسلمين بتحقيق أهداف الكفار فينا بمناهج التعليم وبالقوة.

ومن هنا وجب على العلماء والدعاة إلى الله أن ينبهوا على أهمية صلة الرحم والإبقاء على تماسك الأسرة.

ويحسن بنا أن نشرح معنى الرحم ومعنى صلة الرحم أولاً.

قال الراغب الأصفهاني: [الرحم رحم المرأة... ومنه استعير الرحم للقرابة لكونهم خارجين من رحم واحدة.

يقال رَحِمٌ ورُحْم قال تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١].

وهناك صلة بين الرحم والرحمة كما دلّ على ذلك الحديث الذي رواه عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: أنا الله وأنا الرحمن. خلقت الرحم، وشققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته» أو قال: بتتُّه[1].

والمراد بالرحم الأقرباء في طرفي الرجل أبيه وأمه.

ومعنى صلة الأرحام -كما قال ابن كثير-: [الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال].

ويدخل في الصلة النفقة، والزيارة، وتفقد أحوال الأقارب، والعناية بتعاهدهم في أوقات ضروراتهم، وترك التغافل عن ذلك، ومساعدتهم إن كانوا بحاجة، وإغاثة الملهوف منهم، والسعي في مصلحتهم.

وليس من شك في أن الأرحام درجات، فالوالدان أعلاها، ثم المحارم، ثم الأقرب فالأقرب، فكل ما يشمله ويعمه كلمة الرحم تجب صلته على كل حال، سواء قابل هذا القريب المواصلة بمثلها أم قابلها بالقطيعة.

ومواصلة النساء والأرامل والضعفاء من الأرحام أوجب. وقد قال العلماء:

والرحم التي يحرم قطعها هي قرابات الرجل من جهة طرفي آبائه وإن علوا، وأبنائه وإن نزلوا، وما يتصل بالطرفين من الأخوة والأخوات، والأعمام والعمّات، والأخوال والخالات، وما يتصل بهم من أولادهم برحم جامعة.

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ١٩١ و١٩٤ والترمذي ٣/ ١١٨ وابن حبان وانظر موارد الظمآن ٢٠٣٣ وانظر تفسير ابن كثير ٤/ ١٧٩ والترغيب للمنذري ٣/ ١٤٦ وانظر تعليقه على رواية الترمذي.

وصلة الرحم تترك أثراً عظيماً في الأمة، ولقد بقيت أمتنا محافظة على هذا الخلق الكريم أتم المحافظة. فللأبوين منزلة عالية، فطاعتهما وبرهما والإحسان إليهما واجب من أعظم الواجبات، والإخوة والأخوات، والأعمام والعمّات، والأخوال والخالات، لهم حقوق ترعى. وينشأ عن ذلك كله ترابط اجتماعي رائع.. ترابط يميزنا عن الأقوام الآخرين، ويرفعنا إلى مستوى لا يمكن أن يصلوا إليه. ويحقق قيام مجتمع تقوم بين أفراده وشائج التعاون والاتحاد والمحبة والإيثار، وهذا يعينه على حمل رسالته للدنيا وأدائها، ويمكّن له المنعة والقوة، فلا يستطيع الأعداء تهديمه أو إذلاله.

ومن هنا ربط الإسلام بين صلة الرحم والإيمان.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[1].

أمور ثلاثة تحقق التعاون والمحبة بين الناس وهي: إكرام الضيف، وصلة الرحم، والكلمة الطيبة.

وقد ربط الرسول ﷺ هذه الأمور بالإيمان، فالذي يؤمن بالله واليوم الآخر لا يقطع رحمه، وصلة الرحم علامة على الإيمان الكامل، وقطعها علامة عن نقص الإيمان أو عدمه.

بل لقد جعل القرآن الكريم قطع الرحم صفة من صفات الكفار قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ

(١) انظر ص٨٦.

مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة ٢٦-٢٧].

فقد جعل الله من صفات الفاسقين الخاسرين الضالين قطع ما أمر الله به أن يوصل، ومن ذلك صلة الأرحام.

إنَّ هذا دليل على رفعة شأن صلة الأرحام في الإسلام.

قال تعالى:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١]. قال الضحاك: واتقوا الله الذي تعاقدون وتعاهدون به، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ولكن بروها وصلوها[1].

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يُبسط له في رزقه ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه»[2].

كل الناس يسرهم أن يُوسع لهم في الرزق، ويؤخر لهم في آجالهم، لأنّ حب التملك وحب البقاء غريزتان من الغرائز الثابتة في النفس الإنسانية.

إذن فصلة الرحم سبب من اسباب البسط في الرزق والطول في العمر، وهذا مرغوب في كل زمان ومكان. والناس مدعوون إلى صلة أرحامهم، وقد مرَّ بنا حديث صحيح يجعل صلةا لرحم علامة من علامات الإيمان بالله واليوم الآخر.

وروى عبدالله في زوائد المسند والبزاز بإسناد جيد والحاكم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ: أنه قال: «من سرَّه أن يمد له في عمره ويوسع له في

---

(١) ابن كثير ١/ ٤٤٨.

(٢) البخاري ٣/ ٤٩ بلفظ (من سره) ومسلم ٢٥٥٧ وأبو داود ١٦٩٣ وفتح الباري ١٠/ ٤١٥ والترغيب والترهيب ٣/ ١٤٤ ورياض الصالحين ٣٢٤.

رزقه، ويدفع عنه ميتة السوء، فليتق الله وليصل رحمه»[١].

وفي هذا الحديث زيادة عن حديث أنس وهي أن صلة الرحم تدفع ميتة السوء.

وأورد أبو يعلى – بإسناد جيد كما يقول المنذري[٢]– عن رجل من خثعم قال:

أتيت النبي ﷺ وهو في نفر من أصحابه فقلت:

– أنت الذي تزعم أنك رسول الله؟

– قال: نعم.

– قلت: أي الأعمال أحب إلى الله؟

– قال: الإيمان بالله.

– قال: قلت: ثم مه؟

– قال: صلة الرحم.

– قال: قلت: يا رسول الله ثم مه؟

– قال: ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

– قال قلت: يا رسول الله أي الأعمال أبغض إلى الله؟

– قال: الإشراك بالله.

– قال قلت: ثم مه؟

– قال: قطيعة الرحم.

قال قلت: ثم مه؟

قال: الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف[٣].

إنَّ هذا الحديث يبين لنا منزلة صلة الرحم، فأحب الأعمال إلى الله الإيمان بالله

---

(١) المستدرك ٤/ ١٦٠ ومجمع الزوائد ٨/ ١٥٠ والترغيب والترهيب ٣/ ١٤٤.

(٢) في الترغيب والترهيب ٣/ ١٤٤.

(٣) انظر «مجمع الزوائد» ٨/ ١٥١ وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير نافع بن خالد الطاهي، وهو ثقة، فالحديث قوي الإسناد.

وتأتي بعدها صلة الرحم.

مساكين أولئك الذين يقطعون أرحامهم.. مساكين حقاً لأنهم يقعون في سخط الله، ويكونون سبباً لإشعال نار العداوة والبغضاء بين الأهل والأقارب. ويحرمون أنفسهم من هذا الثواب العظيم الذي جعله الله لمن يصل رحمه.

ومما يزيد في شناعة القطيعة أن تكون من أجل عرض من الدنيا قليل، أو كلمة قيلت، أو بلغته ولم يتحقق من صدقها.

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها» رواه البخاري واللفظ له وأبو داود والترمذي[1].

إنَّ المرء إذا زاره قريبه فرد زيارته ليس بالواصل، لأنه يكافئ الزيارة بمثلها، ولكن إذا ساعده في أمر أو سعى له في شأن أو قضى له حاجة فرد له ذلك بمثله لم يكن واصلاً. بل هو يكافئ.

لكن الواصل حقاً هو الذي يصل من يقطعه، ويزور من يجفوه، ويساعد من لم يساعده من أقربائه، ويحسن إلى من أساء إليه من هؤلاء الأقارب، إن الذي يصل أهله وهم يقطعونه هو الواصل، وهو الذي يكسب الثواب، أما أولئك المقاطعون المسيئون فيكسبون الإثم.

أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله إنّ لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ، وأحلم عليهم ويجهلون عليّ.

فقال ﷺ: «إن كنت كما قلت فكانما تسفهم المَلَّ، ولا يزال معك من الله ظهير

(١) البخاري (الفتح ١٠/ ٤٢٣) وأبو داود ١٦٩٧ والترمذي ٣/ ١١٨ ورياض الصالحين ٣٢٧ والترغيب والترهيب ٣/ ١٤٧.

عليهم ما دمت على ذلك»[١].

والملّ الرماد الحار.

قال النووي: يعني: كأنما تطعمهم الرماد الحارّ، وهو تشبيه لما يلحقهم من الإثم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم، ولا شيء على هذا المحسن إليهم، لكن ينالهم إثم عظيم بتقصيرهم في حقه وإدخال الأذى عليه.

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي ذوي أرحام أصل ويقطعون، وأعفو ويظلمون، وأحسن ويسيئون. أفكافأتهم؟

قال ﷺ: «لا. إذن تتركون جميعاً، ولكن جُدْ بالفضل، وصلهم، فإنه لن يزال معك ظهير من الله ما كنت على ذلك»[٢].

هذا الحديث عزاء لكثير من الناس الذين ابتلوا بأقارب شرسين شريرين يقابلون الحسنة بالسيئة.. إن هؤلاء الشرسين هم الخاسرون.

وتشجيع للمحسنين من الناس أن يستمروا على طريقهم الخيّر الفاضل فإن الله مناصرهم ومثيبهم.

***

دعت آيات الكتاب الكريم وأحاديث النبي ﷺ إلى صلة الرحم، ورغبت فيها أعظم الترغيب، وكان الترغيب دينياً ودنيوياً.

ولكن الإسلام -على عادته- في معالجة الأمور جمع إلى الترغيب الترهيب، ووضع الروادع والزواجر إلى جانب الإرشادات والأوامر.

فمن النصوص التي تُرهب من هذه الكبيرة وهي قطع الرحم قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ

(١) مسلم ٢٥٥٨ والترغيب ٣/ ١٤٧ ورياض الصالحين ٣٢٣.

(٢) مسند أحمد ٢/ ١٨١.

عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ [محمد ٢٢-٢٣] فقاطع الرحم ملعون كما يفهم من هذه الآية القرآنية الكريمة.. وأخبر عن حال القاطعين المنحدرة.. لقد أصم الله آذانهم عن سماع الحق، وأعمى أبصارهم عن رؤية الصراط السوي المستقيم، الذي ينتهي بسالكه إلى الجنة والنعيم المقيم، فهم صم عمي لا يعقلون مصلحتهم.

ومن هذه النصوص ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «الرحم متعلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله»[1].

وقد استجاب الله لها، فمن قطع رحمه تعرض إلى قطع الله إياه، وإنه لأمر تنخلع له القلوب، أن يقطع الله جبار السماوات والأرض عبداً ضعيفاً.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم، قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة.

قال: نعم . أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟

قالت: بلى

ثم قال ﷺ: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾[2].

وما أسوأ حال من يقطعه الله.

ولقد جاء في عدد من الأحاديث أن عقوبة قاطع الرحم تعجل له في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

فمن ذلك ما رواه أبو بكرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ما من ذنب

---

(١) صحيح مسلم ٢٥٥٥ وقال المنذري عقبه رواه البخاري ومسلم.

(٢) صحيح البخاري ٦/ ١١١ صحيح مسلم ٢٥٥٤ وفتح الباري ١٠/ ٤١٧ والترغيب ٣/ ١٤٦ ورياض الصالحين ٥٢٠.

أجدر أن يعجل الله لصاحبه بالعقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»[١].

وقد رأى الناس مصداق هذا في دنيا الواقع فقاطع الرحم غالباً ما يكون مضيقاً عليه في العيش، تعباً قلقاً في الحياة، لا يستقر له وضع ولا يهدأ له بال.

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قاطع»[٢] قال سفيان: يعني قاطع رحم.

وكما تكون صلة الرحم سبباً في عمار الديار حتى عند القوم الذين يبغضهم الله قد يكون قطعها سبباً في خرابها عن ابن عباس رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليعمّر بالقوم الديار، ويثمّر لهم الأموال، ما نظر إليهم منذ خلقهم بغضاً لهم».

قيل: وكيف ذاك يا رسول الله؟

قال: «بصلتهم أرحامهم» رواه الطبراني والحاكم[٣].

* * *

ولم يبق الشرع الحكيم الأمر بهذا الواجب في حدود الترغيب الدنيوي والأخروي، بل جاوز ذلك إلى تشريع الروادع القسرية والزواجر القضائية، تقوم بها الدولة ممثلة في القاضي، لتأخذ الحق المادّي من قاطع الرحم لصاحب الحق. فمن كانت عليه نفقة لأب أو أم أو أخت أو أي قريب ولم يؤد هذه النفقة، وارتضى أن يقطع رحمه.. ألزمته سلطة الدولة قسراً بدفع النفقة، وذلك عندما يرفع صاحب الحق أمره إلى القاضي.. ويثبت ذلك فإنه يستطيع أن ينتزع حقه بسيف الدولة

(١) رواه أبو داود ٤٩٠٢ والترمذي ٣/ ٣٢٠ وابن ماجه ٤٢١١ وابن حبان وانظر موارد الظمآن ٢٠٣٩ والحاكم ٤/ ١٦٢ والمنذري في الترغيب ٣/ ١٤٨ وانظر صحيح الجامع الصغير ٥٧٠٤.

(٢) رواه البخاري ٨/ ٥ ومسلم ٢٥٥٦ والترمذي ٣/ ١١٩ وأبو داود ١٦٩٦ والمنذري في الترغيب ٣/ ١٤٨ وانظر فتح الباري ١٠/ ٤١٥.

(٣) المستدرك ٤/ ١٦١ ومجمع الزوائد ٨/ ١٥٢ والترغيب والترهيب ٣/ ١٤٥.

وسلطانها.

ولا يفعلُ هذه القطيعة إلا امرؤٌ قسا قلبه، وقلت مروءته، وانعدم إحساسه بالمسؤولية.

كيف يضطر أباه الذي كان السبب في وجوده أن يلجأ إلى المحكمة لينال حقه من النفقة، ورسول الله ﷺ يقول: «أنت ومالك لأبيك»[1] ولكن إن وجد إنسان بهذا المستوى أدّبه السلطان، وإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

وبعد فإنَّ علينا أن نصل أرحامنا لنفوز برضى ربنا، وعلينا أن نستبعد من حياتنا الأسباب التي قد تعكر صفو العلاقات الأسرية.

- علينا أن نبتعد عن كثرة المزاح، فإن كثرة المزاح قد تترك أثراً سيئاً في القلب.
- علينا أن نحسن إلى الأرحام بالعطايا والهدايا، وإن كانوا فقراء جعلنا صدقاتنا فيهم، فقد جعل الشرع المطهر لمن يتصدق على ذي رحم محتاج أجرين: أجر الصدقة وأجر صلة الرحم.
- وعلينا أن نتخير مسكناً بعيداً شيئاً ما عن مسكن الأقارب، فقد روى أن سيدنا عمر رضي الله عنه كتب إلى عماله: (مروا الأقارب أن يتزاوروا ولا يتجاوروا).

قال الغزالي: وإنما قال ذلك لأن التجاور يورث التزاحم على الحقوق، وربما يورث الوحشة وقطيعة الرحم.

والزيارة ينبغي أن تكون غبّاً. وقد جاء في الحديث: «زر غباً تزدد حباً»[2].

- وعلينا أن نتجنب كل ما يثير الاحتكاك والتأثر والخلاف، وغالب ما يثير

---

(١) أبو داود ٣٥٣٠ وابن ماجه ٢٢٩١ ومجمع الزوائد ٤/ ١٥٤ وسنن البيهقي ٧/ ٤٨١ وصحيح الجامع الصغير ١٤٨٦ ومختصر المقاصد ١٧٦.

(٢) وهو حديث صحيح انظر «المستدرك» ٣/ ٣٤٧ و«الحلية» ٣/ ٣٢٢ و«مجمع الزوائد» ٨/ ١٧٥ ومختصر المقاصد برقم ٥٠٨.

الحزازات المعاملات المادية التجارية، والزواج من القريبات. وقد رغبنا رسول الله ﷺ بأن نغترب في الزواج. إنَّ ذلك كله من الاحتياطات التي تضمن لنا حسن العلاقة بالأرحام.

- وعلينا أن نتحلى بالصبر والحلم والإيثار والكرم وغيرها من الصفات التي تقوي المحبة وتمكن من المودة، وترسخ الروابط.

في الطلاق

قال لي صاحب: كم أنا مدين بما أحس به الآن من راحة بيتية وسعادة زوجية لمبدأ الطلاق. قلت وكيف ذلك؟

قال: إن مجرد شعور المرأة بأن حُسْن علاقتها بالزوج ضمان بقائها يحملها على أن تجعل البيت جنة من جنان الخلد، يتقلب في أفيائها الرجل المستقيم الذي يريد الستر.

أما المراة الحمقاء التي لم تستطع أن تدرك أسرار الزواج وأهدافه، فإنها إذا عرفت أنها مفروضة على الرجل لسبب ما؛ أحالت سعادة زوجها إلى شقاء، وحاولت أن تنكل بزوجها المسكين تنكيلاً شديداً، وجرت على أولادهما المآسي والكوارث. وتابع صاحبي حديثه قائلاً: إنَّ لدي على صحة ما أقول أمثلة عدة، وأبدأ بنفسي فأقول:

لقد مضى على زواجنا حقبةٌ من الدهر كنت أُسرّ فيها لزوجتي بادئ الأمر أنني لن أتركها ولن أستبدل بها غيرها، وأؤكد لها هذا المعنى كثيراً ظناً مني أن ذلك يحقق ما كنت أتطلع إليه من سعادة وهناء. وكانت تدرك عجزي عن تركها فيما لو رغبتُ أنا بذلك لأسباب مادية وعاطفية ومعنوية، وأشهد أنها لم تكن شريرة ولا شرسة ولا قليلة الدين، ولكنَّ شعورها العميق بأني غير قادر على تركها جعل منها امرأة شرسة شريرة مولعة بإيذائي وإيلامي ومخالفة أمري.

قال: وظللت هكذا أعيش في جحيم، حتى كاد الأمر يقودني إلى انحراف فكري والعياذ بالله.. وكان الشيطان يوسوس لي ويقول: لو كنت – ما دمت عاجزاً عن الزواج بغيرها- تقدم على الزنا والخمر لأرحت نفسك من همومها وغمومها والتمست ما تتطلع إليه من لذة.. وكان الشيطان يقول لي: إن التزامك بالدين هو

الذي بات يهدد سلامتك النفسية والعقلية بعد أن سلب منك هناءة الحياة، ألا ترى وتسمع أن الخليلة حريصة على رضى خليلها، مسارعة في تحقيق ما يريد، فإذا أصبحت زوجة بعرف القانون والشرع بدأت تنكل وتنغص عليه حياته.

وقال: ولكني استعذت بالله من وسوسة هذا الشيطان، وقرأت شيئاً من كتاب الله، وغادرت خلوتي التي كنت فيها، ولم أقع في هذا الانحراف الخطير ولله الحمد والمنة، وكان مما رددت به تلك الوسوسة: أليس هذا الذي أعانيه ابتلاءً من الله إن أنا صبرت عليه، أثابني الله ورفع درجاتي لديه؟ أليس عذاب الآخرة أشدَّ وأبقى مما أعاني الآن؟

واستطرد قائلاً: وبقيت على تلك الحالة إلى أن شاء الله تعالى أن تتحسن أحوالي المادية وبردت عاطفتي نحوها بسبب مشاكساتها.. وأيقنت زوجتي أنني قادر على الزواج من أخرى، وأحسّت في أعماقها بهذا المعنى إحساساً صادقاً، ويومئذٍ فقط تحولت هذه المرأة إلى إنسانة لبقة لينة مؤدبة مهذبة، تسارع مرضاتي، وتروم نفسها على ما أريد.

قلت لصاحبي معلقاً على قصته: إنَّ أسرار أحكام هذه الشريعة الإسلامية.. شريعة الله لا تنضب، وكلما تقدّم الزمان عرف الناس منها ما لم يعرفوه سابقاً.. إن منزلها هو الله الذي خلق النفس، ويعرف نوازعها وأحوالها، أو لا يكفينا في هذا أنّ دول النصارى اضطرت اضطراراً إلى إقرار مبدأ الطلاق في بلادهم.

وكفى بالمخدوعين بالغرب من أبناء المسلمين خزياً أنهم يحاولون اليوم أن يحرموا شعوبهم من هذه النعمة العظيمة التي كانت سبب سعادتك كما تقول، وأسرارها أكبر بكثير مما تتصور أو يخطر ببالك.

وقاطعني قائلاً: إني أريد أن أذكر لك مثالين آخرين يؤيدان صحة رأيي فيما أعرف من حوادث.

فأصغيت إليه وهو يتكلم باندفاع وحماسة ونشوة. قال:

أعرف آذن مدرسة حط رحاله في الخمسين من العمر، ولكن آفةً جسدية نزلت

به ذهبت بقوته الجنسية فإذا هو عاجز عن أن يمارس هذه الوظيفة الحيوية، وامرأته ما تزال في مقتبل العمر لم تنته من الثلاثين إلا من أسابيع، وقد كانت معه في الماضي أطوع له من بنانه، وأحرص على سعادته من نفسه.. فلما صار إلى ما ذكرت إذا هي تتنمر وتتنكر، وتتدرج في المعارضة والمناكاة إلى أن أصبحت تهينه وتقرعه، وتؤذيه وتوبخه.. بل وتتلذذ في أن تراه ضعيفاً بعدما كان قوياً، وفي أن تأتي ما يكره، فتخرج إلى حيث لا يريد أن تخرج، وتجلس في المواضع التي يسوؤه أن تجلس فيها، وما زالت كذلك في تماديها وعدوانها وانحرافها حتى تجرأت عليه منذ أيام فهمّت بضربه.. فقام يدافع عن نفسه، وتبادلا الضرب والشتم المقذع.. وكان ذلك لأنه أبدى لها رغبة لا تروقها.

إنّ له منها ثمانية أولاد، بين بنات وبنين، وراتبه ضئيل قليل، ولو طلقها لألقت إليه أولاده وتزوجت غيره، وهو لا يستطيع أن يقوم بخدمتهم وهو غير قادر على أن يأتي بزوجة جديدة لأسباب منها فقره المدقع، وعجزه الجنسي، وزهد النساء برجل له زوجة وثمانية أولاد.. وها هو ذا يعيش في جحيم دونه كل جحيم في هذه الدنيا، ولولا بقية من دين لأقدم على الانتحار منذ حين.

قلت له مقاطعاً: إن هذا الإنسان - على أعذاره التي ذكرت- مخطئ لأنّ الإقرار على هذا الوضع خيانة لرجولته، وإساءة لذريته، كان ينبغي أن يتخلص منها وليكن ما يكون، ولن يضيع الله إنساناً مظلوماً. وللأولاد ربٌّ يكفيهم وعليه أن يسعى.. وليس ما ذكرته محققاً لهذه المرأة، فربما لو طلقها لم تتزوج، وعاشت أرملة مهجورة، وقد يحملها ذلك على الانصياع والارتداع. وماذا يستفيد من بقائها عنده وهي على حالها؟!

قال: صدقت ولكنَّ الذي أوردت من قصته يؤكد أن عدم الطلاق سبب في الشقاء وإليك مثالاً ثالثاً يختلف عما قدمت لك:

هناك شاب في ريعان الصبا، يتفجر حيوية وقوة، ويمتلئ نضرة وفتوة، وهو وسيم الطلعة، أوتي من الجمال ما تتمناه كثيرات من النساء، وهو فتى ميسور يعمل

بتوفيق وعنده سيارة.. ولكنه تزوج للمرة الثانية بعد أن طلق الأولى التي أنجبت له بنتاً... ولم يستطع أن يتزوج هذه الزوجة الجديدة إلا بعد لأي.. إذ كان كثيرون يترددون في تزويجه ثم يردونه، وظل طويلاً يبحث ويفتش إلى أن تزوج أخيراً.. فكان عازماً على أن لا يدع هذه الزوجة مهما تكن الظروف، وأحست منه ذلك.. فإذا هي تسومه سوء العذاب، وتذيقه ألوان المهانة، وتنكل به وبأهله أنواعاً من التنكيل.

فقلت لصاحبي: وهذا أشد غلطاً من سابقه.. والشاعر يقول:

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

لماذا نضيّق واسعاً؟ وقد جعل الله لنا سبيلاً للخلاص. وربنا يقول: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾ [النساء: ١٣٠]. وقلت: إنه شرع الله، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.. ولكنها القزمية التي تتلبس كثيراً من المغفلين المخدوعين.. عموا وصموا وضلوا عن سواء السبيل.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

قال تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٢٨-١٣٠].

عرفت رجلاً فاضلاً عالماً صالحاً فقيراً من علماء القرن الماضي[1]. كان معذباً في حياته الداخلية أشدّ العذاب، وجمعتني به الأيام وهو في شيخوخة بائسة، وحال

(١) من علماء الغوطة في الشام.

يائسة، فكان يتأسف بألم وحسرة على أنه لم يكن حازماً في أموره، وأنه لم يطع أمه يوم أن أمرته - وهو في شبابه ويسره- أن يترك زوجته، لأنها كانت قليلة الدين، شرسة تنكد عيشه، وهي اليوم تسومه سوء العذاب، وتنكل به أعظم التنكيل. لما تعلم من عجزه عن أن يتخذ موقفاً حاسماً.. وكان يقول: إنني أستحق هذا المصير الذي صرت إليه، وأستحق أضعافه لأنني لم أنصف نفسي عندما كنت قادراً، لم أسمع نصح الناصحين.

وقصّ عليّ رجل آخر معذب من المعذبين في الأرض قصته في حياته الداخلية، فأحزنني حاله.. لقد ذكر لي أنه ابتلي بزوجة شرسة حمقاء كسول سخيفة معقدة، تنهش قلبها عُقَدٌ نفسية مركبة.. ولكنها كانت على درجة من الحسن. كانت كأنها خضراء الدِمَن.. ولما بدأ يعاني من آلام حياته معها في أول أمره قال له أبوه:

يا بني إن كنت تحبها حباً يملك عليك قلبك ولا تستطيع فراقها فاستمرّ على العيش معها، وكان الله في عونك، فسترى في مقبلات الأيام ما يشيب رأسك ويبرح بك وينغص عليك حياتك.

وإن كنت لا تحبها ذاك الحب، أو كنت تستطيع أن تستغني عنها، فالنساء في الدنيا كثير، وأنا ناصح لك كما نصح إبراهيم ولده إسماعيل عليهما السلام بترك المرأة التي لا تصبر على شظف الحياة ولا ترضى بما قدّر الله عليها (والحديث صحيح)[1]. اتركها يا ولدي يعوضك الله خيراً منها، وأنا مستعد أن أعينك بالبحث والرأي والمادة.

قال والآهات تخنق صوته وتتردد في صدره: ولكنني أطعت قلبي وعصيت أبي. ويا ليتني أطعته.. إذن لأرحت أعصابي، وأسعدت نفسي.. ولكان لي شأن آخر. أما الآن فقد فاتني القطار وتقدم بي العمر وأصبحت أباً لرجال وشابات وجداً.. ولكنني في العذاب الأليم والشقاء العظيم ولا قوة إلا بالله.

---

(١) رواه البخاري (فتح الباري ٦/ ٣٩٦-٣٩٨ برقم ٣٣٦٤) وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٢٥٤ ط كتاب الشعب.

قلت: إن في حديث هذا الرجل المعذب، وقصة ذاك العالم البائس عظة بالغة أنقلها إلى القراء ونحن نعيش لحظات في ظلال هذه الآية ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾.

إن الطلاق لم يشرع في الإسلام ليكون يميناً تؤكد به الأخبار، ولا ليكرم به الضيوف، ولا ليحمل المخاطب على فعل شيء أو الامتناع عن شيء، فهذا انحراف كبير في استعمال هذا الأمر الشرعي.

إن الطلاق في الإسلام من أعظم الأدلة على أن هذا الدين من عند الله، ذلك لأنّ دول النصارى في الدنيا اليوم قد شرّعت في بلادها هذا الحكم مع أن دينها يحرّم الطلاق.

إن الله تبارك وتعالى لم يشرع الطلاق إلا لمصلحة عليا تشرق على الناس في مجتمعاتهم..

لماذا نمنعه.. فيكون ذلك سبباً لنعذب شخصين اثنين؟ لماذا هذا العذاب؟ ولمصلحة من يكون هذا الشقاء؟ إنّ هذه المرأة الشرسة ربما لو تركها زوجها لكان لها في ذلك تأديب، ولأحسنت عشرة الزوج الجديد.

أو ربما وجدت زوجاً مناسباً يسعد بالشراسة فيكون بينهما من الانسجام والسرور ما يحقق السعادة لكل منهما.

أيها الشباب:

أحسنوا اختيار الزوجة أولاً.

واصبروا على الترويض ثانياً.

وعاملوا زوجاتكم بالخلق الحسن والإكرام ثالثاً.

وصلوا ما بينكم وما بين الله يصلح لكم أزواجكم والناس الذين تعاشرون ولكن إذا ثبت لكم استحالة الحياة الزوجية واستمرارها فمن الإجرام بحق أنفسكم أن تستمروا في هذا الطريق. إنكم بذلك تعذبون زوجاتكم، وتؤذونهن، وتعذبون أنفسكم وتؤذونها.

إن المرأة الشابة يرغب فيها كثير من الناس أما إذا كانت ذات أولاد فقلما يرغب بها أحد.

وأمر آخر في غاية الأهمية يتجاوز الزوجين إلى الأولاد.

إن بيتاً يقوم على الشجار والخلاف لن يكون محضناً لأولاد صالحين أسوياء.. إن معظم المجرمين الفجار ينشؤون في مثل هذه البيئات المنكودة.

وإن الخلاف الذي يحطم الأعصاب يذهب بكل إمكانات العبقرية والموهبة التي يمكن أن تنتج خيراً وفائدة وبركة على الناس كلهم.

إن الطلاق لا يجوز أن يكون الخطوة الأولى في حسم الخلاف، بل لا بدّ من أن يلجأ إلى كثير من الوسائل التي حددتها الشريعة وجاءت في نصوص الكتاب والسنة، من الوعظ القائم على الكتاب والسنة ومحاكمة المنطق والموضوعية، ثم الهجر المؤقت، ثم بعد ذلك التحكيم تحكيم الأهل الذين يريدون الإصلاح.. ثم يأتي بعد ذلك التريث في اتخاذ موقف الحسم ليمضي طهرها الذي كان فيه الخلاف ويأتيها الحيض وتطهر.. فإذا استمرّ الحال على ما هو عليه من استحالة الحياة طلقها طلقة واحدة.

فالطلاق عندئذ يكون العلاج الأخير.

ومن هنا يتبين لنا مدى التأثير السيئ للأخذ بالحديث الضعيف «أبغض الحلال إلى الله الطلاق».

لا.. لم يكن الله ليبغض أمراً ثم يحلّه.

وصدق الله العظيم ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾.

إن الطلاق في الإسلام مزية من مزاياه، إن طُبِّقَ على وجهه كان إنصافاً للرجل والمرأة على حدٍّ سواء. وقد ذكرت آنفاً أنّ الأمم النصرانية في كل بقاع الأرض أخذت بالطلاق وجعلته قانوناً من قوانينها، علماً بأنّ شريعتها تحرّمه تحريماً قاطعاً. وأشرتُ إلى أن ما يردده بعض الناس على أنه حديث نبوي لا يصحُّ رفعه إلى النبي

ﷺ وهو: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[١]. وقلتُ: إنه حديث ضعيف.

إنّ مجتمعاتنا الإسلامية يوم أن كانت تحل الإسلام محل التحكيم والقيادة، والتوجيه والسيادة، لم تكن نسبة الطلاق فيها مرتفعة.. بل كانت في حدودها المعقولة الموزونة تحلّ أزمة وتفرّج كربة.

نعم لقد كان الطلاق في مجتمعاتنا المتماسكة محدوداً بالأغراض السامية التي شرع من أجلها، ومرتبطاً بالروح الفاضلة التي تقوم في أمتنا، ولم تصل نسبته إلى المقدار المروّع الهدّام.

أما عندما أخذه الغربيون عنّا فلم يأخذوه محدوداً بتلك الأغراض ولا مرتبطاً بهاتيك الروح، ولم يأخذوه بالمقدّمات التي تسبقه.. وإنما أخذوه مبتوراً فارتفعت نسبة الطلاق عندهم إلى ما يفزع ويروّع[٢].. وعدنا - بحكم تأثرنا بحضارة القوم وحياتهم- فأخذنا عنهم تلك الفوضى في وقتٍ كانت سحائب اليسر قد أمطرت جيوبنا، فلم يعد تطبيق الطلاق كما كان عند آبائنا وأجدادنا.. بل توسعنا فيه توسعاً يحتاج إلى معالجة المفكرين والمواجهين، والكتاب والمسؤولين. والحقُّ أنّ هذا الموضوع مثل أكثر الموضوعات التي تقوم في حياتنا، نجدها بين إفراط وتفريط. فإما أن يكون الطلاق عند كثير من الناس ممنوعاً مهما كان الوضع، وإما أن يكون الطلاق لأقل سبب وأيسر نزوة. والحق وسط بين هؤلاء وهؤلاء. والسبب في هذا الاختلال تخلينا عن سمات مجتمعنا وأمتنا، وقد أدّى ذلك إلى اضطراب كثير من أحوالنا.

---

(١) أبو داود ٢/ ٣٤٢ وابن ماجه ١/ ٦٥٠ والمستدرك ٢/ ١٩٦ والدرر بتحقيقنا رقم ١ ومختصر المقاصد بتحقيقنا ١٢ وضعيف الجامع الصغير رقم ٤٤.

(٢) ذكرت جريدة الشرق الأوسط أنّ نسبة الطلاق في بعض بلاد أوروبا وأمريكا تبلغ ثلث حوادث الزواج وترتفع في بعضها الآخر: ذكرت دراسة بريطانية نشرت أمس أن ثلث عمليات الزواج في بريطانيا تنتهي إلى الفشل قبل بدء السنة الخامسة من الزواج (جريدة الشرق الأوسط ٢٦/ ٥/ ١٩٧٩) وذكرت الجريدة المذكورة في ٢٠/ ١٠/ ١٩٧٨ أن الاتحاد السوفيتي كذلك.

وهناك نوعان من الغلط في استخدام الطلاق.

• أحدهما يعود إلى عادة سيئة تمليها عقلية متأخرة ألا وهي عادة الحلف بالطلاق في كل أمر يريد المتكلم تأكيده. ويذهب جمهور العلماء إلى إيقاع الطلاق.

• وثانيهما يعود إلى التأثر بعقلية الفرنجة الذين يتزوجون ويطلقون بقصد المتعة والاستكثار من اللذات.

وكلا النوعين إساءة إلى هذا الأمر الذي شرعه الإسلام، وكلاهما ينتج نتائج واحدة سيئة تعود بالضرر على الرجل والمرأة وأسرتيهما والمجتمع كله.

• إنّ الإسلام عندما شرع الطلاق ندب أتباعه إلى التروي والأناة، فلا يطلق الإنسان استجابة لنزوة غضب.. بل يتريث حتى تحيض الزوجة وتطهر.. وذلك كله يستغرق وقتاً كافياً للتروي..

فقد تكون للرجل زوجة صالحة يحبها وتحبه.. فلا ينبغي التفريط[1] بها لغلط تقع تقع فيه أو خطأ ترتكبه.. ومن ذا الذي لا يخطئ؟

إنه -إن لم يلتزم بأحكام الإسلام- يندم ولات ساعة مندم.

وفي كتب الأدب وقصص الحياة أخبارُ ناس تسرّعوا بالطلاق فندموا حين لا ينفعهم الندم، ومن أشهرهم الشاعر المشهور الفرزدق الذي طلّق زوجته نواراً فقال:

ندمت ندامة الكسعي لما غدت مني مطلقة نوار[2]

• وكذلك فإنّ الإسلام جعل الطلاق مرتين يمكن للمرء أن يراجع زوجته قبل انقضاء العدة، فإن طلقها من بعد فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره كما قال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ

(١) انظر الحديث الذي يثني فيه إبليس على الشيطان الذي يأتيه ذاكراً أنه استطاع أن يفرق بين الرجل وزوجته في كتابي «التصوير الفني» ص٢٤٣. وفي كتابنا الإنسان في القرآن ص٢٥٩ والحديث أخرجه مسلم ٤/ برقم ٢٨١٣ وأورده الترمذي مختصراً ٤/ برقم ١٩٣٧.

(٢) انظر «مختار الأغاني» ١١/ ٣٤١.

ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩-٢٣٠]. فلا يجوز له أن يتعجل فيوقع الطلاق بالثلاث.

وقد يخالف السنة في صيغته فيوقع الطلاق ثلاثاً.. ثم يأتي لاهثاً يسأل ما الحلّ؟ ويلعن الشيطان ويعلن ندمه.

وكان بإمكانه أن يتخلص من كل هذه المتاعب لو اتبع السنة!!

إن لعن الشيطان باللسان بعد الانقياد له واتباع خطواته عبثٌ لا فائدة منه ولا طائل وراءه.. إنّ لعن الشيطان الحقيقي هو في مخالفته وعدم الانقياد له وفي عدم الاستسلام لأوامره.. إنّ الذي يكيد الشيطان هو تطبيق الشرع بحذافيره.. هذا هو الذي يكيد الشيطان أما لعنه باللسان فهذا مما يزيد من عنجهيته وغطرسته. إنّ تقوى الله ومراقبته والتزام حدوده والادّراع بالصبر ومجانبة الغضب والظلم.. إنّ ذلك كله كفيل بأن يجعل كل أمر من أمور الشريعة جارياً في سبيله البنّاء الخيّر الذي يعود بالخير العميم على الفرد والمجتمع.

إنّ الزواج نعمة عظيمة من نعم الله، ومن أجل ذلك امتنّ الله على عباده في غير موضع من كتابه بالزواج. قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٢] وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

وجعل رسول الله ﷺ الزوجة الصالحة خير متاع الدنيا وذلك في قوله ﷺ:

«الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة»[١].

ولكنّه يكون كارثة عندما يكون الزوجان لا يقيمان حدود الله ولا يقفان عندها.

• تصوروا زوجاً فاسقاً شريراً، زانياً سكيراً، غليظ الكبد سيئ المعاشرة، لا يكف عن إهانة زوجته وإيذائها، لا يقوم بواجب الإنفاق، لسانه قذر، ويده لا تهدأ عن الضرب، وفكره لا يكل عن المكر.. إنّ الزواج من إنسان وصفه هذا كارثة على البنت وأهلها.

• وتصوروا زوجة فاسقة شريرة، كاذبة مبذرة، سيئة العشرة لا تكف عن إيذاء زوجها وإهانته، ولا تقوم بواجب الخدمة والرعاية، لسانها قذر، ويدها متلاف، وأفكارها وآراؤها سخيفة، ومكرها عظيم... إنّ الزواج من امرأة كهذه كارثة على الرجل وحياته.

أليس الخلاص من زواج تعيس نعمة جليلة من نعم الله عزّ وجلّ؟

من هنا كان الطلاق نعمة عظمى إن كان الزواج كارثة كما ذكرنا، هذا وكلّ أمر يحسن إن جاء في أوانه، ووضع في مكانه، وكان في محله.

ويعجبني جداً قوله عليه الصلاة والسلام: «إنّ الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة»[٢].

فالقتل إن كان قصاصاً كانت الحياة فيه كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩]. ولله درّ القائل:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مُضِرٌّ كوضع السيف في موضع الندى

• إن السلاح عندما يكون لمعاقبة المجرمين، وحماية البلاد من المعتدين يكون خيراً ومنفعة للناس يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾

---

(١) صحيح مسلم ١٤٦٧ وتلخيص الحبير ٣/ ١١٦ ومختصر المقاصد ٤٦٦ والترغيب والترهيب ٣/ ٥ ورياض الصالحين.

(٢) صحيح مسلم ١٩٥٥.

[الحديد: ٢٥]. ولكنّه عندما يكون في يد مجنون أو مجرم يكون ضرراً خالصاً وموتاً زؤاماً يروع الآمنين ويعتدي على الحرمات. والطلاق كذلك.

إن الهدم ليس كله سواء، فهو تخريب مذموم حيناً، وهو أمر محمود حيناً آخر.. بل قد يكون الهدم أفضل عمل يقوم به المرء كما لو كان البناء متصدعاً يهم بالسقوط على سكانه أو على المارة أو على من يحسبه صالحاً للسكنى فيأوي إليه. إن الهدم ههنا يؤدي مهمة مماثلة للبناء، بل إنه الخطوة الأولى في البناء المتقن.. لا يمكن الاستمرار في الإقامة إن كان البيت متداعياً مهدداً بالسقوط. وهكذا الطلاق. عندما يكون بين زوجين صالحين متفاهمين متحابين فإنه تدمير للأسرة، وتضييع للصغار الأبرياء، وقذف بهم إلى مسالك الانحراف وقد يسأل سائل: وهل يتصور أن يقع طلاق في مثل هذه الحالة؟ والجواب: نعم قد يقع لأسباب تافهة، فيقوض سعادة قائمة، ويبدد أسرة متفاهمة متعاونة.

• من هذه الأسباب نزوة غضب رعناء تستبد بالمرء فتعمي بصره، وتشلّ فكره، وتعطل محاكمته. ومن هنا كان النهي عن الغضب فقال ﷺ لمن قال له أوصني. قال: «لا تغضب»[1] وكرّر ذلك مراراً.

• ومن هذه الأسباب توجيه أصدقاء السوء السخفاء، الذين يتدخلون في خصوصيات أصدقائهم الشخصية، ويشيرون بالرأي المغلوط، وربما حملهم على هذه الإشارة الحقد والحسد والمكر. ومن هنا كان النهي عن اتخاذ أصدقاء السوء قال ﷺ: «لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي»[2].

• ومنها سوء تصرف الأم الحمقاء التي تحسّ بأن ابنها بعد الزواج قد خرج من يدها، وهي حريصة على أن يكون لها وحدها، فما تزال توغر صدر ابنها على زوجته، وتحرك فيه ميول العزوف عنها، وتبرز له معايبها، وتضخم له هذه المعايب،

---

(١) انظر ص٨٦.

(٢) أبو داود ٤٨٣٢ والترمذي ٣/ ٢٨٥ برقم وموارد الظمآن ٢٠٤٩ والمستدرك ٤/ ١٢٨ ورياض الصالحين وصحيح الجامع الصغير ٧٣٤١.

وتخفي محاسنها، وتهوّن منها، وقد تكذب فتتقول عليها ما لم تقل، وقد تذهب في تفسير تصرّف بريء وتأويل كلمة مذهباً لا تريده تلك الفتاة الصالحة البريئة، وما تزال به كذلك حتى يطلق زوجته.

إنّ بناء الأسرة مقصد عظيم من مقاصد الإسلام، فلا يرضى بهدمها إلّا عندما تكون غير محققة للغرض من وجودها، وحينئذٍ يكون الطلاق إنقاذاً وخلاصاً وخطوة نحو البناء المتماسك السليم.

لقد ذكرتْ آيتان من آيات الطلاق الواردتان في سورة البقرة ٢٢٩ و٢٣٠ حدود الله سبع مرات إشارة إلى أن الأسرة يجب أن تقيم حدود الله، وأنها لا تهدم إلا عند الظن بأنّ حدود الله لا يمكن أن تقام فيها. فلنحذر من أن نتخذ آيات الله هزواً ولنحذر من تعدّي حدود الله يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

إن التعسف في استعمال حق من الحقوق لا يجوز أن يكون سبباً لإلغاء هذا الحق.

فحق الملكية مثلاً يؤدي وظيفة اجتماعية عظمى في عمارة الكون، فإذا تعسف متعسف في استعماله فعلينا أن نمنع ذاك التعسف.

وإن الإساءة في القيام بواجب من الواجبات لا يجوز أن يكون سبباً لإعفاء الناس من هذه الواجبات. فالإمام - مثلاً- إن أطال في صلاته حتّى نفّر الناس من الصلاة لا يعفي المسلمين من صلاة الجماعة، بل يجب علينا أن نمنع هذه الإساءة كما فعل رسول الله ﷺ عندما بلغه فعل هذا الإمام فقال: «أيها الناس إنّ منكم منفرين، من أمَّ فليخفف، فإنّ وراءكم العاجز والضعيف وذا الحاجة»[1].

---

(١) البخاري ٩/ ٥٤-٥٥ برقم ومسلم ٤٦٦ وابن ماجه ٩٨٤ والدارمي ١/ ٢٨٨ ومجمع الزوائد ٢/ ٧٢ وفتح الباري ١٠/ ٥١٧ ومسند أحمد ٤/ ١١٨.

إن هذا ما يقتضيه العقل السليم، والمحاكمة الراجحة.

إن الطلاق حق للناس يؤدي مهمة عظيمة للقضاء على كل أسباب المنغصات في الحياة الاجتماعية والأسرية ولا يجوز أن يلجأ إليه عند أي نزوة، ولا أن يكون لتحريض محرّض من أصحاب الأهواء والأحقاد.. بل يكون الخطوة الأخيرة، التي تأتي بعد سلسلة من التصرفات التي قد تصون حياة الأسرة من الانهدام.

علينا أن نقف عند حدود الله، وأن نحمد الله على أن جعلنا مسلمين، وألا نسيء في أداء واجب فرضه علينا، وألا نتعسف في استعمال حق منحنا إياه إننا إن فعلنا ذلك سعدنا في الدنيا والآخرة وسعد بنا كل من حولنا.

وعلينا أن نتقي الشح فإنه المهلك للأفراد والجماعات، وقد جبلت النفوس عليه كما قال ربنا في آيات الطلاق الواردة في سورة النساء ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾.

ولنتأمل آيات من سورة النساء في موضوع الطلاق. يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ١٩-٢٠].

ومن هذه الآيات ما جاء في السورة ذاتها أيضاً: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٢٨-١٣٠].

إن هذه الآيات لتقرر الأمور الآتية:

١- ينبغي التريث في موضوع فكّ عقدة النكاح.

٢- هذا العقد ميثاق غليظ فليس من السهل إغفاله والتفريط فيه.

٣- الإصلاح مطلوب، والتنازل عن بعض الحقوق لبقاء الحياة الزوجية قائمة أمر مرغّب فيه، والشح سبب كثير من المشكلات.

٤- إغراء الصابرين الذين يصبرون على زوجات يكرهونهن بالخير الكثير.

٥- إذا عزم الطلاق فلا يحق له عضلها إيذاءً لها.

٦- وعليه عندئذٍ أن يؤديها حقها كاملاً غير منقوص.

إن التريث في أمر الطلاق لا ضرر فيه، بينما التسرع فيه الندم حيث لا يفيده الندم.. وهو موضوع في غاية الأهمية، فلا يجوز البت فيه دون إطالة النظر في عواقبه، وتقليب وجهات النظر، واستشارة أولي الرأي ممن يعرف.

وعليه أن يلجأ إلى الخطوات الشرعية، من التحكيم والإصلاح.

ولذلك رأينا الآيات تدعو إلى الصلح بإلحاح:

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾

ورغبت الآيات بالإحسان في المعاملة الزوجية وتقوى الله:

﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

ودعت مرة ثانية إلى الإصلاح عن طريق الترغيب:

﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

وتشير الآيات الكريمة إلى أن كثيراً من أسباب الخلاف هو الشح الذي يذمه الإسلام وينفر منه. فلنحذر هذا الشح الذي يقوض البيوت، ويهدم سعادة الأسر والأمم.

عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة: واتقوا الشح، فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا

محارمهم»[1].

إنّ الزوج قد يبخل بالإنفاق والعطاء، ولا يرضى أن يتنازل عن شيء من حقوقه ومطالبه.

وكذلك فإنّ المرأة قد تبخل بإعطاء زوجها حقه من الطاعة والمسايرة، والبسمة الحلوة والكلمة الطيبة، وتأبى أن تتنازل عن شيء من حقوقها لتبقى الحياة الزوجية قائمة. وربنا عزّ وجلّ يرغب الزوجين كليهما بترك هذا الشحّ الذي أحضرته الأنفس، فإذا خيف النشوز والإعراض فلا جناح عليهما أن يتفاهما ويصلحا بينهما، وأن يترك كل منهما لصاحبه شيئاً من حقوقه لبقاء الصحبة واستمرار عش الزوجية. جاء في "تفسير الجلالين":

[.. أن يصلحا بينهما صلحاً في القسم والنفقة بأن تترك له شيئاً طلباً لبقاء الصحبة، فإن رضيت بذلك وإلّا فعلى الزوج أن يفارقها، والصلح خير من الفرقة والنشوز والإعراض]

إذن فليس من العمل بأحكام الإسلام أن يطلق الرجل زوجته لأول غلطة، واستجابة لانفعال يعتمل في نفسه.. لأن ذلك سيتكرر معه وسيخسر زوجته، وسيتكرر مع الزوجات الأخر... وإذا كان ذلك تنغصت عليه حياته، وضاعت هناءته، ونمت فيه أنانيته، وتبدد ماله، وانتكست أحواله.

إنه لن يجد المرأة الكاملة التي لا ينكر فيها أمراً. كما أنها هي لن تجد الرجل الكامل الذي لا تأخذ عليه شيئاً.

وتقرر الآيات أن الصبر على المرأة لوجود عيب يسير فيها يعقبه خير كثير: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ إن الرباط الزوجي رباط وثيق لا يمكن أن يقطع بسهولة.

إن الحياة تقوم على أسس متعددة، وربما كان الحبُّ في نظر كثير من الناس أهمها، ولكن الحياة ليست كلها تقوم على الحب.. هناك التذمم والرعاية، والتودد

(١) رواه مسلم ٨/ ١٨ والبخاري في الأدب المفرد ٧٠ باب الظلم ظلمات ورياض الصالحين ٢٠٣ و٥٦١.

والتحمل والخلق والمصلحة، حدثني صديق أن شيخه أسرَّ له بحقيقة تقوم في حياته قال:

إن زوجتي هذه مضى على زواجي منها أربعون سنة، وما رأيت منها يوماً ساراً... وإنني من اليوم الأول من دخولي بها عرفت أنها لا تصلح لي بحال. ولكنها كانت ابنة عمي، وأيقنت أن أحداً لا يمكن أن يحتملها، فصبرت واحتسبت. وأكرمني الله منها بأولاد بررة صالحين، وساعدني نفوري منها على الاشتغال بالعلم، فكان من ذلك مؤلفات كثيرة نافعة، أرجو أن تكون من العلم الذي ينتفع به، ومن الصدقة الجارية، وأتاحت لي علاقتي السيئة بها أن أقيم مع الناس حياة اجتماعية نامية.

وربما لو تزوجت غيرها لم يتحقق لي شيء من ذلك.

وحدثني صديق آخر قال:

إنني من الأيام الأولى لزواجنا لم أجد في قلبي ميلاً لهذه المرأة ولا حباً لها. ولكنني عاهدت الله على أن أصبر عليها وألا أظلمها، ورضيت قسمة الله لي، ووجدت الخير الكثير في المال والولد والأمن والتوفيق.

أقول: لكن ذلك كان من هذين الرجلين برضى داخلي، وإيثار لمصلحة رأياها، ولم يسلكا هذا المسلك لأنه فرض عليهما لازم... فحقق الله لهما الخير الكثير.

ومن هذا الخير الثواب الذي أعدّه الله للصابرين، والحور العين التي ستكون لهم في الجنة جاء عن معاذ عن النبي ﷺ: «لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا»[1]. ومن الخير كما ذكرنا الذرية الصالحة والعلم النافع.

أما إذا أراد الإنسان العافية من هذا الصبر، والبحث عن المتعة والهناء والسعادة والصفاء، ووجد امرأة صالحة تحقق له في توقعه ذلك كله، فليس هناك مانع شرعي

---

(١) انظر ٩٣.

من أن يتزوج منها، ويعدل بين الزوجتين بما يستطيع من وسائل.

وإذا قبلت الأولى أن تتنازل عن بعض حقوقها لتبقى على عصمته فلا مانع من ذلك. أما إذا أراد مفارقتها فعليه أن يسرحها بإحسان، وأن يعطيها حقها كاملاً، وإن أخذ شيئاً من حقها أخذه بهتاناً وإثماً مبيناً.

ومن التسريح بإحسان أن يستر ما وقف على عيوبها ومساوئها، ولا يجوز له أن يشهّر بها.. وأما ما يفعله بعض السفهاء من الافتراء على مطلقاتهم والكذب عليهن فهذا عدوان مبين وظلم عظيم.

إنّ ملك الله واسع.. وإن ما لا يناسبك قد يناسب غيرك.

وما تعده أنت عيباً ربما كان في نظر الآخرين مزية.

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ فليستبشر أولئك الصابرون، وليعلموا أن الخير الكثير لاحق بهم إن هم أنصفوا ولم يجوروا في الحكم ولا في المعاملة.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس الأحاديث النبوية

أول الحديث	الصفحة
آخى النبي بين سلمان وأبي الدرداء	١٠٨
أبغض الحلال إلى الله الطلاق	٢١٦
أبلغي من لقيت من النساء أن طاعة الزوج	١١٥
اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة	٨٨
اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة	٢٢٤
اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد	١٣٨
اثنان لا تجاوز صلاتهما رؤوسهما: عبد أبق	٨٣
إذا أتاكم من ترضون	٥٥-٦٩
إذا دعا الرجل امرأته إلى	٩٢
إذا صلت المرأة خمسها وحصنت فرجها	٩١-١١٣ -١٧٤
إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث	١٨١
استوصوا بالنساء خيراً فإن المرأة	٩٠
استوصوا بالنساء خيراً فإنما هن عوان عندكم	٩٠

أطعم الطعام وأفش السلام وأطب الكلام ١٤٩
أطيعوا الله فيما أمركم ٣١
أعظم الناس حقاً على المرأة زوجها وأعظم الناس حقاً على الرجل أمه ٩٢
أكل ولدك أعطيتهم مثل هذا ١٨٣
أكمل المؤمنين إيماناً وأحسنهم خلقاً ٩١
ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ١٢٠
ألا لا تغالوا صدقات النساء فإنها لو كانت مكرمة (عمر بن الخطاب) ٤٩
ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن ٨٩
التمسوا الغنى في النكاح ٣١
أما معاوية فرجل ترب لا مال له وأما أبو الجهم ..... ٧١ هـ
أما معاوية فصعلوك لا مال له ٧١
أما والله إني لأخشاكم وأتقاكم له لكني ٧٧
أنت الذي تزعم أنك رسول الله (رجل من خثعم) ٢٠٣
أنت ومالك لأبيك ٢٠٨
أن تلد الأمة ربتها ٣٩
انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا ١٢٦

أن رسول الله أعتق صفية بنت حيي وجعل عتقها صداقها ٤٧
إن أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً ٨٨
إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ٨٨
إن شر الناس عند الله منزلة من ودعه الناس لاتقاء فحشه ١٥١
إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله ١٨٨
إن في الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها ١٥٠
إن الكذب يهدي إلى الفجور ١١٧
إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم ٢٠٦
إن الله رفيق يحب الرفق ٨٨
إن الله سائل كل راع عما استرعاه ١٦٧
إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم ٢٢٠
إن الله لا يحب الفحش ويبغض الفاحش المتفحش ١٥٠
إن الله لا يحب كل فاحش متفحش ١٥٠
إن الله ليعمر بالقوم الديار ويثمر لهم الأموال ٢٠٧
إن الله يحب إذا عمل أحدكم ١٥٤
إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ٨٧-١٥٠
إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً ١٥٠

-١٦١

إني كنت وجار لي من الأنصار (عمر بن الخطاب) ١٦٣

إني لأصوم وأفطر وأقوم وأنام ٥٥

أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة ٩١

أيها الناس إن منكم منفرين من أم فليخفف ٢٢٢

تنكح المرأة على إحدى خصال ١٦٥

تنكح المرأة لأربع ٦١-١٦٥

التي تسره إذا نظر ٨٤

ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن ١٨٨

ثلاثة حق على الله عونهم ٣١

جاء رجل إلى النبي فقال: يا رسول الله إن لي ذوي أرحام ٢٠٥

جاءت امرأة إلى رسول الله فقالت: يا رسول الله جئت أهب نفسي لك ٤٧-٤٨

جاءت فتاة إلى رسول الله فقالت: يا رسول الله إن أبي زوجني من ابن أخيه ٧٥

حق زوجة أحدكم عليه أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها ٨٩

خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكراً ١٢٧

خيركم خيركم لأهله ٩٧

دخل الحبشة يلعبون فقال لي النبي يا حميراء (عائشة) ١٥٨
دعهما يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا ١٥٧
الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة ٢٢٠
الدين النصيحة ١٩٣
الرحم متعلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله ٢٠٦
-٤٧-٣٢
زوجّه ﷺ على ما معه من القرآن ٥٨-٤٨
الطهور شطر الإيمان ١١١
فاظفر بذات الدين ٦٤
فحقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون ٩٢
فعليك بذات الدين تربت يداك ٤٣
فالمرء على دين خليله ١٨٦
قال الله تعالى: أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم ٢٠٠
قصة إبراهيم ونصحه اسماعيل بترك المرأة التي ٢١٤
كان ﷺ أحسن الناس خلقاً ٨٨
كان رسول الله يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات ١٦٦
كان صداقه لأزواجه ثنتي عشرة أوقية ونشأً ٤٧
كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول ١٦٧

كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت ٨٩
كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها ١٩٨
-٣٥-٧٢-
كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ..... -٩١-١٥٥-
١٦٨-١٨٢
الكلمة الطيبة صدقة ٩٠-١٠٧
-٩٣-١١٤-
لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين ... ٢٢٦
-٩٠-١٠٧-
لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك ١٣٨
لا تدعوا على أنفسكم ولا تدعوا على أولادكم ١٨٨
لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي ٢٢١
لا تغضب ٨٦-٢٢١
لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ١٦
لا نكاح إلا بولي ٥٩
لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد ٩١
لا يخطب الرجل على خطبة أخيه ..... ٧١ هـ
لا يدخل الجنة قاطع ٢٠٧
لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً ١١٧-١٥٥

لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون ٩١
لم يكن رسول الله فاحشاً ولا متفحشاَ وكان يقول ١٥٠
لو أن لابن آدم وادياً ١٣١
لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد ٩٢
ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل إذا ٢٠٤
ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً ٨٤
ما أنت محدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم ١٤٣
ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه بالعقوبة ٢٠٧
مروا الأقارب أن يتزاوروا ولا يتجاوروا (عمر بن الخطاب) ٢٠٨
المرأة راعية في بيت زوجها ٣٦-٩٢
معشر الشباب من استطاع منكم الباءة ٥٥
من ابتلي من هذه البنات بشيء ١٧٤
من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره ٢٠٢
٣٤- ٥٥
من رغب عن سنتي فليس مني ..... -٧٨
من سرَّه أن يمد له في عمره ويوسع له في رزقه ٢٠٢
من السنّة إذا تزوج الرجل (أنس) ٩٧
من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له بها نخلة ١٩٧

من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ٨٦-١٤٤-١٨٩
من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن ٢٠١
مِن الكبائر شتم الرجل والديه ١٨٣
المهر خاتم من حديد ٥٨
موجب الجنة إطعام الطعام وإفشاء السلام وحسن الكلام ١٤٩
الناس معادن خيارهم ٦٣
وفي بضع أحدكم صدقة ٣٢-٧٨
يا رسول الله أنا وافدة النساء إليك (امرأة) ١١٥
يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني (رجل) ٢٠٤
يا رسول الله قدمت الشام فوجدتهم يسجدون لبطارقتهم (معاذ) .. ١١٤
يا عائشة لو كان الحياء رجلاً كان رجلاً صالحاً ١٥١
٣٠-٤٣-
يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة ٤٥-٧٧
يعمد أحدكم فيجلد امرأته جلد العبد ٩٠
يوجب الجنة إطعام الطعام، وإفشاء ١٤٩

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
مقدمة الطبعة الثانية	٧
مقدمة الطبعة الأولى	٩
المرأة	١٣
صيانة الإسلام للمرأة	١٧
واجب المرأة المثقفة نحو نفسها وبيتها	٢٢
واجب المرأة المثقفة نحو المجتمع	٢٦
الإسلام ومسايرة الفطرة وحفظ النوع الإنساني	٣٠
حماية الأسرة واجب إسلامي	٣٥
تربية الفتاة وتوجيهها ضرورة لقيام الأسرة المسلمة	٤٠
أهمية الزواج	٤٢
عوائق الزواج	٤٥
الزواج المبكر والأخلاق	٥٣
مخاطر العزوف عن الزواج وعلاجها	٥٦
اختيار الزوجة	٦١
الزواج من الكتابيات	٦٤
اختيار الصهر	٦٩
دعائم الحياة الزوجية	٧٦
المودة والرحمة بين الزوجين	٨١

حسن العشرة بين الزوجين ٨٧
كلمة إلى العرس والعرائس ٩٤
وصايا للزوجين ٩٩
من أخطاء الموازنة ١٢٥
القناعة ١٢٩
وقولوا للناس حسناً ١٣٣
خراب البيوت وعمرانها ١٥٣
من حياة الرسول الزوجية ١٥٦
الحياة الزوجية عند السلف ١٦٠
الآباء والأبناء في القرآن ١٦٤
في التربية ١٧٥
في تربية الأولاد ١٨٠
الدعاء على الأولاد ١٨٧
نصيحة الأولاد ١٩٠
صلة الأرحام ١٩٩
في الطلاق ٢١٠
فهرس الأحاديث النبوية ٢٢٩

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

نظرات في
الأسرة المسلمة